الكتب وجهات نظر

في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 108 - January 2008

مجلة شهرية . العدد المائة وثمانية . السنة التاسعة . يناير ٢٠٠٨ . الثمن عشرة جنيهات

2007

الكتب .. مراجعة المراجعات .. وجائزة لتداول السلطة !

« تلات سلامات » .. زمن محمود الشريف



السنة التاسعة
العدد المائة وثمانية
يناير ٢٠٠٨

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد
رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أبوالعلا ماضي.. ناشط إسلامي ـ وكيل مؤسسي حزب الوسط (تحت التأسيس).
- أمبرتو إكو.. كاتب وروائي وأستاذ للفلسفة بجامعة بولونيا.
- أنطوان زحلان.. أستاذ سياسات العلوم ومؤسس الجمعية الملكية الأردنية للعلوم.
- جريج جراندن.. أستاذ التاريخ في جامعة نيويورك.
- خالد أبوالفضل.. أستاذ القانون الإسلامي وحقوق الإنسان بجامعة كاليفورنيا.
- السيد أمين شلبي.. سفير سابق والمدير التنفيذي المجلس المصري للشئون الخارجية.
- طاهر حمدي كنعان.. نائب رئيس وزراء أردني سابق وعضو منتدى الفكر العربي.
- عبد الرءوف الريدي.. رئيس المجلس المصري للشئون الخارجية.
- محمد المهدي.. مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.
- محمود محيي الدين.. اقتصادي وسياسي مصري يشغل حالياً منصب وزير الاستثمار.
- معتز خورشيد.. مدير المجلس العربي للدراسات العليا ونائب رئيس جامعة القاهرة السابق
- مينا بديع عبدالملك.. أستاذ ورئيس قسم الرياضيات بكلية الهندسة جامعة الإسكندرية.
- نبيل حنفي محمود.. كاتب وأستاذ بجامعة المنوفية.
- يواكيم تشيسانو.. رئيس موزمبيق الأسبق.

رسوم العدد للفنان

محمد حجي ـ سعد الدين شحاتة

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٢ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠ / ٢٣٩٣٠٤٩٢ / ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير) e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد ـ داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري ـ اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولاراً أمريكيا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكياً ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكيا ـ باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري ـ ص.ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالاً ـ سلطنة عُمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهما ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

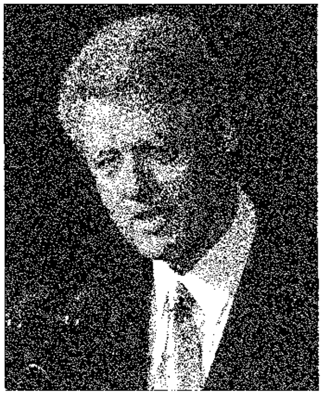
** تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة **

أمريكا وثلاثة رؤساء

السيد أمين شلبي



بـــوش الأب



كلينتـــون



بـــوش الابن

* زبجنيو برجنسكي هو أحد الخبراء الأمريكيين البارزين، وقد بنى سمعته الأكاديمية كخبير في شئون الاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية. واعتبر كتابه الذي كتبه بالتعاون مع صموئيل هينتنجتون USSR - US أحد المراجع الأساسية في فهم السياسة السوفيتية والتعامل معها. وقد اختاره الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر مستشارا للأمن القومي ١٩٧٦ - ١٩٨٠ وارتبط عهده بثلاثة أحداث تحويلية كبرى: معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية ١٩٧٨، واستكمال عملية الانفتاح على الصين، وإقامة علاقات دبلوماسية كاملة معها واستراتيجيته في توريط الاتحاد السوفيتي في أفغانستان، ودعمه العسكري للمجاهدين الأفغان والذي كان من عوامل تفكك الاتحاد السوفيتي.

وبعد انقضاء عمله كمستشار للأمن القومي عمل زميلا في معهد الدراسات الاستراتيجية في واشنطن وأصدر كتبه: Out of Control, The Grand Chess game, The Choice والكتب الثلاثة تناقش الوضع الأمريكي بعد انقضاء الحرب الباردة.

Second Chance : Three Presidents and The Crisis of American Superpower

(فرصة ثانية.. ثلاثة رؤساء وأزمة القوة العظمى الأمريكية)

Zbigniew Brzezinski

Basic books 2007

هذا الكتاب الذي نعرض له هو استمرار لهذا المشروع بالتركيز على الرؤساء الثلاثة الذين ورثوا نهاية الحرب الباردة: بوش الأب، وبيل كلينتون، وبوش الابن. وموضوع هذا الكتاب هو كيف فهم الرؤساء الثلاثة نهاية الحرب الباردة وجوهر العصر الجديد، وهل استرشدوا برؤية تاريخية تتفق مع هذا الحدث؟ وهل اتبعوا استراتيجية متماسكة؟ وأي قرارات في السياسة الخارجية كانت أكثر تأثيرا؟ وهل تركوا العالم على صورة أحسن أم أسوأ؟ وهل كان الموقف الأمريكي في العالم أضعف أم أقوى؟ وأي دروس رئيسية للمستقبل يمكن الخروج بها من أداء أمريكا عبر السنوات الخمسة عشر باعتبارها القوة الأعظم الوحيدة؟ وعلى هذا تصبح هذه القوة الأعظم الأولى. وهذه السنوات الخمسة عشر وهؤلاء الرؤساء الثلاثة الذين تولوا خلالها هي موضوع هذا الكتاب.

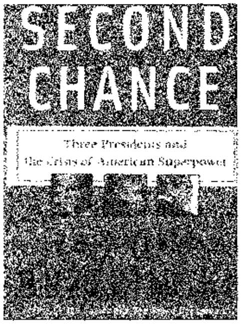
ويبدأ برجنسكي بالرئيس الأمريكي الأول الذي ورث نهاية الحرب الباردة ومن ثم بروز الولايات المتحدة باعتبارها القوة الأولى والوحيدة في العالم، وهو جورج بوش الأب، وقد كانت العلامة المميزة في عهده هي عبارة «النظام الدولي الجديد» والتي أصبحت ترمز لرؤيته للعالم.

وباعتبار أنه عاصر عملية تصدع الاتحاد السوفيتي فإن جورج بوش قد تعامل بمهارة مع هذا التطور، وقد توافق مع هذه العملية عدوان صدام حسين على الكويت وهو ما عبأ به بوش الرأي العام الدولي بمهارة دبلوماسية فائقة وبتصميم عسكري، إلا أنه في الحالتين لم يترجم أي انتصار إلى نجاح تاريخي دائم، فالنفوذ السياسي الأمريكي الفريد في هذا الوقت لم يطبق استراتيجيا لا إلى إحداث تحول في روسيا ولا جلب السلام في الشرق الأوسط. غير أنه إنصافا لبوش فإنه من الرؤساء الأمريكيين منذ نهاية الحرب الثانية كان عليه أن يواجه هذا الغليان الواسع والكثيف. وأيا كانت التحفظات على ميراثه إلا أنه أحسن اختيار فريقه للسياسة الخارجية. ولكن في الوقت الذي كان يتشاور معهم ودعوته من وقت لآخر لمستشارين من خارج البيت الأبيض، فقد كان بوش بدون شك الأول بينهم والصانع الأول العليم والواثق للقرار. غير أن ما كان يحتاجه بوش هو تحديد أولوياته والنظر أبعد من اليوم والغد وأن يكون واضحا حول إحساسه بالاتجاه والتصرف على هذا الأساس. وهذا هو ما لم يفعله بوش، وقد ركز في المقام الأول على الهدف الحساس في الإدارة السلمية لتفكك الإمبراطورية السوفيتية، ثم على وقف أطماع صدام حسين ولقد حقق بشكل لامع كلتا المهمتين ولكنه لم يستغل أيا منهما.

وفي إدارته للتفكك السوفيتي وآثاره، فقد كان في قمة أولويات بوش التأكد من أن الترسانة النووية السوفيتية لن تقع في أيد لا يعتمد عليها في الدول التي تخلفت عن الاتحاد السوفيتي والتي كانت تتركز فيها هذه الترسانة. وهكذا فقد كان التركيز الرئيسي للدبلوماسية الأمريكية خلال العام الأخير في الرئاسة هي المفاوضات مع الدول المستقلة حديثا: أوكرانيا، بيلاروسيا، وكازاخستان حول نقل هذه الأسلحة إلى روسيا نفسها، مثل هذا العمل كان يتطلب وقتا وطاقة، وقد تعامل معه فريق بوش بمهارة معتمدا على النفوذ الضخم الذي تمتعت به الولايات المتحدة في أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتي. غير أن تعقد الأحداث والمهام التي يجب مواجهتها في السنوات الثلاث السابقة قد تركت إدارة بوش مجهدة فكريا وبلا فكر خلاق: فحقيقة أن بوش وفريقه قد أداروا بنجاح تفكك الإمبراطورية السوفيتية ولكن كان لديهم القليل من الوقت للتخطيط لما بعد النصر الذي - شأن غيرهم - لم يتوقعوه بشكل كامل.

ومع الوقت القليل الذي تبقى قبل الانتخابات الرئاسية التالية، فإن إغراء الاعتماد على أكاليل النصر وعلى شعار غامض كان قويا بما لا يمكن مقاومته. وقد كانت سياسة بوش تجاه روسيا الجديدة غنية بالبلاغة، وكريمة فيما يتعلق باللفتات ولكنها خاوية استراتيجيا. ولقد ترك فريق بوش التحديات الجديدة لروسيا ما بعد

مع بداية عام ١٩٩٢ كان لدى بوش الأب قدرة أكثر لتحقيق اختراق للسلام، ولكنه لم يحاول الضغط على الأطراف لتسوية القضايا الرئيسية المتنازع عليها



الاتحاد السوفيتي تأخذ مجراها في الوقت الراهن حتى يمكن معالجتها في الولاية الثانية التي لم تأت. وقد أعيد تحديد مفهوم النظام الجديد بشكل ملائم لكي يتضمن روسيا يلتسين ولكن بدون أي مضمون جديد وبدون أي استجابة طويلة الأجل لعالم ما بعد الاتحاد السوفيتي. أما عن موقف الإدارة من أفغانستان فقد كان سلبيا فالولايات المتحدة التي قدمت عبر رؤسائها كارتر وريجن وبوش دعما للمقاومة، فعلت القليل للتعامل مع أفغانستان المدمرة بعد الخروج السوفيتي ولضمان الاستقرار السياسي والنقاهة الاقتصادية. وقد ظهرت آثار هذا الإهمال بعد وقت طويل من خروج بوش من السلطة.

أما عن منطقة الشرق الأوسط ونزاعها الطويل الأمد فإن برجنسكي يعتبر أن التحالف الذي صنعه بوش ضد صدام حسين قدم فرصة للولايات المتحدة لاستخدام وضعها الاستثنائي لكي تعالج أكثر صراعات المنطقة مرارة والتي سببت كثيرا من المعاناة ومصدرا رئيسيا لتصاعد المشاعر المعادية لأمريكا، وهو الصراع الفلسطيني الإسرائيلي.

وقد بدأ بوش ولايته الرئاسية مستعدا للقيام بمبادرة شاملة لإنهاء الصراع. حتى قبل حرب ١٩٩١ فقد صدرت عنه إشارات عن ذلك رغم وجود حكومة الليكود في إسرائيل والتي كانت ملتزمة ببناء المستوطنات في الأراضي الفلسطينية، ففي مايو ١٩٨٩ وبعد أربعة شهور من توليه السلطة، ذكر وزير خارجية بوش صراحة للايباك اللوبي الإسرائيلي الأساسي أن «على إسرائيل في هذا الوقت التخلي إلى الأبد عن الرؤية غير الواقعية عن إسرائيل الكبرى... والتخلي عن سياسة الضم ووقف نشاط المستوطنات والتواصل مع الفلسطينيين كجيران يستحقون الحقوق السياسية». وفي مارس ١٩٩٠ أعلن بوش نفسه «أن مواقف السياسة الخارجية للولايات المتحدة تقول إننا نعتقد أنه لا يجب أن تكون هناك مستوطنات جديدة في الضفة الغربية وفي القدس الشرقية». وفي منتصف عام ١٩٩١ طلب شامير قرضاً بـ ١٠ بلايين دولار في الوقت الذي رفض فيه بناء المستوطنات وهو ما قابله بوش بفرض حظر على ضمان قروض لإسرائيل.

وهكذا فإنه في عام ١٩٩١ ومع بداية عام ١٩٩٢ كان لدى بوش الأب قدرة أكثر لتحقيق اختراق للسلام أكثر من أي رئيس أمريكي آخر منذ ايزنهاور، ولكنه لم يحاول أن يستخدم موقفه الاستثنائي في المنطقة للضغط على الأطراف لتتبنى مبادئ واضحة فيما يتعلق بالقضايا الرئيسية المتنازع عليها كما أنه لم يلزم أمريكا بمثل هذه المبادئ من خلال إعلان علني وملزم. أما هذه المبادئ فهي في تقدير برجنسكي: لا لحق العودة للفلسطينيين، لا لتوسع إسرائيلي كبير بعد حدود ١٩٦٧، تعويضات للأراضي لأي تغيرات، صيغة للمشاركة حول القدس، ونزع السلاح لما يترتب من دولة فلسطينية.

ويعتبر برجينسكي أن ولاية ثانية ربما كانت ستعطي بوش الوقت لكي يصبح حقا رئيسيا مجددا، و الذي سيصنع مرحلة تاريخية جديدة. وبالتأكيد فإن سجله في التعامل مع محنة الإمبراطورية السوفيتية تستحق أكبر استحسان، ولكن في الشرق الأوسط فإن انتصارا عسكريا مذهلا قد انخفض الى مجرد نجاح تكتيكي والذي أصبح ميراثه الاستراتيجي سلبيا بشكل تدريجي. ويستخلص برجينسكي أن العمل غير المنتهي في كل من الصراع العربي الإسرائيلي، ووقف إطلاق النار في العراق سوف تلازم خلفاء بوش، وأصبح العرب بشكل متزايد يرون دوراً أمريكيا في المنطقة لا نفوذا مجددا ولكن كإعادة إنتاج للماضي الاستعماري.

على العكس من خلفه كان للرئيس بيل كلينتون رؤية عالمية. وقد تلاءمت بشكل كامل الحتمية التاريخية الكامنة في مفهوم العولمة، بالاعتقاد العميق لكلينتون أن أمريكا لكي تبرر دعوة نفسها «بالأمة التي لا غنى عنها» يجب أيضا أن تجدد نفسها. وبالنسبة لكلينتون كانت السياسة الخارجية الى حد بعيد امتداداً للسياسة الداخلية. وهكذا أصبح التجديد الداخلي الموضوع الرئيسي لولاية كلينتون الأولى. ولكن مادامت السياسة الخارجية لا يمكن تجاهلها، فإن تركيز كلينتون على العولمة قدم له صيغة في دمج الداخلي والخارجي وحررته من الالتزام بتحديد واتباع استراتيجية منتظمة للسياسة الخارجية. وهكذا أصبحت العولمة الموضوع الذي بشر به كلينتون باعتقاد رسولي في الداخل والخارج وخلال زيارة له لفيتنام في مؤتمر ٢٠٠٠ وصف العولمة بأنها «المعادلة الاقتصادية لقوة الطبيعة». وبعد ذلك أبلغ الرئيس الروسي بأن السمة المحددة للعالم هي العولمة.

وعكس بوش الأب نظر كلينتون للشئون الخارجية كاستمرار للسياسة الداخلية بوسائل أخرى. وقد أثرت هذه النظرة أيضا في الطريقة التي صنعت بها قرارات السياسة الخارجية تحت قيادة كلينتون وكيف اختبرت الشخصيات الرئيسيه لفريقه في السياسة الخارجية. وقد أظهرت ولايته الثانية نوعا من التكيف وإن كان متأخرا بعض الشيء. فقد انجذب الى ارتباط أكبر بالسياسة الخارجية وعكس فريقه للشئون الخارجية مستوى عاليا من النشاط. غير أن الأولوية التي أعطاها كلينتون في ولايته الأولى للسياسة الداخلية كان لها تأثيرها الجانبي حيث شجعت الكونجرس الذي يتأثر بشكل متزايد باللوبيات والارتباطات الأجنبية. بأن يشرع للسياسة الخارجية، وقد كان أكثر هذه اللوبيات نشاطا ونجاحا هما اللوبي الإسرائيلي والكوبي واللذان امتلك كل منهما الموارد لكي يصنع فروقا في عمليات التبرع خلال الانتخابات وخاصة في ولايتين هما نيويورك وفلوريدا. ولكن للإنصاف لكلينتون جعلت الحالة العنيفة للعالم من الصعب تحديد أولويات واضحة للسياسة الخارجية وتحديد التهديدات الجيوبوليتيكية، على عكس بوش لم يواجه كلينتون تحديات لها إمكانات ضخمة على الخير أو الشر مثل أزمات الكتلة السوفيتية أو التحدي الذي فرضه غزو صدام حسين للكويت.

وقد عكس كلينتون صورة جذابة لقائد شاب يمتلك حساسية للمعضلات التكنولوجية والبيئية التي تواجه البشرية وعلى وعي بالعيوب الأخلاقية للوضع العالمي ومستعد لأن يعين البشرية في جهد مشترك للتعامل مع مشكلات لم تعد قابلة للحل من خلال أمة واحدة.

وقد جاء اختفاء الاتحاد السوفيتي ليخلق ثلاث فرص هامة لكلينتون لاتباع أجندته حول الأمن والتعاون العالمي. فقد جعلت من الممكن إطلاق مبادرات أمريكية روسية شاملة للحد من التسلح بين الأمتين. وقد خلف اختفاء العالم الثنائي القطبية نظاما عالميا أوسع للأمن المشترك. كما أن انتهاء تقسيم أوروبا كان يعني أن أوروبا الاكبر والقابلة للحياة المتصلة بشكل أوثق بأمريكا من خلال الرابطة الاطلنطية سوف تبرز. وقد أدى انهيار الاتحاد السوفيتي - بوجه خاص - إلى تحقيق الهدف الأول وخلق فرص مواتية لوقف سباق التسلح بين الولايات المتحدة وروسيا والتوصل إلى اتفاقات مثل ستولت ٢ عام ١٩٩٣ لخفض الترسانات الأمريكية والروسية، وهكذا شهد منتصف التسعينيات نهاية سباق التسلح كأكبر مصدر للتهديد المحتمل والمدمر في تاريخ البشرية. غير أن هذا لم يمنع من ظهور تحديات جديدة مثل التحدي الذي مثلته كوريا الشمالية والذي ظهر بعد أسابيع من تنصيب كلينتون. وعبر العامين التاليين دخلت الولايات المتحدة الأمريكية وكوريا الشمالية في محاولات مضنية حول البرنامج الكوري النووي وحول برنامجها للصواريخ التكنولوجية. بل إنه عند نقطة ما من عام ١٩٩٦ راودت إدارة كلينتون فكرة ضربة استباقية ضد المنشآت النووية لكوريا الشمالية ولكن كلينتون قرر فرض عقوبات اقتصادية بدلا من ذلك وفي نهاية عام ٢٠٠٠ وقبيل أسابيع من الانتخابات الرئاسية زارت وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت الرئيس الكوري الشمالي والمحت الى امكانية زيارة الرئيس كلينتون لبيونانج. وقد كان الدرس الذي خلفه كلينتون لخلفائه في قضية منع الانتشار أنه مع عدم التعادل الضخم في القوة بين الولايات المتحدة وبين غيرها من الذين يسعون إلى الانتشار النووي، فإن البديل الوحيد للحرب هو التعاون الدولي الحقيقي على المستوى الإقليمي وفي مرحلة مبكرة من التحدي النووي.

ويعتقد برجنسكي أنه مما أضر بسمعة كلينتون كقائد له رؤية فشل الولايات المتحدة في دعم الجهد الدولي لإطلاق استجابة مشتركة للتهديد المتزايد للاحتباس الحراري العالمي. وقد انتهى الجدل الداخلي الذي ثار في الولايات المتحدة والذي انحنى كلينتون أمامه معارضة الكونجرس بروتوكول كيوتو على أساس أنه ليس عمليا ولا عادلا. وفي نهاية عهد كلينتون فإن الأجندة المأمولة لرئاسته كانت موضع شك فيما عدا توسيع ودعم التحالف الأطلنطي الذي بدا باعتباره أكثر الاتحادات الاستراتيجية دوما وإن كانت سوف تتعرض للضرر بشكل جاد من سياسة خلفه، غير أن رؤية كلينتون الرئيسية وهي العولمة

أمريكا
وثلاثة رؤساء

باعتبارها المعادل الاقتصادي للقوة الطبيعة، أصبحت تحت ضجوج عنيف.

غير أنه اذا كانت الحرب الباردة قد انتهت إلا أنها قد رفعت الغطاء عن عدد من الصراعات والمشكلات الدولية. وهذا ما واجهه كلينتون حين واجه بعد توليه اشتعال العنف في عدد من مناطق العالم مثل الصومال، ورواندا، وتفكك يوغسلافيا وانغماس روسيا في الحرب مع الشيشان واختبار الصين لحدود تصميم الولايات المتحدة لحماية تايوان. وأكثر من ذلك تفجيع النزاع العربي الإسرائيلي عبر ولايتيه حيث لم يتحقق إلا تقدم ضئيل وعدد من النكسات في عملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية، والعراق حيث أصبحت مصدرا من المواجهة الدورية وتكثيف عمليات الإرهاب ضد الولايات المتحدة مع ارتفاع حرارة المنطقة. مثل هذه التحديات كانت تتطلب قدرا أكبر من الإيمان في قوة الاندفاع التاريخية للعولمة. ولكن لرصيد كلينتون ضد ميله الطبيعي. حاول كلينتون أن يتجاوب مع الأزمة في البلقان وكان ناجحا في النهاية ولكن لسوء الحظ فإن هذا لا يمكن أن يتحقق في حالة الصومال ورواندا.

وفي تقدير برجنسكي أن ميراث كلينتون الأكثر مدعاة لخيبة الأمل كان في فشله في استغلال الفرص التي ظهرت على السطح على الأقل حول مناسبتين تتعلقان بالعلاقة الفلسطينية الإسرائيلية الراكدة. وربما أيضا فيما يتعلق بالعلاقة الأمريكية الإيرانية. وقد كانت الفرصة الأولى لدفع سلام فلسطيني إسرائيلي قد بزغت بعد وقت قصير منذ تولى كلينتون السلطة. أما الثانية فقد حدثت قبل وقت قصير من تولي كلينتون السلطة، وقد اضيعت السنوات بين ذلك في الوقت الذي انحرفت فيه السياسة الأمريكية تدريجيا من الالتزام المتحيز لتسوية عادلة إلى وضع منحاز وأحادي الجانب لإسرائيل. وقد عكس فريق كلينتون هذا التطور حيث اختير الفريق الذي تولى المفاوضات من معاهد البحث الموالية لإسرائيل واللوبيات الإسرائيلية. وقد عارض أبرز هؤلاء أي مبادرة محددة للسلام على أساس أن الوقت يجب أن يمر قبل أن يكون الفريقان مستعدين لتسوية حقيقية، ومثل هذه الحجة استخدمتها أكثر العناصر المتشددة في إسرائيل الذين استخدموا الوقت لتوسيع ودعم المستوطنات في الأراضي الفلسطينية باعتقاد أن الحقائق المتحققة على الأرض سوف تجبر الفلسطينيين بعد ذلك على تنازلات أحادية أكثر. أما فيما يتعلق بدعوة كلينتون الى مؤتمر كامب ديفيد ٢ فإنه على عكس كارتر، كان يفتقر إلى إطار أمريكي مسيطر قائم على مواقف أمريكية محددة وعلى مشروع أمريكي للتفاوض. وإذا كان الجهد الذي بذله كلينتون لإحداث اختراق قد بذل في وقت مبكر، مباشرة بعد انسحاب باراك فربما كان هناك وقت لكي يستقر الغبار ولكي تسود صيغة كامب ديفيد بعد ذلك.

أما عن العلاقات مع إيران فقد ظلت مجمدة وفي عداء متبادل، وقد كانت اختيارات كلينتون محدودة بتشريعات معادية سياسيا له والتي تمنع أي استكشاف لحوار إيراني – امريكي. وعلى العكس، فقد أعلن كلينتون في خطبة امام المؤتمر اليهودي العالمي، وردا على نفتة إيرانية لفتح آبار بترولها للاستثمارات الأمريكية، إصدار أوامر رئاسية تمنع التجارة مع إيران. وفي عام ١٩٩٧ أنتجت الانتخابات الإيرانية رئيسا معتدلا. الأمر الذي كان من المفروض أن يفتح نافذة لاستكشاف تحسن في العلاقات الأمريكية الإيرانية، ولكن خوفا من الآثار الداخلية من اللوبيات الإسرائيلية والإيرانية، اختار كلينتون مرة أخرى ألا يتصرف بشكل إيجابي. هذه التطورات في مجموعها قد أنتجت آثاراً عكسية أساسية حول رؤية المنطقة لأمريكا. فقد كان الكثيرون في الشرق الأوسط ينظرون الى دخول أمريكا في المنطقة كقوة محررة سوف تؤدي إلى رحيل السيطرة البريطانية الفرنسية، ولكن بعد خمسة عقود فإن اعداداً متزايدة من العرب والمصريين والإيرانيين أصبحوا بشكل متزايد يتبنون تصور أن المنطقة مرة أخرى تعاني من السيطرة الأجنبية تحت قناع جديد. وهو الشعور الذي أدى بدوره إلى إعطاء دافع للأعمال المميتة والإرهابية الموجهة ضد الشخصيات العسكرية والدبلوماسية الأمريكية في المنطقة. ورغم هذا فإنه ليست هناك شواهد أن تصاعد التهديد الإرهابي المعادي للولايات المتحدة قد أدى إلى أي جهد أمريكي جاد لصياغة استراتيجية شاملة لإجهاض هذه التهديدات. هذا الركود الجيوبولتيكي في المنطقة – الذي باركته أمريكا إلى حد بعيد، لم يشجع أياً من هذه الجهود. وقد ظلت القضية نائمة حتى صدم الرأي العام الأمريكي بصباح شنيع بعد ٧ أسابيع من رحيل كلينتون عن السلطة.

وهكذا ترك كلينتون منصبه والعلاقات الفلسطينية الإسرائيلية في أسوأ صورها والشرق الأوسط في حالة غليان أكثر مما كان عندما تولى منصبه. ولسوء الحظ فإن نظامه غير المكترث في صنع القرار والذي أفسدته الحسابات السياسية الداخلية قد أدى إلى خلل استراتيجي والذي كانت له معان خطيرة لمصالح أمريكا طويلة الأجل.

فاذا كان كلينتون قد نجح في التوصل إلى تسوية عادلة للصراع الفلسطيني الإسرائيلي فإنه كان سيكسب لنفسه ولأمريكا نجاحا تاريخيا هاما.

ويستخلص بريجنسكي تقييمه لسنوات كلينتون في السلطة بقوله أن كلينتون نفسه كان موضع إعجاب ومحبوبا عاليا وبجاذبية شخصيته تكاد ترقى إلى رئيسين سابقين هما فرانكلين ورزفلت وجون كيندي، ولكن لم يستغل سنواته الثماني في البيت الأبيض لكي يحول زعامة أمريكا المكتسبة الجديدة إلى طريق محدد يلهم الأمم الأخرى باتباعه، وهو ما لم يبذل أبدا جهدا متسقا لتطوير واتباع استراتيجية شاملة لدور أمريكي مسئول في العالم العنيف الذي يواجهه. وقد كان لديه الذكاء والشخصية لعمل ذلك، ولكن أسلوبه اللامبالي والانتهازي لصنع القرار لم يكن ليؤدي إلى وضوح استراتيجي وكان إيمانه في الحتمية التاريخية للعولمة جعلت مثل هذه الاستراتيجية غير ضرورية وهكذا يمكن القول أنه خلف عام ٢٠٠١ ميراثا غير مكتمل ومعرضاً للخطر لخليفته ونقيضه الأيديولوجي.

يطلق برجينسكي على جورج دابليو بوش «القيادة الكارثية»، ويعتبر أن أحداث ٢٠٠١/٩/١١ كانت أحداثا تحويلية تحول منها بوش إلى قائد حاسم لأمة في حرب. وبناء على هذا فإن أمريكا ستتصرف بذاتها بغض النظر عن آراء الحلفاء، والتف الشعب الأمريكي حول القائد واستراتيجيته التي عكست «الحرب على الإرهاب» اهتمامات إمبريالية تقليدية للسيطرة على موارد الخليج الفارسي وكذلك رغبات المحافظين الجدد لدعم أمن إسرائيل بتصفية الخطر العراقي. وقد كانت النتائج الأولية لهذا الخليط مؤدية إلى الفخر والخيلاء. فقد أطيح بحكومة طالبان في افغانستان وفي أقل من ١٨ شهراً بنظام صدام حسين بهجوم أرضي أمريكي في أقل من ثلاثة أسابيع، وهكذا كان المزاج في البيت الأبيض مزاج انتصار ورفض للمفاهيم القائمة على الواقع reality based معتبرين أن الولايات المتحدة الآن هي إمبراطورية وأنهم حين يتصرفون فإنهم يخلقون الواقع. وليس من المستغرب ألا يتأخر الانتقام، ففي خلال شهور فقط أصبحت السياسة الخارجية للقوة الأعظم الأولى المهيمنة يسيطر عليها النتائج المستنفرة للحرب في بلد بعيد بذاتها الولايات المتحدة ولكنها لا تستطيع أن تنهيها وفي نفس الوقت أخذت الحرب على الإرهاب شكل تصادم مع عالم الإسلام ككل.

من ناحية أخرى فإن مستشاري بوش الابن للشئون السياسية الداخلية انتهزوا هذه اللحظة لرفع الهجوم الإرهابي إلى إعلان عن تكريس الرئيس كقائد أعلى يمنح سلطات تنفيذية قوية، وبمخاطبة الوطنية الغاضبة للجمهور في الوقت الذي أشاعوا فيه الخوف والارتياب في الآخرين، سوف تولد فوائد سياسية وقد جاءت انتخابات عام ٢٠٠٤ لكي تؤيدهم، وهكذا أصبحت الحرب التي لا نهاية لها على الإرهاب أداة سياسية داخلية مثلما هي أداة للسياسة الخارجية، اما وزير خارجية بوش كولين باول فعلنيا كان غامضا، و كان أكثر المتحدثين دفاعا عن الحرب في العراق مجادلا بأنها ضرورة يمليها التهديد الذي تفرضه أسلحة الدمار الشامل لدى العراق، ولكنه على المستوى الشخصي كان يعرب عن تحفظات عميقة حول مقدمات ونتائج الطريق الذي يعتزم الرئيس الشروع فيه: ولا يمكن للمرء إلا أن يتساءل ماذا كان يمكن أن يحدث إذا ما كان بدلا من أن يعرب عن آرائه مع كتاب ومعلقين قد اختار أن يتخذ موقفا علنيا حول مسألة لها مثل هذه المركزية للمصالح القومية.

كذلك من الصعب تفادي النتيجة أنه في لحظة ما في عام ٢٠٠٢ فإن مجلس الأمن القومي قد توقف عن أن يمارس دوره التقليدي في الفحص الدقيق وتقييم تدفق المعلومات الاستخبارية إلى الرئيس، كذلك فإن التقييمات البديلة والمتشككة قد توقفت عن أن تصل للرئيس. وهكذا ظهر توافق واقعي في صالح العمل العسكري مع بداية عام ٢٠٠٢. ومع يونيو كان نائب الرئيس يشرح فوائد إزاحة صدام حسين بالقوة «فالمعتدلون في المنطقة سوف يتجرأون، وسوف تتقدم قدرتنا على دفع العملية السلمية بين الفلسطينيين والإسرائيليين». وعبر السنوات الثلاث أو الأربع القادمة فإن الهوس على مستوى عال بالعراق قد غطى على كل قضية خارجية واجهتها أمريكا.

ومع عام ٢٠٠٦ كان واضحا أن تكاليف الحرب قد تعدت الإنجاز الإيجابي الوحيد الذي حققته وهو الإطاحة بصدام حسين، وهذه التكاليف تتحدث عن نفسها وأصبحت مألوفة. فهي أولا قد سببت ضررا فاجعا لوضع أمريكا العالمي وتصدعت مصداقية أمريكا العالمية، كما قوضت عدم الثقة في شرعية أمريكا العالمية وهي المصدر الرئيسي للقوة اللينة Soft Power للأمة. وما هو أكثر أهمية من كل شيء فقد أساءت إلى قيادة أمريكا العالمية ولم تعد أمريكا قادرة على أن تجمع العالم حول قضيتها ولا على أن تسود بشكل حاسم





باستخدام القوة. وقد قسمت حلفاءها ووحدت أعداءها وخلقت فرصا لخصومها ومن يتمنون لها الشر. وتحول عالم الإسلام إلى كراهية مريرة. وانحسر الاحترام لأمريكا كدولة بشكل كبير، فى الوقت الذى تعرضت فيه قدرة أمريكا على القيادة بضرر بالغ. وثانيا: كانت الحرب على العراق كارثة جيوبولوتيكية. فقد حولت الموارد والاهتمامات عن الإرهاب، وتلى النجاح الأولى للحرب فى أفغانستان بإعادة بعث طالبان وخلقت بذلك ملاجئ جديدة للقاعدة، وقد تطور الاتجاه فى الصومال. وظل الاستقرار السياسى فى باكستان موضع شك حيث استغلت العناصر الأكثر تطرفا فى البلد علاقة النظام الوثيقة مع الولايات المتحدة.

أما عن الخسارة المادية للحرب فقد كانت ترتفع بشكل ثابت، ففى الوقت الذى كان فيه عدد الموتى الأمريكيين يقترب من ٣٠٠٠ وقرابة ٢٠٠٠٠ من المشوهين يسجلون، فإن عدد القتلى من العراقيين ظل غير محصى بشكل متعمد. فمن الواضح أن يبلغ عشرات الآلاف بالإضافة إلى الجرحى وحيث يلوم أقاربهم أمريكا على ذلك.

ويمكن تقدير التكاليف المالية بشىء من الدقة وهذه وفقا للدراسات الكونجرس تعدت ٣٠٠ بليون، أما التكاليف غير المباشرة فهى أعلى بعدة مرات، وبالتالى فإن معانى ذلك بالنسبة للقوة العسكرية الأمريكية وصحتها الاقتصادية من الواضح أنها معاكسة. وعلى عكس توقعات نائب الرئيس فقد شاعت المشاعر المعادية لأمريكا فى الشرق الأوسط واكتسبت القوى الراديكالية السياسية جاذبية شعبية وهددت النظم الصديقة للولايات المتحدة، وأزاح تدمير العراق الدولة العربية الوحيدة القادرة على الوقوف فى وجه إيران عقيدة بذلك أكثر خصوم أمريكا حماسا فى المنطقة، وباعتبارات جيوبولتيكية كانت الحرب هزيمة أنزلتها أمريك على نفسها وكسبا خالصا لإيران. وثالثا: فإن الهجوم على العراق قد زاد من التهديد الإرهابى للولايات المتحدة، فالحرب على الإرهاب، وحيث ليس هناك عدو محدد بوضوح ولكنه يحمل معانى معادية للإسلام، وحدت الرأى العام الإسلامى نحو عداء متزايد نحو أمريكا وبذلك خلق تربة خصبة لتجنيد أعداد إرهابية جديدة تحمل خصومة دينية لغير المؤمنين وهذا بدوره زاد من الصعوبة أمام المعتدلين المسلمين لمحاربة الخلايا الإرهابية لتجميع شعوبهم ضد المشاعر السياسية والدينية المتطرفة.

وعلى عكس ما يردد بوش نفسه فإن انتشار العداء لأمريكا لم يكن لأن المسلمين فى المنطقة «يكرهون الحرية» ولكن لأن الذكريات التاريخية جعلتهم يكرهون التوافق المتزايد بين القوة الأمريكية فى المنطقة بالماضى الاستعمارى القديم والسياسات الإسرائيلية فى الوقت الحاضر. ومما ضاعف من معضلات الحرب التى شنتها إدارة تفتقر إلى المنظور التاريخى هو التوافق السيكولوجى بل والعينى للسلوك الأمريكى مع السلوك الإسرائيلى. وقد أثارت مشاهد السلوك الأمريكى ضد السكان العراقيين الخائفين والمعصوبى الأعين نفس مشاهد السلوك الإسرائيلى ضد الفلسطينيين.

وقد كان الطابع غير التاريخى للمغامرة الأمريكية قد أبرز حدود الاستراتيجية التى تعتمد فى المقام الأول على القوة. وهذا المفهوم الذى بشر به الاستراتيجيون الذين وجهوا السياسة البريطانية فى المنطقة، ورد الفعل الإسرائيلى للعداء العربى، ومما كان مميزا للحالات الثلاث الاعتقاد بأن العرب لا يحترمون إلا القوة وينظرون إلى أى استعداد للمساومة كعلامة على الضعف. وهكذا فإن القوة العسكرية الساحقة قد وضعت مرارا باعتبارها الأداة الوحيدة التى يمكن الاعتماد عليها لحل الصراعات وفرض حلول دائمة.

ويعتبر برجنسكى أن المشكلة بالنسبة لأمريكا هى أنه رغم أن قوتها لا تقارن بأى دولة أو مجموعة دينية فى المنطقة فإنها لا تستطيع لأسباب داخلية أن تعبأ على نطاق كاف بفرض إرادتها بالقوة عبر الشرق الأوسط وما وراءه. وباختصار، عند برجينسكى، فإن الولايات المتحدة تواجه على نطاق أوسع كثيرا نفس المعضلة التى تواجهها إسرائيل فيما يتعلق بجيرانها العرب: فكلا الجانبين يفتقر إلى الوسائل لفرض حله الدائم المنفرد الذى يمليه بشكل كامل تحديده الخاص لأهدافه ومصالحه. ويستخلص أن مثل هذه المفاهيم الخاطئة التى تتبناها الولايات المتحدة بما فيها فرض الديمقراطية يجب أن تجعل الولايات المتحدة تفكر بشكل جاد حول النتائج الطويلة الأجل لتورط عسكرى أمريكى فى The Global Balkans، فما حدث بالفعل فى العراق والمعضلات المتزايدة التى تواجهها إسرائيل كنتيجة لسوء الاعتماد على أفكار متشابهة فى التعامل مع الجيران إنما يقدم مؤشرا لنوع الصعاب التى يمكن أن تهدد وضع أمريكا العالمى.

ولهذا فإنه من الأمور العاجلة أن تتوقف أمريكا عن أن ترى «الجبهة المركزية» باعتبارها نوعا من الرسالة التاريخية وإن تبدأ فى أن تراها كدرس تستمد منه تغييرات أساسية فى أسلوبها فى التعامل مع الشرق الأوسط، ويخلص إلى أن الحرب على العراق فى كل مظاهرها وبالطريقة التى تقررت بها داخليا وروجت خارجيا وأديرت بها قد تحولت إلى كارثة، الأمر الذى وصم رئاسة بوش باعتبارها فشلا تاريخيا.

ويعود برجنسكى إلى التركيز على السياسات الأمريكية والإسرائيلية فى الشرق الأوسط فيعتبر أنه مع عام ٢٠٠٦ كان يجب أن يكون واضحا لإدارة بوش أنه لا الولايات المتحدة أو إسرائيل وحدهما أو معا لديهما القوة على سحق وإعادة تنظيم الشرق الأوسط بشكل يتفق تماما مع تصورها، فالمنطقة واسعة جدا وشعبها أقل استعدادا لأن يخاف وأكثر قابلية للاستثارة بالكراهية والغضب واليأس، وأعداد متزايدة على استعداد لأن تندرج فى مقاومة مركزة أو إرهاب بلا عقل. وكلما كان رد الفعل الأمريكى والإسرائيلى بتوسيع نطاق ومستوى العنف المضاد، كلما كان من الممكن أن يستدرجا فى حرب طويلة ومتسعة.

ويستخلص برجنسكى أن تصرفات أمريكا السيئة التوجيه تحمل أخطارا طويلة الأجل: إن الولايات المتحدة سوف تخسر فيما بعد كل أصدقائها العرب وعلى هذا تفقد القدرة على التأثير فى اتجاهاتهم وبالتالى فإنه مع كل الغايات والأهداف فإن الولايات المتحدة سوف تطرد سياسيا من الشرق الأوسط وإن إسرائيل سوف تندرج فى حروب غير متكافئة بشكل ينفى مزاياها التكنولوجية والعسكرية وكنتيجة لذلك تصبح إسرائيل فيما بعد فى خطر مميت.

أما فيما يتعلق بسياسة الإدارة تجاه إيران فإن الحظر الذى فرضته إدارة بوش على نفسها فيما يتعلق بالتعامل الجاد مع طهران هو الذى دفع لرفض اختيار إيرانى عام ٢٠٠٣ وبعد وقت قصير من سقوط بغداد حول إمكانية حوار واسع يتضمن كلا من الأمن والقضايا الاقتصادية بما فيها مشكلة الضمانات النووية بل وحتى حل الدولتين للصراع العربى الإسرائيلى. مثل هذا الاختيار كان قد سبقه فى نهاية عام ٢٠٠١ جهود ايرانية مساعدة تثير الدهشة لدعم الحكومة فى أفغانستان بعد أن أطاحت الولايات المتحدة بنظام طالبان. وقد كان التأثير الخالص لهذه السياسة القائمة على الحصار هو دعم العناصر الأصوليه فى النظام الإيرانى فى الوقت الذى تقدمت فيه إيران بثبات وخلسة لاتباع برنامجها النووى. وقد تكررت نفس هذه المعضلة فى التعامل مع البرنامج النووى لكوريا الشمالية. فمع بداية عام ٢٠٠٤ وجدت الولايات المتحدة نفسها مضطرة من خلال الضغوط الإقليمية لكى تغير موقفها بشكل هام حيث لم تبد كل من روسيا والصين استعدادا لاتباع الولايات المتحدة فى سياسة الحصار الدولى لكوريا الشمالية، وهكذا أصبح من الواضح أن الجهد الإقليمى المتعدد الأطراف هو الذى له فرصة النجاح فى دفع كوريا الشمالية للوصول إلى حل مقبول. وقد كانت اللجنة السداسية التى بدأت رسميا عام ٢٠٠٤ متضمنة الولايات المتحدة والصين واليابان وروسيا وكوريا الجنوبية، اعترافا كبيرا أن أمن الشرق الأقصى يتطلب نوعا ما من العمار الدولى.

ويستخلص برجنسكى من استعراضه للخمسة عشر عاما التى انفردت بها الولايات المتحدة أن القوة العسكرية الأمريكية عام ٢٠٠٦ قد تكون أكبر مما كانت عليه عام ١٩٩١، إلا أن قدرة أمريكا على تعبئة والهام والتوجه نحو اتجاه مشترك وبشكل تستطيع فيه أن تصوغ الواقع الدولى، هذه القدرة انحدرت إلى حد بعيد. وبعد خمسة عشر عاما من تنصيبها كقائد عالمى، فإن أمريكا أصبحت مصدرا للخوف وديمقراطية وحيدة فى عالم معاد سياسيا. ❀

عكس بوش الأب، نظر كلينتون للشئون الخارجية كاستمرار للسياسة الداخلية بوسائل أخرى، وقد أثرت هذه النظرة فى طريقة صنع القرارات وكيف اختيرت الشخصيات الرئيسية لفريقه

صعود أوباما



عبد الرءوف الريدى

صعد هذا الشاب الأسمر النحيل باراك أوباما على خشبة المسرح وسط عاصفة من التصفيق التى تلقاها من حضور واقف على قدميه تحية له

في أجواء السباق المحموم الجارى الآن فى انتخابات الرئاسة الأمريكية، والتى ستتصاعد طوال عام ٢٠٠٨ لتصبح أشبه ما تكون بالسيرك القومى الذى تجتمع فيه فنون المسرح الأمريكى، مع رقص على الأسلاك واللعب مع الحيوانات وسط موسيقى الروك الصاخبة وصولاً إلى يوم الإدلاء بالأصوات فى نوفمبر ٢٠٠٨.

قادتنى الظروف أخيرا إلى حضور حفل أقيم فى أحد مسارح برودواى الشهيرة من أجل دعم المرشح الأمريكى ذى الأصول الأفريقية باراك أوباما... والذى انطلق كالصاروخ فى سماء السياسة الأمريكية منذ أقل من عامين. حينئذ لم يكن أحد يعرفه خارج ولاية إلينوى التى يمثلها الآن فى مجلس الشيوخ. ومنذ أعلن أوباما عن اعتزامه الترشح لرئاسة الولايات المتحدة قبل أقل من عام مضى، أصبحت حملته الانتخابية تكتسب زخما يوما بعد يوم، وأصبح هو التالى فى الترتيب مباشرة لهيلارى كلينتون زوجة الرئيس السابق كلينتون وصاحبة أعلى الأصوات فى استطلاعات الرأى العام للحصول على ترشيح الحزب الديموقراطى.

وباراك أوباما هو هذا الشاب الأسمر الذى جاء أبوه من كينيا فى شرق أفريقيا فى بعثة دراسية بالولايات المتحدة أخذته إلى جزر هاواى حيث التقى بأمريكية بيضاء وتزوجها وكان باراك هو نتاج هذا الزواج. لم يمكث الأب كثيرا فى أمريكا حيث عاد إلى كينيا تاركا ابنه الصغير فى رعاية أمه وجدته. كان باراك آنذاك طفلاً صغيراً. وباستثناء فترة قصيرة قضاها مع أمه فى اندونيسيا. كانت تربية باراك فى غالبيها على يد أمه وجده فى جزر هاواى.. حتى أتيحت له الفرصة بسبب تفوقه الدراسى أن يحصل على منحة لدراسة القانون فى كلية الحقوق بجامعة هارفارد. وهناك كانت بداية تألقه عندما انتخب رئيسا لتحرير المجلة القانونية لجامعة هارفارد Harvard Law Review وهو ما أهله بعد ذلك للالتحاق بواحدة من أهم المهن فى الحياة الأمريكية وهى المحاماة. إلا أن العمل العام سرعان ما استهوى أوباما فذهب إلى شيكاغو... معقل أمريكا السوداء... ليعمل كمسئول اجتماعى وسط الأحياء الفقيرة السوداء فى المدينة... وهناك بدأ فى تكوين قاعدته السياسية التى دعمته ليصبح بعد ذلك عضوا فى المجلس التشريعى للولاية ثم عضوا بمجلس الشيوخ عن ولاية إلينوى فى الكونجرس الأمريكى عام ٢٠٠٢ وهو مازال فى بداية الأربعينيات من العمر...

وفى واحدة من أهم وأول المعارك التى واجهها فى مجلس الشيوخ كان مشروع القرار الذى تقدم به الرئيس الحالى بوش لتفويضه بشن الحرب على العراق... وبينما صوت الجمهوريون إلى جانب رئيسهم ولم يجرؤ عدد كبير من الديمقراطيين على معارضة التيار الجارف الذى كان مؤيدا آنذاك للحرب.. كان أوباما السناتور الحديث ضمن الأقلية التى صوتت ضد هذا القرار، وأصبح هذا التصويت اليوم واحدا من أهم البراهين التى تقدمها حملته على شجاعته وعلى حكمه الصائب فى مسائل الحرب والسلام... فى الوقت الذى صوت فيه منافساه الرئيسيان هيلارى كلينتون وجون إدوارد فى صالح قرار الحرب وكل منهما عضو قديم فى مجلس الشيوخ.

أخذت مقعدى بين أكثر من ألف فى مقاعد أحد مسارح برودواى الشهيرة، وكان الحضور بطبيعة الحال من أنصار أوباما والمعجبين به وغيرهم ممن تستهويهم متابعة الانتخابات الأمريكية. وسارت وقائع الحفل حسب البرنامج المعد... فقرات راقصة وفقرات غناء تماما كما هو الحال فى المسرح الموسيقى الأمريكى... ثم جاءت الفقرة الختامية عندما صعد على المسرح صبى صغير وقال: أيها السيدات والسادة... أقدم لكم الآن الرئيس المقبل للولايات المتحدة... باراك أوباما، وصعد هذا الشاب الأسمر النحيل باراك أوباما على خشبة المسرح وسط عاصفة من التصفيق التى تلقاها من حضور واقف على قدميه تحية له. واستمر التصفيق لعدة دقائق بينما يقف أوباما على المسرح ممسكاً الميكروفون المتنقل ويتحدث عن الأسباب التى دعته للترشح... وما الذى يأمل فى تحقيقه إذا انتخب رئيسا للولايات المتحدة... كما أخذ يرد على الدعايات المضادة له، إلى الذين قالوا أنه لا يملك الخبرة الكافية ليكون رئيسا... تساءل أوباما عن أى نوع من أنواع الخبرة يريدونها... أهى خبرة أناس مثل نائب الرئيس الأمريكى تشينى ووزير الدفاع السابق رامسفيلد وكلاهما يملك خبرة طويلة فى أجهزة الحكم فى واشنطن، ومع ذلك كانا من أهم من أدخل أمريكا فى مأزق الحرب فى العراق، ويستطرد للقول إن أمريكا لا تحتاج إلى هذا النوع من الخبرة... إنها تحتاج إلى نوع جديد من القيادة وخبرة جديدة ورؤى جديدة... ثم أشار إلى خبرته لمدة واحد وعشرين عاما فى العمل مع الناس فى أحياء شيكاغو الفقيرة وفى تدريس القانون الدستورى فى جامعات شيكاغو وفى تمثيل شعبه فى مجلس تشريعى الولاية ثم تمثيلها على المستوى القومى فى مجلس الشيوخ بالكونجرس الأمريكى... أما عن أولوياته إذا فاز بالمنصب فسيكون على رأسها إخراج الولايات المتحدة من مستنقع العراق، وسيكون أسلوبه فى العلاقات مع دول العالم قائما على التفاوض والحوار، ولن يرفض التحدث والتفاوض مع أية دولة... فهو من المؤمنين بما سبق أن قاله جون كيندى عن أن أمريكا لا ينبغى أن تخشى التفاوض مع أية دولة.

أما فى الداخل فسيكون على رأس

أولوياته سبعة وأربعون مليون أمريكى محرومون حاليا من التأمين الصحى ويجب أن تغطيهم مظلته وأن يحصل الأطفال والشباب الأمريكيون على أفضل تعليم فى العالم. فمن العار على امريكا أن يكون مستوى التعليم المتاح فيها للعامة غير القادرين على هذا المستوى العالى من التخلف بالمقارنة إلى الدول الأخرى.

إن صعود نجم أوباما بهذه السرعة المذهلة إنما هو نتاج حالة الإحباط التى تنتاب الكثير من الأمريكيين من حكم الرئيس بوش ودفعهم إلى البحث عن صوت نقيض لبوش.. ومن هؤلاء ديمقراطيون كبار. مثل تيودور سورنسون الذى كان المساعد الأول للرئيس كيندى.. وبرجنسكى مستشار الأمن القومى للرئيس كارتر والذى يعمل ابنه مستشاراً لأوباما... وغيرهم كثيرون.

لا يعنى ذلك بطبيعة الحال أن الطريق للبيت الأبيض مفتوح أمام أوباما فأغلب الديمقراطيين يؤيدون هيلارى كلينتون.. وهى تلعب أوراقها بمهارة كبيرة وتستفيد من نصائح وخبرة زوجها الرئيس السابق وهو أحد أكثر الأمريكيين خبرة بالعملية الانتخابية. كما تستفيد من شبكة علاقاته الواسعة.. وفى آخر استطلاع للرأى حصلت هيلارى على ستين فى المائة من الأصوات بينما حصل أوباما على حوالى خمسة وثلاثين.. كما أن حملة هيلارى تكتسب كل يوم أنصاراً جدداً.. إلا أن ذلك لا يعنى أن الأمور قد حسمت تماماً لصالحها لتفوز بترشيح الحزب الديموقراطى.. فمازال هناك وقت طويل قد تحدث فيه مفاجات وسيكون الاختبار الأكبر فى الانتخابات التمهيدية بولاية نيوهامشير وأيوا فى الشهور الأولى من عام ٢٠٠٨ . ومع ذلك فسواء فاز أوباما بترشيح الحزب الديمقراطى أم لم يفز به.. وسواء نجح فى الانتخابات أم لم ينجح فى حالة فوزه بالترشيح فهو مازال فى أوائل الأربعينيات من العمر... ومازال المستقبل أمامه مفتوحاً.

أعود إلى الحديث عن خطاب أوباما فى المسرح ببرودواى: وهو بالمناسبة خطيب ساحر يخاطب العقل وينأى عن الديماجوجية والصياح. أخذ يتحدث عن أنه يريد أن تستعيد أمريكا أفضل سجاياها.. وأن تستعيد روحها التى فقدتها.. وفى كل ذلك كان وكأنه يعيد فصلا مشرقا من التاريخ الأمريكى.. عندما انعقدت قيادتها لجون كيندى ولقد كان كيندى فى أوائل الستينيات، هو الغائب الحاضر فى هذا اللقاء.

والواقع أن من أفضل ما تقدمه التجربة الأمريكية هو هذا الذى رأيته أمامى فى لقاء أوباما.. ابن مهاجر قادم من أفريقيا يشق طريقه بكفاءته ثم يصبح رئيسا محتملا لهذه البلاد...

وبعد ماذا تعنى بالنسبة لنا هذه الانتخابات القادمة للرئاسة الأمريكية؟ اعتقد أنها يجب أن تعنينا.. ويجب أن نقيم قنوات التواصل مع المرشحين بما فيهم أوباما.. الذى أراه شيئا جديدا على الساحة السياسية الأمريكية.. وأنا من المؤمنين بأهمية إقامة علاقات وثيقة مع كل القوى فى أمريكا على رأسها الأمريكيون من أصل أفريقى الذين يشكلون ما يقرب من خمس الشعب الأمريكى.. وأعتقد أن أغلب المرشحين يهمهم أن يسمعوا منا.. وأن يتعرفوا على رؤيتنا.. فلقد أصبح الشرق الأوسط بندا ثابتا على جدول أعمال أمريكا.. تلك كانت لمحة عما يجرى فى الانتخابات التى يجب أن توليها اهتمامنا.. فما سيقوم به القادم الجديد للبيت الأبيض سيؤثر علينا.. وعلى شعوب هذه المنطقة.. شئنا أم أبينا.

وفى وسط هذه الحملة الصاخبة نرى حملة لا تهدأ تستهدف تصوير الإسلام وكأنه العدو ويقود هذه الحملة مستشارو المرشح الجمهورى جوليانى عمدة نيويورك السابق.

مع ذلك فالرأى العام الغالب يريد أن يعرف الحقائق وواجبنا أن نعمل على إسماع صوتنا.

وسط ذلك أيضاً توجد أصوات شجاعة تقرع الأجراس وتحاول تنبيه الرأى العام الأمريكى لخطورة ما جرى وما يجرى.. ومصر بحكم ما تمثله يجب أن ينتظرها دور كبير فى عام ٢٠٠٨ عام انتخابات رئيس جديد وكونجرس جديد فى الولايات المتحدة. ■

كتاب الزاوية

ابن العماد الأقفهسى

أخبار نيل مصر

مؤلف مخطوطة أخبار نيل مصر هو شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد النبى، أبو العباس الأقفهسى ثم القاهرى الشافعى، المعروف بابن العماد الأقفهسى، المتوفى سنة ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦م.

مؤلفاته عديدة، منها: التعقبات على المهمات، شرح المنهاج، أحكام المساجد، أحكام النكاح، آداب الطعام، والإبريز فيما يقدم على موت التجهيز، القول التام فى أحكام المأموم والإمام، موقف المأموم والإمام، شرح العمدة، الأربعين النووية.

اعتبره معاصروه أحد أئمة الفقهاء الشافعية فى عصرهم - أى العصر المماليكى.

أما مخطوطة أخبار مصر، فترجع أهميتها إلى أن المعلومات التى وردت بها توضح بجلاء أن العلماء المسلمين لم يقفوا مكتوفى الأيدى فى ميدان الاستكشاف والتفسير، سواء ما كان متعلقًا بنهر النيل، أو ببعض الظواهر الطبيعية، أو بالآثار القديمة.

كما ترجع أهميتها الى أن مؤلفها قام بجمع معظم النصوص التى كتبها الجغرافيون والمؤرخون والفقهاء السابقون عن نهر النيل من المصادر المختلفة، وقام بترتيبها ومقارنتها ببعضها البعض، ثم كتبها فى هذه المخطوطة مجتمعة.

وتنشر «وجهات نظر» بعض فصول من المخطوطة التى حققها ووضع حواشيها الدكتورة لبيبة إبراهيم مصطفى والأستاذة نعمات عباس محمد وصدرت عن دار الكتب والوثائق القومية بمصر عام ٢٠٠٦ .





عودة

تقف سياسة هنرى كيسنجر الواقعية بنسبيتها الأخلاقية واقرارها بحدود القدرة الأمريكية على طرف نقيض من المسيحية الإنجيلية للمحافظين الجدد التى انطلقت بعد هجمات ١١ سبتمبر. وكان مثال كيسنجر قد استغل طويلا للتقليل من شأن اليمين الجديد. وزير الخارجية يتكلم مثل تشرشل، ويتصرف مثل تشامبرلين[1]، كما كتب نورمان بودورتز عام ١٩٧٦. وحتى قبل أن يلعن المحافظون كيسنجر لتعامله مع الصين وموسكو، لم تكن لديهم ثقة بشركائه خاصة نيلسون روكفيلر.

Nixon and Kissinger: Partners in Power
(نيكسون وكيسنجر: شركاء فى السلطة)
Robert Dallek
Allen lane 2007

Henry Kissinger and the American Century
(هنرى كيسنجر والقرن الأمريكى)
Jeremi Suri
Harvard £ 10.95, 368pp

بترتيب مع:
London Review of Books

ترجمة بثينة الناصرى

جريج جراندن

فى منتصف الستينيات كان كيسنجر مستشار روكفلر، وحين انضم إلى إدارة نيكسون فى ١٩٦٨ فعل ذلك ليس بصفته استاذ هارفارد الطموح، ولكن باعتباره وصيا على الجناح الداعى للمعايشة الدولية فى الحزب الجمهورى. وكان رؤساء الشركات أمثال آل روكفلر الذين مولوا الحزب الجمهورى، يعجبون بتمسك نيكسون بمبادئ حزب الشعب الأمريكى المناهضة للشيوعية حين كانت تستخدم ضد العناصر الأكثر راديكالية فى (الصفقة الجديدة)[2]. ولكنهم كانوا يدركون عدم ثباتها. فهى دمقرطة مهزوزة للسياسة الخارجية أحدثتها الاحتجاجات ضد حرب فيتنام. كانت المؤسسة، كما كان نيكسون يصف نخبة السياسة الخارجية فى واشنطن، تقر أن أمريكا فى أزمة عميقة، ولكن الحل لم يكن فى تصعيد الحرب الباردة وزيادة متسارعة فى المشروعات العسكرية. كما كان دعاة العسكرة يطالبون، بدلا من ذلك دفعت النخبة باتجاه تطبيع العلاقات الدولية. وهنا دخل كيسنجر على المسرح. وكان قد صنع اسمه من إبداء إعجابه بالسياسى مترنيخ.

شغل كيسنجر مناصب فى إدارتى نيكسون وجيرالد فورد، أولا كمستشار للأمن القومى ثم منذ ١٩٧٣ أصبح وزيرا للخارجية أيضا إضافة لوظيفته. وبصفته مهندس سياسة الانفراج فى العلاقات الدولية، تجنب كيسنجر بشكل مدروس النظرية الأخلاقية التى اتسم بها موقف واشنطن فى بدايات الحرب الباردة. بالنسبة له لم يكن الاتحاد السوفيتى شرا وجوديا يحتاج إلى القضاء عليه ولكن دولة شرعية لها مصالح محددة. فى عام ١٩٧٢ ساعد فى رعاية أول معاهدة للحد من الأسلحة الاستراتيجية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وبدأ تطبيع العلاقات مع الصين. قبل عقدين من السنين رفض جون فوستر دالاس وزير خارجية ايزنهاور آنذاك مصافحة شواين لاى. أما كيسنجر فهو لم يصافحه فقط وإنما رحب به وبالرئيس ماو باعتبارهما رجلى دولة عظيمين. وبدلا من ادعاء الحق بضرورة التدخل الأمريكى فى العالم الشيوعى باسم الحرية، وعد كيسنجر باحترام المخاوف الأمنية لخصومه. وفيما بعد سوف يساعد الانفراج وإعادة النظر فى المقاربة الدولية، الولايات المتحدة الأمريكية على انتزاع نفسها من فيتنام وتأكيد نفوذها فى مجالات تأثيرها، فى حين أن ذلك سوف يسمح للبيت الأبيض أن يلتف حول اليسار المناهض للحرب، داخل الوطن. وقد عبر كيسنجر عن ذلك بقوله: رفض التفاوض مع الكرملين سوف ينشر فيروس الاحتجاج ضد حرب فيتنام فى كل مناحى السياسة الخارجية الأمريكية وربما فى عمق تحالفاتنا.

كيسنجر الذين شهد فى طفولته انهيار جمهورية هايمار[3]، تخيل نفسه مدافعا عن الوسط ضد اليسار واليمين. فى ١٩٧١ قال فى تجمع من شركات الساحل الشرقى والأكاديميين الكبار بأن بطء انسحاب الإدارة من فيتنام مقصود به تحييد المؤيدين للديمقراطى الجنوبى جورج ولاس الذى كان يحاول أن يترشح للرئاسة عام ١٩٧٢. إذا انسحب نيكسون بسرعة كبيرة، كما حذر كيسنجر، فإن

كيسنجر

في ١٩٧٦ حظر فورد على كيسنجر إلقاء خطابات خوفاً من هروب الجمهوريين المحافظين إلى ريجان. وهكذا كان احتواء كيسنجر خطوة مهمة في استعادة «الاستقامة» للدبلوماسية الأمريكية

نسبة ١٣٪ التي حصل عليها والاس في انتخاب ١٩٦٨ - وكان قد ترشح كمستقل ببطاقة انفصالية وقسم أصوات الجناح اليميني - قد تتصاعد إلى ٤٠٪. في نفس الوقت، كان يصطدم بالتشاؤم على المحافظين في كاليفورنيا بقيادة حاكم الولاية رونالد ريجان. وضد اتهاماتهم باسترضاء العدو والخيانة، بالغ كيسنجر في نجاح حملة القصف على لاوس وكامبوديا، قال «لقد حققنا ماكنا نسعى إليه» ودافع عن نفسه ضد الموظفين الذين استقالوا احتجاجاً على غزو كامبوديا عام ١٩٧٠ بالقول لهم: «إننا ننقذكم من اليمين» فردوا عليه: «اليمين هو أنت».

وقد بدت سياسة الانفراج حلاً مناسباً للأزمات التي تكاثرت على البلاد. في ١٩٦٨، مع أول عجز تجاري كبير في فترة ما بعد الحرب، وهبوط قيمة الدولار وانهيار معيار الذهب وزيادة منافسة أوروبا واليابان والعالم الثالث، بدأ الاقتصاد في الترشيح الجمهوري لعام ١٩٧٦ من جيرالد فورد. هاجم كيسنجر للتفريط بالمصالح الأمريكية في قناة بناما وخيانة الأصدقاء في جنوب أفريقيا وتايوان. في نفس الوقت، انضم دونالد رامسفيلد وكان وزير دفاع فورد في ذلك الوقت وديك تشيني وكان رئيس موظفي البيت الأبيض بجهودهما لعرقلة كيسنجر وتخريب معاهدة سولت جديدة مع روسيا (يقصد الاتحاد السوفيتي - المترجمة). حشر تشيني بند «الأخلاق» في الخطاب الجمهوري، رافضاً «التنازلات غير اللازمة» المتضمنة في «الاتفاقيات السرية» مع السوفييت داعياً لسياسة خارجية دافعها، ليس سياسات القوة وإنما «الإيمان بحقوق الإنسان وحكم القانون وبإرشاد من الرب». في ١٩٧٦ حظر فورد على كيسنجر إلقاء خطابات حول السياسة الخارجية في كاليفورنيا خوفاً من أن يسرع ذلك بهروب الجمهوريين المحافظين إلى قال الصحفي بوب وودوارد، «مارس تأثيراً قوياً وإن كان خفياً، على سياسة بوش تجاه العراق، كان يلتقي بانتظام مع الرئيس وتشيني. يتفحص مذكراته العتيقة عن فيتنام حرب فيتنام لحث الإدارة على البقاء في نفس المسار: «سحب القوات الأمريكية سوف يكون مثل الفول السوداني المملح للشعب الأمريكي: كلما زاد عدد القوات الأمريكية التي تصل إلى الوطن، كلما طالب الشعب بالمزيد منها، وسوف ينتهي هذا بالضرورة إلى مطالبات بالانسحاب من جانب واحد».

من المغري أن نفسر عودة كيسنجر إما باعتبارها مؤشراً على عودة بوش إلى الواقعية بعد أن تكسرت مثاليته على صخرة الواقع الجيوبوليتيكي أو أنها نموذج لـ «غرائز رجل البلاط» التي اشتهر بها كيسنجر، كما وصف والتر آزاكسون ذات مرة، نزعته لقول ما يريد الذين في السلطة أن يسمعوه من أجل حصوله، ليس على النفوذ ولكن الإيحاء بالنفوذ. المفيد أن نذكركم بأن كيسنجر لم يدع فقط في هذه الاستراتيجية في كتاباته الأكاديمية المبكرة وإنما قام بنفسه بوضع الولايات المتحدة في حالة طوارئ نووية أملاً أن يرهب السوفييت للاعتقاد بأن نيكسون كان «مجنوناً» بما فيه الكفاية ليبدأ حرباً ذرية.

وقد يكون ريجان قد تكلف في مؤهلاته المناهضة للشيوعية ولكن كيسنجر استطاع أن يكيف نفسه بسرعة لليمين الجديد. «إننا نحتاج الآن جميعاً إلى رونالد ريجان لضمان تحقيق آمالنا» قال مخاطباً حشداً في احتفال الترشيح لعام ١٩٨٠. وقد تسبب ذلك في احتقار جماهيري له أقل قليلاً مما حظي به جيمي كارتر، وقد شغل منصب مستشار غير رسمي للبيت الأبيض خلال الثمانينيات، وكان رئيس لجنة الحزبين التي صادقت على حروب ريجان الدموية في أمريكا الوسطى. ومرة أخرى، هل يمكن أن نعزو عودته إلى اليمين إلى شخصيته الحربائية المتقلبة؟ ربما يكون

الاهتزاز، واكتسب الانفراج بعداً اقتصادياً إضافة إلى البعد السياسي. وكان بمثابة حبل إنقاذ للقاعدة الصناعية لتحالف الصفقة الجديدة المتهاوي، فمن شأن عدم التصعيد العسكري أن يحرر الدخل العام للاستثمار الإنتاجي ويقلل من ضغوط التضخم التي كانت ترعب مديري السندات في البنوك متعددة الجنسيات. في حين أن تطبيع العلاقات الدولية سوف يفتح الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية والصين للتجارة والاستثمار.

ولكن التطبيع فشل في حل أزمة دعاة الكينيزية (ذات علاقة بنظريات جون مانيارد كينيز الاقتصادية والتي تدعو لمزيد من البرامج الاجتماعية المالية للدولة لتوفير فرص العمل واجتذاب الاستثمارات - المترجمة) فالصين كانت حالة ميئوساً منها، في حين أن اقتصاد أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي كان من الفقر بحيث لا يستطيع استيعاب كميات كافية من الرأسمال الأمريكي، وفي غاية التعقيد والغموض بحيث لا يصلح لشراكة تجارية مربحة- وهكذا ساعد كل ذلك على تقوية دعاة الحرب الباردة وأعداء الانفراج الآخرين. بعد استقالة نيكسون، وضع ريجان خطته لسرقة ريجان. وهكذا كان احتواء كيسنجر خطوة أولى مهمة في استعادة «الاستقامة» (ترجمتنا لكلمة righteousness وتعني أن كل أفعال أمريكا لا تصدر عن شر - المترجمة) في الدبلوماسية الأمريكية وهي استعادة أكملها بوضوح أخلاقي، حدد رد فعل جورج بوش على هجمات ١١ سبتمبر.

ولكن كانت ثمة عقدة صغيرة في هذه القصة وهي تكمن في كيسنجر نفسه الذي لم يكن يرغب في النأي بنفسه عن دائرة النفوذ السياسي. في خريف ٢٠٠٢، في الوقت الذي كانت فيه إدارة بوش تقرع طبول الحرب على العراق، حذر كيسنجر بأنه من الضروري بناء تحالف دولي، ثم أسرع بالمصادقة على الغزو، بل ربطه بالحملة لهزيمة القاعدة. وقد شهد أمام لجنة في مجلس الشيوخ بأن الهدفين كانا «متصلين اتصالاً شديداً حتى لا يمكن الفصل بينهما و... محاولة فصلهما سوف تجعل من الصعب تحقيق أي منهما. الحرب ضد الإرهاب سوف تستغرق سنوات عديدة، التعامل مع أسلحة الدمار الشامل في العراق لا يمكن أن ينتظر». وحتى في الوقت الذي كان فيه نقاد الحرب يركزون غضبهم على المحقوبيين الجدد مثل بول وولفوتز وجماعته، كانت يد عتريس العجوز كما فنصائح الرجل العجوز مطلوبة لأنها تصلح أن تكون غطاء لقرارات اتخذت مسبقاً.

هناك بعض الحقيقة في كلا التفسيرين، ولكن مع هذا فإن واقعية كيسنجر ومثالية المحافظين الجدد تتنافسان على نزوات دبلوماسية بقدر ما تتفاهمان بالتبادل على تجذر الغرور. فلم يكن هناك فرق بين مصادقة كيسنجر الخفية على القتل والتعذيب اللذين نفذهما حلفاء الولايات المتحدة في أمريكا اللاتينية وأفريقيا وجنوب شرق آسيا، أو كلام وليام كريستول المسئول حول فوائد تغيير الأنظمة بالقوة في الشرق الأوسط: كلاهما يفعلان ذلك باسم أهداف نبيلة (القانون والحرية والديمقراطية). هناك تماثل في التكتيكات والأسلوب أيضاً: تشكك كيسنجر في الآخرين، وتحايله ورفضه إظهار أي نوع من الندم، كانت سوابق سلوك سار على خطاها بوش ومن وراءه. وإذا كنتم تعتقدون بأن تهديد إدارة بوش باستخدام أسلحة نووية تكتيكية تؤشر على تغير جذري من ماضٍ عقلاني، فمن هذا التعبير دقيق، ولكنه لا يكفي لتفسير هذا التصرف، فقد كان تحوله جزءاً من نقلة أكبر لمؤسسات ما بعد الحرب التي ساندت سابقاً سياسة الانفراج - مثل مؤسسة بروكنجز واللجنة الثلاثية ومجلس العلاقات الخارجية والتي كان فيها كيسنجر ولايزال عضواً بارزاً - والآن تتصالح مع ثورة ريجان وتسمح لبعض النقد على هامش أجندتها المحلية والخارجية وهي: تمزيق دولة الرفاهية، زيادة المصروفات العسكرية وتصعيد الحرب الباردة. حتى نلسون روكفيلر لحق بالركب قبل أن يفوته القطار، باعثاً مندوباً إلى مؤتمر الحزب الجمهوري لعام ١٩٨٠ من أجل تهدئة المعارضة في أوساط الجمهوريين الليبراليين في خطاب حزبي، لو كان قد ألقي قبل أربع سنوات فقط لاعتبر متطرفاً.

إذا تأملنا الأحداث الماضية، كانت إدارة نيكسون انتقالية تؤشر التحول من سياسة الصفقة الجديدة متعددة الجوانب إلى عسكرية وأخلاقية واستباقية اليمين الجديد. كيسنجر بدوره، كان مفكراً انتقالياً. وهذا هو السبب أن واقعيته سالت بتدفق في المثالية التي بررت تدمير العراق.

أحد الجوانب المهمة في السياسة الانتقالية هو

معرفة كيفية التعامل مع الرصد والمراقبة والمعارضة الجماهيرية. في السنوات القليلة التي سبقت تنصيب نيكسون، تضافرت كل أعمدة المجتمع المؤسساتية التي تمنح شرعية للحكومة - الصحافة والجامعات وصناعات السينما والفن والكنائس والمحاكم - للوقوف ضد الانفعالية مما خلق مايعتبره المحافظون الجدد «ثقافة معادية» متخندقة. أما كيسنجر فقد اعتبرها شفافية حكومية مفرطة أتاحت للمواطن أو الصحفي أن يركز على وقائع منعزلة في حين يتجاهل «الصورة الجيوبوليتيكية الأكبر». وقد هتف مرة «لقد أصبح أداء السياسة الخارجية مستحيلاً» في ظل هذه الظروف، وكان ذلك حين واجهه صحفي حاملاً وثائق تشير إلى أن نائب الرئيس جيرالد فورد أعطى لسوهارتو الضوء الأخضر لغزو تيمور الشرقية عام ١٩٧٥، مما نتج عنه وفاة ٢٠٠ ألف شخص.

بلغت مناورات نيكسون وكيسنجر لتفادي المساءلة - وعمليات التصنت واقتحام المنازل ليلاً ومطاردة المعارضين - مبلغاً أسطورياً وتعزى غالباً إلى ضعف في الشخصية وإلى بارانويا وعنجهية. ولكن روبرت داليك في كتابه (نيكسون وكيسنجر: شركاء في السلطة) يموضع تحايلهم ضمن تحول أوسع لدبلوماسية لا يتبين فيها الخيط الذي يفصل السياسة الخارجية عن الداخلية.

بدون أية إشارة إلى ضرورات الدفاع القومي. في قضايا الشرق الأوسط، كما يكتب داليك «كانت السياسات الداخلية لها الأولوية». فقد أراد نيكسون أن يضغط على إسرائيل لتتخلى عن برنامجها النووي، ولكنه سرعان ما تراجع خوفاً من خسران الأصوات المؤيدة لإسرائيل في الكونجرس. كان نيكسون «يرى في محادثات سولت قيمة سياسية أكثر منها أمنية». في حين أبلغ كيسنجر الرئيس بأن سياسة الانفراج سوف «تكسر ظهر هذا الجيل من القادة الديمقراطيين» أجابه نيكسون «هذا صحيح. علينا أن نحطم ثقة الشعب بالمؤسسة الأمريكية».

كان تداخل السياسة الخارجية مع الداخلية يتم - على الأغلب - بسبب فيتنام. كانت الإدارة في حاجة إلى الخروج من فيتنام وإيقاف استنزاف قوتها في العالم وفي الوطن، ومن أجل أن تحقق ذلك عمل نيكسون وكيسنجر على استقرار العلاقات مع الصين والاتحاد السوفيتي، حتى يستطيع كل منهما أن يجند خصمه الشيوعي للضغط على فيتنام الشمالية وتحييد مطالبات الشعب الأمريكي لإحلال السلام، ولكنهما مع ذلك شعرا بأنهما مجبران على توسيع الحرب إلى كمبوديا ولاوس من أجل إجبار هانوي على الموافقة على تسوية تحترم سيادة سايغون، وبهذا تتاح الفرصة للبيت الأبيض للحفاظ على «مصداقيته» مع الحلفاء واسترضاء يمين ثائر. في ١٩٧٠ كتب كيسنجر إلى نيكسون: «يجب أن نصعد أو نخسر الرئاسة».

وكان الرئيس قد بدأ يشكك في كفاءة حملة القصف ولكن كيسنجر أصر على أن «رجة» قوية يمكن أن تكسر الجمود في باريس حيث كان المفاوضون الفيتناميون الشماليون يرفضون التزحزح عن موقفهم. وكان من رأي كيسنجر أيضاً أن التصعيد قد ينهي الجمود السياسي في الوطن. كان يقول: «احتياطي الأصوات الداعمة في البلاد موجود على اليمين». وكان أحمق في اعتقاده بأنه يستطيع أن يلعب بين اليمين واليسار. لم يكن وسيطاً وإنما كان مسهلاً للأمور، يمهد الأرضية لثورة ريجان، الذي حقق ما لم يستطع كيسنجر تحقيقه من إنهاء أزمات السبعينيات، لا عن طريق العنف السري المغلف بالحديث عن «التعاون المتبادل»، ولكن عن طريق العسكرية الصريحة المثرية بإحساس الاستقامة الأمريكية.

لقد أصبحت الأساليب التي استخدمها نيكسون وكيسنجر من أجل عرقلة «المراقبة الديمقراطية للسياسة الخارجية» نهج الإدارات الأمريكية منذ ذلك الحين، واستخدمت مؤخراً للتشكيك بالنقاد ولنشر معلومات مضللة حول غزو العراق. في نفس الوقت، استمر تحلل الخط الفاصل بين السياسة الخارجية والداخلية. لم يحدث في التاريخ الأمريكي أن كانت حظوظ السياسة الداخلية للتحالف الحاكم تعتمد هذا الاعتماد الكلي على السياسة الخارجية كما يحدث في نهج الحزب الجمهوري هذا اليوم، وهو يستخدم ذريعة الأمن القومي والحرب على الإرهاب ليوصل ما تفرقه الاختلافات في أوساط دوائرهم الانتخابية المتنافسة وبين المحافظين الجدد واليمين المتدين، مثلاً، أو الليبراليين الاجتماعيين والمحاربين الثقافيين.

ولكن مع ذلك هناك فرق مهم وحيد: احتفاظ كيسنجر بسلطته رغم كل شيء.

في السبعينيات كان على نيكسون وكيسنجر إلقاء الكثير من الخطب حول السلام ونزع السلاح، ليس من أجل إسكات مناهضي الحروب فحسب ولكن أيضاً لإرضاء «المؤسسة» التي كان يشتكي منها نيكسون وإليها كان كيسنجر يبعث تقاريره. اليوم، الوسيلة الوحيدة التي يمكن للجمهوريين أن يأملوا في كسب الانتخابات الرئاسية القادمة هي بالتعهد ليس بسياسة التعايش وإنما بالحرب الدائمة.

من الصعب أن يتفق كيسنجر كما قدمه المؤلف داليك - غيوراً، متملقاً، منافقاً، ووصولياً - مع ذلك الكيسنجر الذي قدمه جيرمي سوري في كتابه (هنري كيسنجر والقرن الأمريكي).

في كتاب داليك، لا نرى مفاوضاً عظيماً ولكن ساذجاً يستغله نظراؤه الروسيون والفيتناميون والصينيون الأكثر دهاء. لم يكن عسيراً على ممثلي هانوي إلى محادثات السلام في باريس، أن يكتشفوا بسرعة، فرحة كيسنجر الطفولية في المشاركة في العالم النادر للدبلوماسية الكوزموبوليتانية واستغلوا ذلك لجر المناقشات إلى صالحهم، حتى اشتكى نيكسون قائلاً: «من الواضح أنه لا يستطيع أن يفاوض». كما أن كيسنجر كان يذعن لمعاداة نيكسون للسامية، بإبعاد موظفيه اليهود عن اجتماعات البيت الأبيض، وكان يثور غضباً لأي إهانة يتخيلها. وكتب هالدمان في يومياته «يصر هنري على الهرولة إلى الرئيس وإخباره أننا على وشك أن نشتبك في حرب في الشرق الأوسط». والرئيس يسأله ماذا يريد أن يفعل حول هذا الموضوع. ولم يكن لديه أية أفكار سوى رغبته في الهيمنة. المشكلة الحقيقية في هنري أنه يتحمس كثيراً حول هذا الأمر.

كتاب داليك شامل ومفصل ويعتمد بشكل كبير على النصوص التي أفرج عنها مؤخراً لمحادثات هاتفية كان كيسنجر قد سجلها سراً، إضافة إلى شرائط نيكسون التي أتيحت للجمهور حديثاً، ومذكرات البيت الأبيض وأوراق ويوميات إيتش آر هالدمان، كبير موظفي نيكسون وإليكساندر هيج، نائب كيسنجر في مجلس الأمن القومي. ويصعب على المرء - في أكثر من سبعمائة صفحة - أن يعثر على مبادرة سياسية خارجية واحدة لم تستغل لمكسب داخلي: سواء إسكات المعارضة أو الانتصار على المنافسين أو إظهار نيكسون بمظهر «رجل الموقف والحكمة» استعداداً لإعادة انتخابه في ١٩٧٢. وعلى سبيل المثال، لم يكن للضغط المبكر لبناء نظام دفاعي صاروخي ضد الصواريخ البالستية علاقة بالقوة السوفيتية بقدر علاقته بتأكيد هيمنة نيكسون على السياسة الخارجية في مواجهته مع الكونجرس. وبمساعدة كيسنجر، كسب الرئيس المعركة بتضخيم الخطر السوفيتي، ثم تباهى في مذكرة نصر حول «أسلوب نيكسون» بالتعامل مع الكونجرس حتى

في خريف ٢٠٠٢، في الوقت
الذي كانت فيه إدارة بوش تقرع طبول
الحرب على العراق، حذر كيسنجر بأنه من
الضروري بناء تحالف دولي، ثم أسرع
بالمصادقة على الغزو



كيسنجر في كتاب سوري، على العكس من ذلك، «رجل دولة بطل» و«رجل قوى العاطفة يسعى لفعل الخير في العالم باتخاذ خيارات صعبة» و«دخل عالم السياسة لأسباب أخلاقية». وما يراه داليك انتهازية يعتبرها سوري «مرونة». وكتاب سوري أقصر بكثير من كتاب داليك ولكنه أكثر طموحاً، وأفضل ما يقال عنه

إنه رد فعل على كتاب «محاكمة هنرى كيسنجر» المثير للجدل والذى صدر عام ٢٠٠١ لمؤلفه كريستوفر هتشنز الذى يرى ضرورة محاكمة كيسنجر لجرائم ضد الإنسانية.

على الضد من ذلك، يصور سورى بطله كرجل دولة لايخلو من الأخطاء ولكنه رجل شريف «ارتكب أخطاء كثيرة فى ظروف عصيبة». ويأتى ذكر لاوس على الهامش وينتقد كيسنجر بسبب «قصور خياله» خاصة فى شيلى وفيتنام. ولكن سورى لا يذكر دعم كيسنجر لغزو تيمور الشرقية، أو تجاهله جريمة قتل نصف مليون بنغالى فى بنجلادش أواخر ١٩٧١ التى ارتكبتها باكستان الغربية، حليف واشنطن والصين، وعدم رغبته فى أن تفسد هذه الجريمة رحلته التى صنعت مجده إلى بكين، أوتمويله متمردي رينامو فى موزمبيق، أو دوره فى تدمير كمبوديا، الذى ساعد فى تولى الخمير الحمر السلطة. يكتب سورى «الآف من الناس قتلوا بسبب قرارات كسنجر، مقللا من الرقم الذى قد يصل إلى أكثر من مليون. ويؤكد أكثر من مرة أن كيسنجر «لم يكن مجرم حرب».

ويطالب سورى أن تفسر أفعال كيسنجر فى الإطار التاريخى لتساعدنا على فهم سبب ارتكاب «رجال ونساء أخيار أعمالاً سيئة». وهو اقتراح لا يناسب من يتصدى لكتابة التاريخ. ويجادل سورى بأن التجارب التى عاشها كيسنجر - مثل مشاهدة انهيار الديمقراطية الألمانية وصعود النازية، ويهوديته ووضعه كمهاجر فى المجتمع الأمريكى - هى التى شكلت فلسفته الدبلوماسية خاصة انعدام ثقته بديمقراطية الجماهير. ويركز سورى بحق على «الثورة الكونية فى أواخر الستينيات» كحد فاصل فى العلاقات الدولية وهو أمر كان يمكن لكيسنجر أن يستغله لصالحه. ولكن بدلاً من استغلال هذه الثورة فى الاقتصاد والسياسة فى ذلك الوقت، يصفها سورى بكلمات مماثلة لتلك التى يستخدمها بطل كتابه: باعتبارها انهياراً عاماً للسلطة. يكتب قائلاً: «عانت التقاليد الاجتماعية والثقافية من هجوم منسق. الخوف من فوضى عالمية حلت محل التسليم بوجود نظام دولى، أما القادة السياسيون فقد «تألهم الضرر». يتماهى الكاتب مع بطل كتابه حتى يكون من الصعب القول متى ينتهى تفسير سورى لرؤية كيسنجر للعالم ومتى يبدأ تحليله هو فهو يكتب مثلا «مثل الديمقراطيات عشية الحرب العالمية الثانية، أصبح مواطنو المجتمع الدولى ضعفاء ومقسومين وجبناء».

هاجمت جين كيركباتريك سفيرة ريجان للأمم المتحدة، ذات مرة، إدارة كارتر لتفسير أحداث العالم بمصطلحات عامة، باعتبارها ناتجة عن «مسارات» وقوى». وقالت إن هذا يعكس بلاهة تحليلية وضياعاً أخلاقياً. ولكن موظفى كارتر لايعترضون الآن ضد سورى الذى يحثنا على «فهم تجربة هنرى كيسنجر والقوة الأمريكية كمسارات للعولمة - ترجمة الأفكار والشخصيات والمؤسسات من مجتمعات متنوعة» ويقول «ظل كيسنجر ورجال الدولة الآخرون خاضعين لقوى ثورية أكبر لم يستطيعوا كبحها».

فى نظر سورى كانت مسيرة كيسنجر العملية، مثل القرن الأمريكى ككل، «تتوضح تدريجيا بالفعل الماضى». وكلاهما «تأثرا بعمق وأحيانا تشوها - بفعل عوامل خارجية، بضمنها الصراعات العسكرية البعيدة عن أمريكا الشمالية، وانهيار المجتمعات الأجنبية، وظهور أنظمة عنيفة. كان القرن الأمريكى رد فعل على «التحولات الدولية». وهذا المصطلح الأخير يتكرر مثل أحجية مما يجعل التاريخ بلا معنى: «كان القرن الأمريكى رد فعل على التحولات الدولية. كان قرنا كونيا».

ويجادل سورى بحرارة بأن التزام كيسنجر لإعادة إحياء القوة الأمريكية كان مثالياً: ويقتبس من كيسنجر قوله بأن كل ما فعله كان دفاعاً عن أمريكا «لمثاليتها وإنسانيتها واحتضانها لآمال البشرية». ويقول سورى عن كيسنجر «كان يدافع عن حلمه الأمريكى فى فيتنام». ومع ذلك فلأن سورى يمتلك فهماً فجا للسياسة فهو يعمى عن رؤية الطريقة التى أوصلت بها أسباب كيسنجر الأخلاقية، واحتقاره للممارسة الديمقراطية ورغبته فى تنفيذ أى جريمة لتوسيع المصالح الأمريكية، المؤسسة الدبلوماسية الأمريكية إلى المحافظين الجدد.

فى نهاية كتابه يقدم مقارنة بين رد فعل بوش على أحداث سبتمبر و«مقاربة كيسنجر الأكثر حذراً والأقل ديمقراطية للسلطة» والتى تجعل المرء يتساءل: كيف أن قيام كيسنجر بالقصف السرى لبلدين، ناهيك عن وضع الجيش الأمريكى فى حالة إنذار نووى، يمكن أن يسمى مقاربة حذرة أو كيف أن «مقاربة بوش للسلطة» يمكن وصفها بالديمقراطية.

لايعتبر داليك ناقداً راديكالياً للسياسة الخارجية الأمريكية. وعلى الأرجح يصلح كتابه هدية بمناسبة أعياد الكريسماس أكثر مما يصلح للمناقشة فى ندوة. ومع ذلك فهو يؤسس تاريخه على أفعال أناس حقيقيين مما يسمح له أن يزن نتائج تلك الأفعال. بخلاف سورى الذى نال الكثير من الثناء لإضافته المنظور «العابر للأوطان» إلى التاريخ الدبلوماسى، فهو يحاول بطموح أكبر تقييم معنى «القرن الأمريكى». ويناشدنا أن نتأمل «امتلاء حياة كيسنجر» ومع ذلك فهو يرسمه بكلمات تفتقر إلى الوضوح، بل إنه ينحو إلى التعميم ومن الناحية التاريخية يخلو كتابه أحيانا من المنطق فهو يكتب «لكل صفاته المميزة، كيسنجر واحد منا».

يغسل جيرمى سورى جرائم كيسنجر - وبالتالى جرائم «القرن الأمريكى» - فى جملة من التفاهة فهو يقول «لم يسع كيسنجر لرسم بحر جديد لرحلة حياته. لقد أبحر مع التيار، يغير اتجاه السفينة بمهارة ليستغل الرياح فى أشرعته».

حين طلب سورى من كيسنجر، فى حوار لكتابه، «الإعلان عن «مبادئه الأخلاقية القوية» المبادئ التى لا يمكنه أن يتخطاها» قال كيسنجر إنه «غير مستعد للإعلان عن ذلك الآن». ويعتبر سورى هذا دليلا على صراع كيسنجر مع ضميره، مع حقيقة أن «النوايا الحسنة دائما تأتى بنتائج سيئة». ولكن كيسنجر كان قد أجاب على سؤال مشابه فى عام ١٩٧١. سأله صحفى: ما هو الخط الذى إذا تم تجاوزه، قدم كيسنجر استقالته؟ وكانت لحظة مواتية لهذا السؤال حيث كان نيكسون وكيسنجر - خوفاً من احتمال عدم التمكن من الخروج من فيتنام قبل انتخابات ١٩٧٢ - قد بدآ فى قصف لاوس مرة أخرى، كجزء من حملة متقطعة ألقت فيها الولايات المتحدة ملايين الأطنان من القنابل والفوسفور الأبيض والمتفجرات القوية وقتلت مئات الألوف من اللاويين. أجاب كيسنجر بأنه سوف يستقيل إذا «أصبح اتجاه السياسة برمته مقيتاً أخلاقياً بالنسبة لى» ولكنه لم يرغب فى انتقاد نيكسون «إلا إذا نصبت أفران غاز أو ارتكبت فظائع أخلاقية شنيعة». إن قتله بعد عقود من ذلك من تذكر حتى هذا الجواب المثير للجدل ليس دليلا على صراع أخلاقى ولكنه دليل على صمت رجل مسؤول عن ارتكاب أكبر الفظائع المبررة باسم الأمن القومى. ■

بلغت مناورات نيكسون وكيسنجر لتفادى المساءلة - وعمليات تنصتهم واقتحام المنازل ليلاً ومطاردة المعارضين - مبلغًا أسطوريًا وتعزى غالبًا إلى ضعف فى الشخصية وإلى بارانويا وعنجهية



هوامش المترجمة

(١) ونستون تشرتشل رئيس وزراء بريطانيا مرتين. فى مايو ١٩٤٠ خلف رئيس الوزراء تشامبرلين وقاد بريطانيا إلى النصر ضد قوات المحور. وكان مشهورا بخطبه البليغة التى كانت ملهمة لقوات الحلفاء. وبعكسه كان ارثر نيفيل تشامبرلين سياسيا محافظا رأس الوزارة من ١٩٣٧ إلى ١٩٤٠ الذى تميز بسياسة ترضية ادولف هتلر والحكومة النازية بتوقيعه اتفاق ميونخ عام ١٩٣٨.

(٢) الصفقة الجديدة New Deal هو عنوان عدة برامج اجتماعية واقتصادية نفذها الرئيس الامريكى فرانكلين روزفلت بين عامى ١٩٣٣ و١٩٣٨ بهدف دعم الشعب والاقتصاد خلال فترة الكساد الكبرى. وتعتبر نقلة فى السياسة الأمريكية الهادفة إلى رفع دعم الدولة وتشجيع القطاع الخاص. وكان من نتائج هذه البرامج سيطرة الدولة على الاقتصاد والنقد، والتدخل للسيطرة على الأسعار والإنتاج الزراعى، وتشجيع الاتحادات والنقابات المهنية.

(٣) جمهورية فايمار هى اختراع المؤرخين فليس هناك مثل هذه التسمية، بل كان الاسم الرسمى هو (ألمانيا). وقد تأسست فى فبراير ١٩١٩ فى ألمانيا المهزومة واستمرت حتى مارس ١٩٣٣ حين استبدلت ديمقراطيتها بالرايخ الثالث وصعود هتلر

الديمقراطية ..

طاهر حمدي كنعان

لا تبدأ الديمقراطية بدون ديمقراطيين بل بحملة قيم وثقافة تبدأ بسيادة وحقوق الشعب وبالعدالة كحالة من المساواة ورفض الامتيازات الحصرية لفئات معينة على الأقل

* « الكتاب العظيم » يعظم فائض المنتفع

من مفاهيم علم الاقتصاد اللصيقة بمنطق هذا العلم، والتي لا تنفك تثير الإعجاب كلما تأملها المرء عند الحالات التي تستدعيها، هو مفهوم «فائض المنتفع» أو «فائض المستهلك» consumer's surplus الذي يسجل في بعض قراءاته الفرق بين قيمة المنفعة التي يحصل عليها المستهلك أو المنتفع بمنتج معين والتي تعادل تكلفة المال والوقت والجهد المطلوب لإنجاز هذا المنتج، وبين الثمن الفعلي الذي يدفعه المنتفع للحصول عليه. الذي ينشئ هذا الفرق أو «الفائض» هو وجود عدد كبير من المستهلكين أو المنتفعين بالمنتج مما يمكن من توزيع تلك التكلفة على ذلك العدد الكبير بحيث يستطيع كل واحد منهم أن يحصل على المنتج مقابل ثمن تافه يعظم بدرجة جد كبيرة قيمة «فائض الانتفاع» لدى كل واحد منهم. ومن الأمثلة على الحالات التي تستدعي التأمل في ذلك المفهوم حالة الكتاب الذي يخطه عالم أو مفكر عظيم يضع فيه عصارة علمه وتجربته باذلا أياما وليالي من الجهد في البحث وتقليب الأفكار لاستخلاص أفضلها لكي يعهد به إلى الصحائف الورقية. وفي الأزمنة المبكرة من نشأة الحضارة كان الحصول على مثل ذلك النتاج يقتضي من المنتفع أن يبذل مالا مماثلا لمنتجه سواء كان فيلسوفا أو مفكرا أو أديبا أو فنانا لكي يحفزه للإنتاج أو ليكافئه عليه، وفي هذه الحالة لا يحصل هذا المنتفع الأول على أي فائض. لكن بعد تدوين ذلك النتاج في كتاب قابل للاستنساخ وسماح راعيه الأول باستنساخه، يصبح المنتفع التالي الذي يحصل على نسخة ثانوية من الكتاب متمتعا بفائض يعادل الفرق بين التكلفة الأصلية للمنتج وتكلفة استنساخ النسخة الواحدة. وحين كان الاستنساخ يدويا يقتضي جهدا غير قليل من الكاتب المحترف الذي يتوخى الدقة ويتمتع بالخط الجميل، فإن «فائض الانتفاع» وإن كان ضخما بالقياس إلى ما تكلفه المنتفع الأصلي، إلا أنه زهيد جدا بالقياس إلى الفائض الذي أضحى يتمتع به المنتفع في زماننا الراهن حين يستطيع أن يحصل مقابل ثمن بخس دراهم (أو دنانير أو دولارات) معدودة على أفضل إنتاج لأعظم المفكرين أو الأدباء أو الفنانين، (بل وفي عهد الإنترنت مقابل لاشيء سوى تكلفة الربط بالعنكبوت العالمي العريض «ع ع ع» أو "www" (world wide web)!!

إن إدراكي لذلك المفهوم المركزي في علم الاقتصاد (وإعجابي المستمر به) أنشأ عندي عادة معاملة النتاج الفكري أو الأدبي أو الفني (من كتاب أو قرص إلكتروني أو تنزيل download من الإنترنت) بكثير من الاحترام. فإذا خطر لي أو طلب مني التعليق على أي منتج جدي في الفكر أو الفن أو نقده، فإني أفعل ذلك بمنتهى التهيب والشعور بجسامة «فائض المنتفع» الذي يمثله ذلك المنتج. ولذلك لا أسمح لنفسي بالتعليق أو النقد إلا بعد الاستيعاب المتأني والدقيق لمضمون ما أنا بصدد نقده أو التعليق عليه.

وحين استلمت نسختي من كتاب عزمي بشارة الجديد «في المسألة العربية: مقدمة لبيان ديمقراطي عربي» شرعت في قراءته بكل عناية واهتمام، ليس فقط لضخامة «فائض المنتفع» الذي يهدينا إياه مفكر عربي بمستوى عزمي بشارة، ولكن أيضا لنيتي المسبقة أن أقوم بمهمة كتابة مراجعة له، كون منشأ الكتاب كان محاضرة شرفني الكاتب بتقديمها في عمان في خريف ٢٠٠٥ ضمن فعاليات «المركز الأردني لأبحاث وحوار السياسات» في موضوع «تحديات الانتقال إلى الديمقراطية». وكان وقعها على كل من سمعها غاية في التأثير، ورأيت فيها مقومات تضعها في مستوى البيان التاريخي أو «المانيفستو» فيما يخص مقاربة الديمقراطية من منظور قومي عربي. ولذلك حين قام المركز بنشر نص المحاضرة المفرغ من التسجيل الصوتي (كونها كانت حديثا مرسلا من رؤوس أقلام وليس من نص مكتوب) وجدت من المناسب أن أضيف إلى عنوانها الأصلي «تحديات الانتقال إلى الديمقراطية» التكملة اللائقة: «.. مقدمة للبيان الديمقراطي العربي». وحين استجاب عزمي بشارة لأهمية تطوير أفكارها المحورية إلى كتاب كامل في «المسألة العربية» سرني بأنه لم يتخل عن تلك التكملة للعنوان وإن أدخل عليها قدرا من التواضع فجعلها «مقدمة» وليس «المقدمة»!

يقدم الكتاب عددا من الأطروحات الفكرية التي تسعى إلى التحديد النظري الدقيق لعدد من المفاهيم التي يلتبس فهمها عند الكثيرين من المفكرين السياسيين ومن الحركات السياسية المتأثرة بذلك الالتباس والمعرضة بذلك إلى التيه في تجارب سياسية غير مجدية. ولما كان هذا الجهد الفكري بطبيعة أهدافه نظريا وتجريديا، فإن نصوصه تقتضي قدرا غير قليل من التأني والصبر في القراءة لاستيعاب مراميها.

ظاهرة الديمقراطية

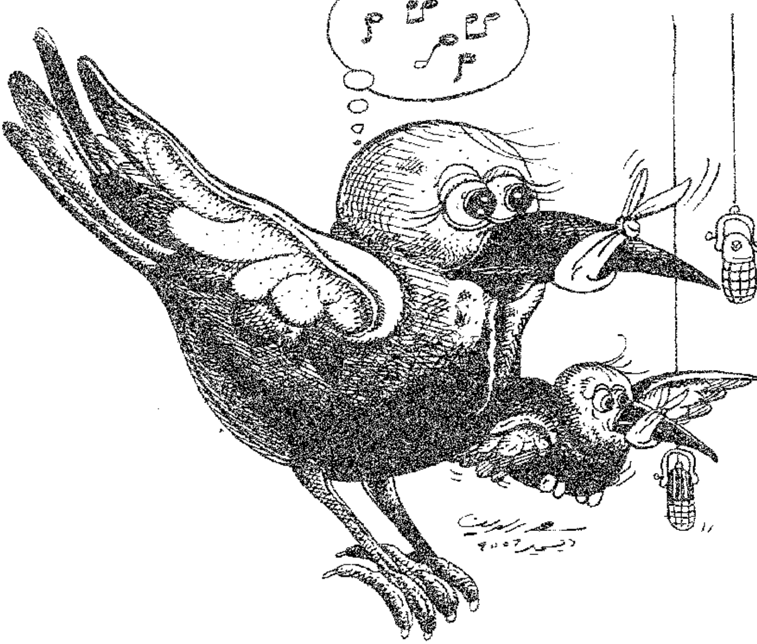
الأطروحة المحورية في الكتاب هي التمييز بين الديمقراطية كما نشأت تاريخيا نتاجا لعملية إنضاج طويلة لهذه الظاهرة الاجتماعية التي نشاهدها في عصرنا وقد اكتملت صورتها المؤسسية المحددة وأضحت قادرة على استدامة ذاتها وظائف وغايات، وبين المبادرة المستعجلة لتأسيسها أو «إعادة إنتاجها» في مجتمعات كالمجتمعات العربية على الخلفية التاريخية التي قادت إلى واقعها الراهن وضمن السياق الدولي والمؤثرات الخارجية التي تكتنفها من كل الجهات. هنالك فرق كبير بين الأمرين: نشوء الظاهرة تاريخيا وإعادة إنتاجها آنيا.

ويلفت الكتاب النظر إلى أن الخطأ الذي يقع فيه المهتمون بإنشاء الديمقراطية في مجتمعاتنا العربية هو استصغارهم شأن تلك العملية التاريخية والتوهم أن الديمقراطية تنشأ بمجرد توفر مقوماتها التي يتم تشخيصها من استقراء خصائص الديمقراطيات الكبرى كالفرنسية أو البريطانية أو الألمانية أو الهندية، غافلين عن أن الديمقراطية التي تأسست تاريخيا في هذه الدول/الأمم باتت نظاما يستديم ذاته بعوامل أعمق غورا من تلك المقومات. والحال هو أن معرفة الشروط المطلوب

الخطأ الذي يقع فيه المهتمون بإنشاء الديمقراطية في مجتمعاتنا العربية هو استصغارهم شأن تلك العملية التاريخية والتوهم أن الديمقراطية تنشأ بمجرد توفر مقوماتها

في المسألة العربية
مقدمة لبيان ديمقراطي عربي
عزمي بشارة
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧

مشروع عربى!!



توفرها لتأسيس ديمقراطيات جديدة وتحديد هذه الشروط لا يكون بمجرد تعداد الصفات أو المقومات أو العناصر التى ميزت الديمقراطيات التاريخية، والتساؤل عن ورودها أو غيابها فى هذا المجتمع أو ذاك، ومن ثم استنتاج مدى ابتعاد أو اقتراب هذا المجتمع من تأسيس نظام ديمقراطى، إن نظرية نشوء الديمقراطية المبنية على الاستقراء التاريخى قد تستنتج أن العوامل الحاسمة فى نشوء الديمقراطية كانت متماهية مع بعض العناصر التى أصبحت تعرف بعناصر الحداثة، مثل نمو الطبقة الوسطى الواسعة فى مقابل الإقطاع والإكليروس كما حدث فى فرنسا، ونشوء مفهوم جديد للأمة وارتفاع مستوى التعليم وصعود القومية على أنقاض الانتماءات الأصغر... الخ.. وفى بعض الحالات ارتبط نشوء الديمقراطية بالصراع بين الكنيسة والنبلاء والملك وتحالفات شتى قامت بالتوازى مع ذلك... إلخ.. مما يجعل الشروط التاريخية لهذا كله لانهائية وغير محددة بحيث لا يمكن استحضارها من جديد، بل يصعب فى ذلك الاستقراء للتاريخ، الاختيار بين ما يعتبر الأسباب الجوهرية لنشوء وتطور الديمقراطية وبين التفاصيل التاريخية اللا نهائية التى سبقت هذا التطور. لكن بعض عناصر الحداثة، وبالذات النزعة الليبرالية، لم تكن أساسية فى نشوء الديمقراطية. وفى هذا الصدد يشير الكاتب إلى أن الأمر احتاج إلى بضعة قرون لكى تلتقى الديمقراطية مع الليبرالية فى الحداثة ذاتها. فالليبراليون المدافعون عن الحريات وحقوق المواطن والسوق الحرة لم يكونوا ديمقراطيين تاريخيا، والديمقراطيون من بداية الثورة الفرنسية غالبا لم يكونوا ليبراليين. وربما من هذه الزاوية يمكن النظر إلى الوراء والقول: إن الأمر احتاج إلى حربين عالميتين وإلى تحول الاشتراكية دون حريات (الديمقراطيات الشعبية كما وصفت ذاتها) إلى أحد أسوأ أنواع الاستبداد، حتى بدأ الناس بتصور الديمقراطية كنظام ديمقراطى ليبرالى يقوم على حكم الأغلبية بموجب القواعد الديمقراطية الليبرالية بما فيها الرقابة على حكم الأغلبية واستقلال القضاء والحريات وتعميم المواطنة وحقوقها.

يضيف الكاتب: إن نضوج تلك الديمقراطيات التاريخية واستقرارها وصل بها إلى القدرة على استدامة النظام الديمقراطى فيها، وإنجاز هذه الاستدامة دون الحاجة بالضرورة إلى ديمقراطيين ينشغلون بهذه المهمة. لأن الديمقراطية وفى مرحلة استدامة الذات، يمكنها أن تصمد وتتطور بغض النظر عن قيم الشخوص التى تدير دفة الحكم. وتفترض هذه المرحلة - وهى مرحلة استدامة الديمقراطية لذاتها - أن قواعد وأسسا للحكم قد أرسيت، وقد نشأ لها حراس فى القضاء والصحافة والأكاديميا، وهى قادرة على استدامة النظام حتى لو كان من يقف على رأسه (بوش مثلا) لا يحمل قيما ديمقراطية كما حملها الديمقراطيون الأوائل، ولا قيما ليبرالية كما حملها الليبراليون غير الديمقراطيين فى القرن التاسع عشر... أو قد يحملها لدوافع لا علاقة لها بالديمقراطية مثل المحافظة على التقاليد والهوية أو لغرض الدعاية الانتخابية وغيره. وهذا هو المهم فى حالة وجود نظام ديمقراطى يستديم صناعته لذاته: إن دوافع السياسيين وأهدافهم لا تؤثر على طبيعة النظام وقواعده.

عالمنا العربى الراهن:

لا تستحضر الديمقراطية باستحضار مقومات، بل يصنعها مناضلون ديمقراطيون.

فى المقابل، فى رأى مؤلف الكتاب، أنه لا يمكن تأسيس أو إنشاء نظام ديمقراطى فى مرحلتنا التاريخية المعاصرة دون ديمقراطيين. (تشقيل العبارات وارد فى النص الاصلى) خاصة أن المطلوب من التأسيس أن يتم دفعة واحدة فلا يعيد عبور المراحل التى قطعتها الديمقراطيات التاريخية. يمكن تخيل دور شخوص وأحزاب غير ديمقراطية فى عملية تطوير الديمقراطية ونشوئها تاريخيا دون أن تدرى ودون وعى منها لطبيعة الدور الذى قامت به. ولكن لا يمكن أن يبدأ عن سبق الإصرار بتأسيس نظام ديمقراطى فى أى منطقة بما فى ذلك المنطقة العربية دون أن يكون



الديمقراطيون «متورطين في عملية ذلك التأسيس للديمقراطية فكرا وبرنامجا».

وفي كل مرحلة من مراحل تاريخ نشوء الديمقراطية والصراع على توسعها وتطورها، يضيف المؤلف، «كان الرعيل الأول من الديمقراطيين يحمل مثلا ديمقراطية، في سياق عصره ومقارنة بما كان. على الأقل. لا تبدأ الديمقراطية بدون ديمقراطيين بل بحملة قيم وثقافة تبدأ بسيادة وحقوق الشعب وبالعدالة كحالة من المساواة ورفض الامتيازات الحصرية لفئات معينة على الأقل. وكان توق هؤلاء الوطنيين الجمهوريين للاستقلال الوطني والعدالة حقيقيا. في حين أن من يطرح استيراد النظام الديمقراطي جاهزا على بارجة إلى البلدان العربية هم نيو- ليبراليون لا يحملون قيم الليبرالية والديمقراطية ولا الحماس لتحقيق ما يرونه عدالة إطلاقاً. ويعتقدون عادة أن هنالك تناقضا بين العدالة والإنصاف والبراجماتية التي رفعت إلى درجة القيمة حينا، أو إلى درجة الترادف مع العقلانية أحيانا. هنالك ترويج نيوليبرالي للتناقض بين العدالة والعقلانية، لا يميز مراحل انطلاق التحولات الديمقراطية عن مراحل الانحلال. ويكفي أن نأخذ مثلا نصائح الليبراليين الجدد العرب المتكررة بألف صيغة للشعب الفلسطيني عند كل مفترق بالتخلي عن العدالة والقبول بموازين القوى فيصلا بينهم وبين إسرائيل، والقبول بشروط الأخيرة للتسوية بحجة الواقعية وعدم تفويت الفرص. ليست هذه صفات ومزايا ولا مميزات الثقافة المؤسسة للديمقراطية».

ويبين الكاتب أنه بالرغم من ذلك فإن حلفاء الولايات المتحدة ووكلاء بضاعتها الديمقراطية الجاهزة للتصدير، وبالذات فيما يخص القضية الفلسطينية، لا ينفكون ينصحون شعوب المنطقة بعدم قبول فكرة «العدالة أصلاً كمبدأ، وإنما قبول معايير غير حقوقية من نوع موازين القوى وغيرها. وهي نابعة من أفكار وفلسفات قد تعمل في ظل النظام الديمقراطي ولكنها بحد ذاتها لم تنتج ديمقراطية في يوم من الأيام. ومن يتخلى عن مفاهيم الحق والعدل لا يمكن أن يكون ديمقراطيا حقيقيا... ويجب ألا يخطر في البال أنه لو وضعنا «جورج بوش» بعقليته الحالية مواطنا أو سياسيا في بلد ليس فيه ديمقراطية فهو يستطيع أن يقود أو يبدأ أو يساهم في عملية تأسيس ديمقراطية: هو لن يستطيع ذلك لأنه ليس ديمقراطيا. الديمقراطيه تتضمن قيما أساسية من أهمها الصدق والعدالة. وبوش كسائر «المحافظين الجدد» بعيد أقصى البعد عن الإيمان بهذه القيم».

ويؤكد الكاتب أن الديمقراطية في حالة مثل حالة البلدان العربية هي «فوق كل شيء وقبل كل شيء. مسألة سياسية نضالية. لا تقدم على صينية من فضة، ولا على دبابة من فولاذ. والأخيرة تؤدي إلى جباية ضحايا من الآخرين. فيبدو الطرف الذي يناضل ويضحي هو الطرف المناهض لـ «الديمقراطية»، ويضيف:

هنالك طبعا من يرد على هذا الكلام بحجة أمريكية مفادها أن التدخل الأجنبي، والأمريكي تحديدا، حيوي ولا يمكن تجنبه أو الاستغناء عنه في عملية إنشاء الديمقراطيات في «دول» مستعصية على التحول، لا يمكن أن يسقط فيها النظام من دون تدخل أجنبي. وقد أنشئت مثل هذه النظم بتدخل خارجي، أمريكي تحديدا، بعد «عملية بناء الأمة»... في اليابان وألمانيا وإيطاليا. ولكن هذا غير صحيح. فقد كانت اليابان وألمانيا وإيطاليا أمما حديثة قبل الاحتلال، وفي مرحلة حداثة متطورة ووحدة وطنية أدت إلى بدايات نظام ديمقراطي. وكان هنالك إصلاح استمر عقودا في حالة إمبراطورية «ميجي»، وتعثر في العشرينيات من القرن العشرين في حالة اليابان. وفي ألمانيا كانت جمهورية فايمر. وإيطاليا عاشت تجربة ديمقراطية عقدين قبل مرحلة موسوليني. وعج تاريخ تلك البلاد الحديث بديمقراطيين واشتراكيين كقوى اجتماعية وأحزاب وأفراد أصحاب مشاريع ديمقراطية وتقاليد وقواعد اجتماعية في المنافي والمعتقلات. لم يخلق تدخل الولايات المتحدة وحكمها العسكري في تلك الدول نظاما ديمقراطيا من لا شيء. كما أن تدخل الولايات المتحدة جاء منسجما مع التجانس والوحدة الوطنية في هذه الدول وليس حليفا لتقسيمها ومعاديا لثوابتها القومية».

ولقد خصص الكاتب مساحة كبيرة من نصوصه لكي يبرهن على أن التحول الديمقراطي أكثر جدية من أن يعهد به إلى من لا يمكن أن يكونوا ديمقراطيين حقيقيين ما داموا تحت أي عذر يتراخون في التصدي الفكري والعملي للمشروع الإمبريالي للمحافظين الجدد في البيت الأبيض والبنتاجون.

وعاء القومية الديمقراطي

وظف عزمي بشارة ذخيرة فكرية وعلمية ضخمة لفرز المثقفين الذين يدركون أن إضفاء الأولوية القصوى على الديمقراطية وعلى تمكينها من استعادة المبادرة العربية الوطنية والاجتماعية، يقتضي وجود الوعاء الذي يحتويها والإطار الذي تتشكل فيه وهو الـ«نحن» المتخيلة imagined community. إن هذه الـ«نحن» ليست جماعة عضوية بل هي أشمل من ذلك، ولكنها متخيلة بأدوات مثل الطباعة والنشر والدولة والتعليم والتاريخ وكأنها جماعة عضوية. هذه الـ«نحن» ضرورة لازمة لتطوير درجة من التسامح والثقة تمكن من احتواء سوق وطنية، ومن الاختلاف والتنافس، وتمكن من احتواء التنافس على تعريف الخير العام لهذه الجماعة وتنظيمه بشكل سلمي. (هذه أولويات سابقة لكل النظريات حول بنية الديمقراطية مثل الفصل بين السلطات واستقلالية القضاء وغيرها. لأنها الشرط لفعل هذه النظريات). وفي إطار العضوية في الجماعة السياسية، القومية، ينشأ بدايةً الحديث عن حقوق المواطن ثم يتوسع، حتى يصبح تعريف المواطنة في الدولة تعريفا كونياً متجاوزاً للقومية. إن القومية تتحمل في داخلها النقاش السياسي وتبادل السلطة بالسبل السلمية، والنقاش السياسي يتحول إلى أحزاب، وهذه الأحزاب تحمل وتتحمل الاختلاف في وجهات النظر السياسية بحيث لا ينفرط المجتمع وينحل إلى طوائف وجماعات أهلية متصارعة متحاربة.. القومية هي إمكانية «نحن» متخيلة تحتوي هذه العملية.

وفي أساس الفكرة القومية عند عزمي بشارة «بناء دولة المواطنة التي تكون ملكاً لجميع مواطنيها دون أي تمييز عرقي او إثني أو ديني أو طائفي بين المواطنين سواء في حقوقهم فيها أو واجباتهم تجاهها...» ولذلك تتناقض الفكرة القومية أيما تناقض مع التشكيلات القبلية والعشائرية والطائفية والمذهبية التي شكلت زمر «الجماعات العضوية التي تعود في تكوينها إلى سلسلة تاريخ طويلة، آخر حلقاتها الامبراطورية العثمانية. وكانت الشعوب التي استظلت بهذه «الدولة العلية» بما فيها معظم الشعوب العربية مجرد رعايا للسلطان. وفي غياب حقوق المواطنة بالمفهوم والممارسة الحديثة كان «مرجعية» الفرد للمحافظة على حقوقه والدفاع عن مصالحه هو العائلة أو العشيرة أو الطائفة التي ينتسب إليها: يحتمي بعزوتها أو أموالها في وجه الوالي أو الانكشاري من متنفذي القمع السلطاني. بسبب هذه الخلفية، فإن انتقال الولايات العثمانية سابقاً إلى العصر الحديث وتحولها عبر المرحلة الكولونيالية إلى «دول» مستقلة، فإن أيا منها لم يتحول إلى «دولة أمة» بمفهومها الحديث، بمعنى أن كل من يعيش في كنفها يرتبط بالدولة ارتباطاً يلغي كل الولاءات العائلية أو العشائرية أو القبلية ويستبدل بها الولاء للوطن. فالقومية العربية قبل مرحلة بناء أمة المواطنين هي حاجة عملية لتوحيد غالبية الشعب حتى في الدولة القطرية لكي لا ينهار إلى طوائف: وهي ليست مجرد «إثنية» مختلقة مركبة بل جامع ثقافي من الدرجة الأولى يقوم على عناصر قائمة غير مختلقة مثل اللغة المشتركة، والتعبيرات المختلفة عن تطلعات سياسية مشتركة لها تاريخ حديث وقديم. حتى بعناصرها الرومانسية ليست القومية العربية مجرد حالة رومانسية بل حاجة عملية ماسة وبراجماتية في الوصول ليس فقط إلى مجتمع حديث قائم على الانتماء الفردي، بل أيضا لتزويد المواطن بهوية ثقافية جامعة تحيد غالبية الطوائف والعشائر العربية على الأقل، عن التحكم بانتماء الفرد السياسي.

لذلك يفتح عزمي بشارة الباب على مصراعيه حتى لأقطار من اختراع سايكس بيكو أن تنجز ديمقراطية مستقيمة شريطة أن تنجح مثل هذه الدولة القطرية في تشكيل أمة مدنية على أساس الانخراط في مواطنة حقوقية بحيث تكون الدولة/الأمة المدنية، وليس العشيرة أو الطائفة، هي الضمان ضد الاستبداد. بل قد يستغرب بعض القوميين العرب التمييز الذي يقيمه الكاتب بين قومية عربية ثقافية ينتمي إليها غالبية المواطنين في الدول العربية من جهة، وأمة سياسية قائمة على المواطنة القطرية: هي مجتمع مدني نحو الداخل وأمة نحو الخارج.



ويمكن أن يستنتج من هذا التمييز تصور حالة عربية تنشأ فيها دول قطرية يتشكل مجتمعها على أساس ديمقراطي حقيقي من المواطنين المتساوين فعلاً في الحقوق والواجبات متجاوزين أية روابط عشائرية أو طائفية إلى الولاء الخالص «للوطن» في هذه الحالة قد لا يتم إنجاز دولة أمة على المستوى العربي الشامل في الأمد القريب، بل قد تنشئ هذه الأقطار مرحلياً بدلاً من ذلك متحداً اقتصادياً ثقافياً أو common wealth كونها تضم شعوباً تجمعها قومية ثقافية مشتركة، وهذه حالة متقدمة جداً قياساً بالواقع العربي الحالي، وقد تكون هي التمهيد المطلوب لأي اتحاد طوعي. لكن الدول العربية القطرية القائمة، مع الأسف الشديد، فشلت في عملية بناء الأمة على أساس المواطنة، أو على الأقل على أساس هوية محلية إثنية متخيلة مثلاً(*).

القومية العربية والإسلام السياسي

بخلاف الفكرة القومية، لا يقدم الدين حلا مرضياً لموضوع «المواطن- الدولة». والكتاب يقدم أعمق تحليل نقدي أعرفه لتسييس الدين ومحاولات تحويل العقيدة الدينية إلى هوية وانتماء أشبه بالقومية. فنشأ الخطر المعاصر أن يخسر العرب العالمين: عالم الدين كوازع أخلاقي وكعقيدة إيمانية حرة، وعالم القومية كخطاب حديث يسعى إلى بناء أمة حديثة. والأمة المواطنية الحديثة هي نحو الداخل: دولة- مجتمع مدني قائم على المواطنة، وهي نحو الخارج: أمة ودولة- قومية.

وإن من نادى بتمييز عقيدي للمسلمين عن سواهم باعتباره أساساً في التميز السياسي للأمة بدل تميز قومي للعرب مسلمين وغير مسلمين، ما لبث أن انتهى إلى هوية دينية للعرب في مقابل هويات قومية. ثم ما لبث هذا التيار أن اعتمد على أغلبية دينية ديموجرافية تبرر هذه الهوية، أغلبية تحسب بالولادة لا بالإيمان الفعلي. وهذا لا يختلف عن الصيغة العنصرية من القومية، أي أن الهوية تحتسب بغض النظر عن الإيمان الفعلي بالعقيدة. وقد كان هذا الإيمان المبرر الوحيد بداية لنسخ مفهوم الأمة الإسلامية القديم كجماعة المؤمنين ضد الجماعة القومية كأساس لتأسيس الأمة الحديثة.

وكما لم تنجح الهويات الوطنية القطرية في استبدال القومية العربية، فهي أيضا لا تستطيع التغلب على الإسلام السياسي المتشرذم طائفياً، لأن الهويات الوطنية هي غالبا أقل شرعية منه، أو لأنها بنيت أصلا على التوازن الطائفي المحلي، أو على سيطرة طائفة من العهد الاستعماري. ولكن الرابطة العروبية فقط هي التي تستطيع شمول السنة والشيعة والمسلمين والمسيحيين العرب. القومية العربية صيرورة مستمرة بالتوازي مع عملية بناء الدولة العربية والهويات المحلية وبتفاعل معها. ولأن الهوية العربية هوية تشمل أغلبية المواطنين لغةً وثقافةً وانتماءً فإنها قادرة أن تقدم حتى في كل دولة على حدة وعاء لتأطير الخلاف السياسي في تيارات ومواقف ومصالح عند الأغلبية ومن خلال احترام حقوق غير العرب المتساوية كمواطنين أفراد وكجماعات لها حقوق. فمن حق مثل هذه الجماعات بنظر العروبة المنفتحة والإنسانية الحصول على حقوق ثقافية جماعية في حالة تأكيدهم على هوية ثقافية غير عربية موروثة أو حتى مصنوعة.

إن تعريف المسلم في عصرنا ليس المسلم المتدين: بل من يولد مسلما أو يصبح مسلما بمعنى الانتماء الطائفي: وهذه هي الأغلبية المقصودة عندما يتم الحديث عن غالبية إسلامية. وهذه عصبية لا تقل عن عصبية الرابطة القومية التي تغذي للتجييش والتعبئة عند أيديولوجييها. أما إذا كان المقصود بالمسلم كمفهوم عقيدي، فهذا يعني بالتأكيد مساساً بمبدأ المواطنة، وحتى مواطنة المسلمين. ولا شك أن حكم المفهوم هذا بناء على العقيدة يتحول إلى «المسلم المؤمن» ثم المؤمن بتفسير معين للإسلام، الأمر الذي يقصي من المواطنة المسلمين الذين يعترضون على التفسير الرسمي أو السائد للعقيدة، وهكذا... في هذه الحالة يصبح التمييز الرئيسي موجها ضد المسلمين غير المتكيفين مع التفسير السائد للإسلام.

وكل هذا النهج هو عبارة عن مس بالمواطنة كفكرة، وبالمواطنة المتساوية كممارسة، ومهما أعقب هذا المس من وعظ حول التسامح وعدم جواز الافتراء على غير المسلمين والاعتداء عليهم من منطلق «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» كـ «معاهدين»، أو من الواجب حمايتهم لأنهم في ذمة المسلمين. وأن هذا هو العهد لكي تبقى علاقة [illegible] بهم، كعلاقة وصاية (إذا صيغت سلبا) أو حماية (إذا صيغت إيجابا) وهي علاقة بين طرفين وليس بين مواطنين. إضافة إلى ذلك فإنهما طرفان غير متساويين. فهناك طرف يملك الدولة ويمنح الحقوق أو الحماية أو الوصاية، وطرف آخر متسامح معه.. وهذا مناقض لعملية بناء الأمة الحديثة باتجاه المساواة أمام القانون والديمقراطية وحقوق المواطنة.

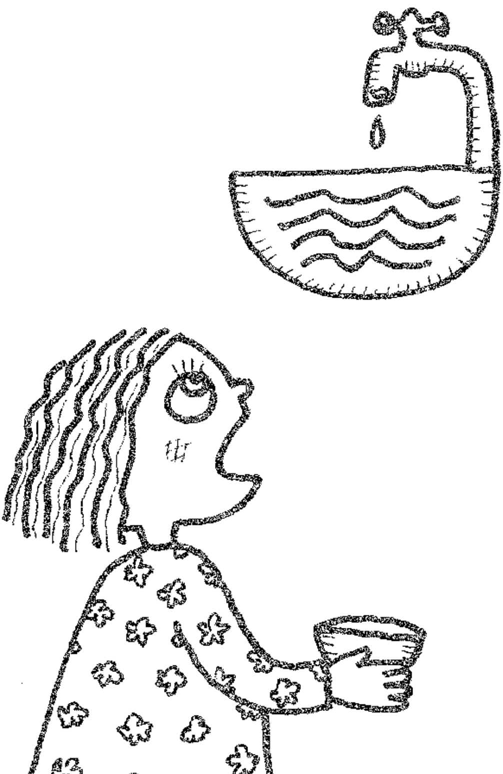
ختاماً، يشكل هذا الكتاب أكثر المعالجات الفكرية أصالة «للمسألة العربية» بما هي إشكالية تعثر النهوض المدني والوطني والقومي بسبب غياب «مشروع للتحول الديمقراطي» يناضل من أجله ديمقراطيون حقيقيون. ويتماهى غياب المشروع الديمقراطي هذا مع غياب «مشروع قومي» يوفر الوعاء الذي يجعل دولة المواطنة ممكنة من خلال استبدال الرابطة القومية بكل الروابط التي تقف حواجز بين المواطن والدولة المكرسة لجميع مواطنيها من دون تمييز سواء كانت تلك الروابط ولاءات قبلية أو عشائرية أو دينية أو طائفية أو عرقية أو اثنية أو غيرها من الانتماءات القديمة ذات الخلفيات التاريخية والثقافية، أو كانت ولاءات مستحدثة نتيجة تكتلات المصالح الطبقية والكومبرادورية المرتبطة غالباً بمشروعات دول الهيمنة والاستتباع، والتي تغذي وتتغذى من «رخاوة الدولة» واستشراء الفساد.

بالمعاني التي تستخلص من هذا الكتاب، فإنه لا الديمقراطية ولا القومية العربية ماهيات أو جواهر ذات وجود موضوعي وحتمي كما الظواهر المادية أو الطبيعية الصماء. ولكنها أفعال إرادة ومشروعات إنسانية حية يبتدعها الإنسان الحر حين يمارس ما تقتضيه حريته من مسئولية لتجاوز معطيات الواقع المرفوض ولصنع مشروعه، ماهيته الفردية والمجتمعية، عن طريق الانخراط في عملية بناء مجتمعه وأمته واستقبال المقبل من حياته والأيام ملتزماً إنجاز هذه المهمة.. ※

هــــوامـــــش

(*) لا يتردد أحد المفكرين المرموقين في التنازل بخفة عن «قانص» التنقيب فيتعجل قراءة الكتاب وينقد بما يعكس قصوراً مؤسفاً في فهم الكتاب نصاً وروحاً. فيبدي استنتاجات تعكس همومه الذاتية المشروعة لكنها تتسرع بالظن أن عزمي بشارة لا يشارك هذه الهموم. من ذلك الظن أن الدعوة الديمقراطية في نظر عزمي بشارة لا تستقيم إلا في إطار أمة ناجزة، في حين أن ما أوردناه أعلاه يبين عكس ذلك تماماً! كذلك يجنح الناقد إلى فقدان التماسك المنطقي في نقده. فمن جهة هو يقر بأن عزمي بشارة «يتبنى الديمقراطية كما يتبناها الديمقراطيون العرب الآخرون» وهذا إقرار يشكر عليه، لكنه ينتقد عزمي بشارة لأنه «يأخذ على الديمقراطيين العرب عدم فهمهم أن الديمقراطية لا تصح من دون أمة... وهو لذلك يخاطبهم بصراحة كخصوم ومن دون تمييز». يفهم من هذا أن عزمي بشارة متورط في الخصومة مع جميع الديمقراطيين العرب دون تمييز، لأنهم لا يفهمون أن الديمقراطية لا تصح بدون أمة، أي بدون اقترانها بالفكرة القومية. ليس هناك معنى لهذا الكلام سوى أن «جميع» الديمقراطيين العرب «دون تمييز» هم على مذهب الأستاذ الناقد في اعتقاده أن الديمقراطية تصح بدون الوعاء القومي. وإذن فإن الديمقراطي العربي الوحيد والفريد في هذا العالم الذي يحرص على المحتوى الديمقراطي للعروبة والوعاء العروبي للديمقراطية هو عزمي بشارة. هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول، كما يقول المعري!. (انظر برهان غليون، دفاعا عن الديمقراطية والديمقراطيين العرب، يومية الاتحاد الإماراتية، الصفحة ٣٤، ٢٠٠٧/٦/٧).

النمو وحده لا يكفى!



محمـــــود محيى الدين

في أمسية رمضانية قضيتها في بلدتي كفر شكر الواقعة في محافظة القليوبية. وكانت المناسبة لتوزيع الجوائز للفائزين في إحدى المسابقات التي تعقد في هذا الشهر لتلاميذ المدارس من حفظة القرآن الكريم. وقد رأى المنظمون ألا تكون الجائزة للفائزين فقط من ذوي السبق في الحفظ والتجويد، ولكن كل مشارك تكون له أيضاً جائزة تحفيزاً وتقديراً.. والجائزة رمزية ومعها ثلاثون من الجنيهات المصرية، وضعت في مظروف صغير والتقطت صور تذكارية.

وانتهى الحفل البسيط بسعادة ظاهرة على الأطفال.. فمنهم من لم يحصل على جائزة من قبل، ومنهم من لم ير هذا المبلغ البسيط من المال مجتمعاً في يده لعمل قام به.. ومنهم من لا تعنيه الجائزة النقدية بقدر الفوز والاحتفاء.

وكاد يخرج المحتفلون جميعاً، لولا صوت طفلة في الثامنة أو نحوها يكاد لا يبين بين صخب الخارجين من القاعة، فاستعانت بأحد ذويها يرفعها عن الأرض لكي تظهر بين الناس.. فتواجه المنظم بكلمات مستفهمة ببساطة وبراءة: «يا عمو.. وأنا أين جوائزي؟» تفحص مظروف النقود الصغير، وعن بعد قريب يقف ما يظهر أنهما أبوها وأمها معاً.. يقفان في حياء وتعفف.. وبوادر من أمل على وجهيهما أن يلبي طلب ابنتهما حتى بعدما انفض الحفل.. فبادرت الطفلة شارحة أنها ذات حق كأقرانها وأنه لا ذنب لها في سهو المنظمين عن ذكر اسمها.. فما كان من المنظم إلا أن تدارك الأمر سريعاً فأتى بمظروف فائض، وأعطاه للطفلة التي أصرت على أن تحظى بصورة تذكارية لكي يكتمل الأمر لها.. كاكتماله في ظنها لمن سبقها.. وكان من الواضح أنها أشد احتفالاً بالصورة التي التقطت معها بالظروف الذي أعطته سريعاً لأمها التي أمسكت به بتقدير ظاهر لما فيه رغم تواضعه.. وابتسامة تعلو وجهها محدثة زوجها في همس، ربما فيما يمكن فعله بهذا المبلغ مع إقبال العام الدراسي.. كأن يكمل ثمن حذاء.. أو تشتري به بعض الجوارب متواضعة الثمن.. أو يسدد جانباً من الرسوم المستحقة للمدرسة الابتدائية والتي تبلغ خمسة وثلاثين جنيهاً.

إن هذا الحدث ليس فريداً بل يتكرر بصور متباينة في مناسبات مختلفة وبتنويعات شتى.. ولكني اصطحبته معي وأنا أطالع كتاباً صدر منذ شهور عن النمو والتقدم والسياسات المحققة لهما.. وتحديداً فيما يتعلق بالارتباط بين النمو ومكافحة الفقر وتحقيق الغنى.

ألف هذا الكتاب جريجوري كلارك «Gregory Clark»، أستاذ التاريخ والاقتصاد بجامعة كاليفورنيا - ديفيز ورئيس قسم الاقتصاد بها، والمتخصص في تحليل النمو الاقتصادي طويل الأجل وثروات الأمم، والمتبحر في دراسة التاريخ الاقتصادي لإنجلترا والهند. ذكر المؤلف في مقدمة كتابه المعنون «وداعاً للهبات(!).. تاريخ اقتصادي مختصر للعالم» Farewell to A Alms... A Brief Economic History of The World والذي يقع في ٤٢٠ صفحة، أن هذا الكتاب حصيلة عشرين عاماً من البحث والتحليل والتحري والتنقيب، مستعيناً بأرشيف من الوثائق التي علاها غبار السنين في انجلترا، خاصة تلك المتعلقة بمستندات الملكية والحقائق الاقتصادية وتطورها على مدار ٨٠٠ سنة، حفظتها السجلات وطوتها محصونة في دور حفظ الوثائق التي حماها استقرار فريد تمتعت به انجلترا على مدار ما يقترب من ألفية كاملة من الزمان.

والكتاب قد كتب عن قصد ومحاولة مخلصة من مؤلفه على غرار النهج الذي خط به كتاب «ثروة الأمم» لآدم سميث، وكتاب «رأس المال» لكارل ماركس، على اختلاف منهجيهما وتباين ما استخلص منهما وما أحدثاه من جدل وما ترتب

Farewell to Alms... A Brief Economic History of The World
(وداعاً للهبات.. تاريخ اقتصادي مختصر للعالم)
Gregory Clark
Princeton University Press,
Princeton and Oxford: 2007, 420pp

معظم الناس قد عاشوا عند ذات المستوى
من المعيشة مقاسة بالمكتسبات المادية دون فوارق ظاهرة لمدة تقترب من الألف عام
السابقة على الثورة الصناعية

على اتباع ما فهم أو تصور لما جاء فيهما من رؤى وأفكار في صياغة السياسات الاقتصادية والاجتماعية.. بل في تشكيل مجتمعات برمتها.. لا أقول إن هذا الكتاب الجديد سيحدث ذات التأثير الممتد للكتابين العتيدين، ولكني أقول إن هذا الكتاب مثله مثل كتاب آخر أشار إليه المؤلف تحت عنوان: «مدافع وجراثيم وصلب» «Gens, Germs & Steel» الذي يأخذ هذا «المنهج الكبير» المتسع للباحث في تطور ثروات وفقر وغنى الأمم وأسبابها وما آلت إليه أحوالها مقارنة بنفسها وبغيرها عبر الوقت.. لا يخلو الكتاب من بعض معاجات قد يكون تأثيرها في جمعها في كتاب واحد يرصد التاريخ الاقتصادي منذ عام ١٠٠٠ قبل الميلاد حتى عام ٢٠٠٠ من الميلاد ولكن بتحليل أدق منذ عام ١٢٠٠ حتى عام ١٨٠٠ ثم بتعمق في التحليل من عام ١٨٠٠ حتى الزمن الراهن.

وما يخلص إليه الكتاب يمكن تلخيصه فيما يأتي:

❖ إن معظم الناس قد عاشوا عند ذات المستوى من المعيشة مقاسة بالمكتسبات المادية دون فوارق ظاهرة لمدة تقترب من الألف عام السابقة على الثورة الصناعية.

❖ إن الحدث الأكبر في التاريخ الاقتصادي للعالم هو هذه الثورة الصناعية التي حققت معدلاً في النمو الاقتصادي يتجاوز عشرة أمثال ما كان عليه هذا النمو قبلها لما لا يقل عن ٣٪ في العام، منذ القرن الثامن عشر، وذلك في انجلترا وللبلدان الأخرى التي تحققت فيها أبعاد وآثار إيجابية لهذه الثورة الصناعية بعدها وبمقادير مختلفة.

❖ رغم النمو الهائل في الاقتصاد العالمي في القرنين الماضيين فإن الناس في بلدان كثيرة أسوأ حالا مما كان عليه آباؤهم في قرون مضت، بما يدحض فكرة الانسياب والتساقط «Trickle Down» التلقائي الشامل لآثار النمو المتحقق في بلدان الغنى والتقدم إلى بلدان الفقر والتخلف الاقتصادي.

❖ يمكن تفسير الزيادة المتحققة في النمو الاقتصادي، وبشكل قاطع من وجهة نظر المؤلف، من خلال ما أطلق عليه اكتشاف «المعرفة النافعة» وتوظيفها بكفاءة في العملية الاقتصادية المحققة للتقدم.

وفي الكتاب نقد شديد لنظريات النمو الاقتصادي لعجزها عن تفسير هذا الاستقرار لمستوى معيشة متدن لفترة طويلة من الزمن اقتربت من آلاف السنين، بما جعل الإنجليز على سبيل المثال في منتصف القرن الثامن عشر يتطلعون إلى مجرد محاكاة نمط معيشة أهل روما من الناحية المادية في القرن الأول قبل الميلاد، وينظرون إليه كنموذج يحتذى رغم ما يقرب من ١٨٠٠ عام بين أهل روما وهي في أوجها، قبل انحدارها، وأهل لندن وهم في مرحلة بدايات الثورة الصناعية، قبل صعودها، وكل ما كان يرجوه أهل لندن في مبلغ علمهم وقتها محاكاة لنموذج أهل روما من معيشة على ما ظنوه فيها من ترف في العيش أصبح محط آمالهم... فإذا بأحفادهم ومن حاكوهم ثم من نافسوهم وتجاوزوهم بفضل تداعيات الثورة الصناعية، وما أحدثته بعدها، يبلغون مصاف في مستوى المعيشة المادي ما يعبر عنه هذا الشكل البياني.

ثم ينتقد كلارك نظريات النمو لعجزها عن تفسير هذا التباين الحاد في النمو بعد الثورة الصناعية عما كان قبلها حيث عاش الناس في ظل معدلات نمو متدنية، انخفضت في أحوال كثيرة عن معدل نمو السكان بما أوقع الناس فيما يعرف «بفخ مالثوس» نسبة إلى توماس روبرت مالثوس، صاحب الكتاب الشهير عن السكان الصادر في عام ١٧٩٨، وهذا هو فخ الفقر الذي يحدث عندما ينمو السكان بمعدل سنوي يزيد عما ينتجونه من سلع وخدمات بما يؤدي إلى تراجع مستوى المعيشة ثم الفقر بعدم القدرة على تلبية الاحتياجات الأساسية.

ويمكن اعتبار أن كتاب كلارك قد ساند وجهة نظر مالثوس في تفسير أوضاع المعيشة للناس حتى عام ١٨٠٠، وأن الخلاص من فخ الفقر هو توظيف المعارف النافعة في تحقيق النمو الاقتصادي والتقدم وهو ما لم يدركه مالثوس لأنه لم يشهد آثار الثورة الصناعية التي حققت هذا الانفلات من فخ الفقر، ولا يرى كلارك في الوقت ذاته وفقاً للمنهج الذي اتبعه من منظور التحليل التاريخي الاقتصادي أن نظريات النمو الاقتصادي المعروفة بمدارسها الثلاث: مدرسة العوامل الخارجية والعوامل المؤسسية، ومدرسة نقاط التوازن المتعددة عبر الزمن، ومدرسة النمو الداخلي.

لم تعط هذه المدارس تفسيراً مقنعاً لأوضاع معيشة الناس قبل الثورة الصناعية أو بعدها، من وجهة نظر كلارك الذي يعول على المعرفة واكتشافها وتطويرها وتوظيفها بمهارة وكفاءة لكي يتحقق النمو والتقدم، وهو ما قد تكون قد اقتربت منه مدرسة النمو الداخلي خاصة فيما يتعلق بموضوع التعلم وأثره على النمو، ولكنها تضيف إليه عناصر أخرى تعتمد على إسهامات المدرستين الأخريين.

ولكن يذكرنا كلارك في أكثر من موضع في كتابه بأن وجهة نظره في تحقيق الطفرات في النمو الاقتصادي على شاكلة ما حدث إبان الثورة الصناعية وما بعدها على هذا النحو قد تطلب بيئة مواتية تحققت لإنجلترا ولم تتحقق لسواها في هذا الوقت لكي تنفلت من فخ الفقر وتودع اقتصادا يعتمد على الإقطاع الزراعي، تنعم به القلة وتعيش الأغلبية فيه على ما قد يمنح لها طوعا أو كرها..

هذه البيئة التي ساندت النهضة والثورة الصناعية تمتعت باستقرار وانعزال عن الفوضى التي كانت تموج بها بلدان أخرى في أوروبا، حيث سادت في انجلترا قيم لطبقة متوسطة أخذت في التعلم، والسعي إلى تطبيق قيم متوازنة للعمل، واحترام حرية الفكر، والدأب الشديد والإنتاجية العالية فيما تفعل، كما تولدت لهذه الطبقة رغبة عالية في الادخار، ليس تحوطاً فقط ضد تقلبات الزمن بل ثقة في عائد الادخار واستثماراً في المستقبل، وهذا ما أكد عليه بول جونسون في كتابه عن تاريخ الإنجليز.. من أن الانعزال عن الاضطرابات التي سادت أوروبا هو أهم الخيوط المميزة للتاريخ الانجليزي، وهذا الانعزال لم يكن مانعاً من التواصل والتعامل والتعاون مع الآخرين، ولكنه كان مانعاً من انتقال عدوى الفوضى التي سادت في بعض البلدان الأخرى التي عزلتها عن هذه الجزيرة بحار مانعة من الولوج إليها بيسر، وسياجات حاميه تكونت من ثقافة لطبقة وسطى ساعية إلى التقدم.

وهو ما يؤكد عليه كلارك أيضاً في تفسيره لتحقق النمو والتقدم والآثار الإيجابية للثورة الصناعية والقدرات على توظيف المعارف النافعة بمهارة في العملية الاقتصادية في بلدان أخرى.. من ضرورة وجود هذه البيئة المواتية المساندة للنمو والتطور والإبداع.. وهو ما تحقق لبلدان أخذت تنتشل من فخ الفقر شعوبها وبفضل نمو متواصل مطرد لم يقل عن ٧٪ لمدة عشرين عاماً متواصلة.

فالنمو المتسارع للصين منذ عام ١٩٨٠ حقق لها القدرة على انتشال ٤٠٠ مليون من مواطنيها إلى ما فوق خط الفقر.. وإذا ما رجعنا إلى حالة الصين نفسها إلى عام ١٩٦٠ نجد أن النمو الاقتصادي فيها بمعدل ٧.١٣٪ سنوياً من هذا التاريخ قد حقق لها زيادة في متوسط الدخل في عام ٢٠٠٥ بأربعة عشر مثلاً لما كان عليه دخلها في عام ١٩٦٠.. وقد حققت كوريا الجنوبية زيادة في متوسط دخول مواطنيها بغت عشرة أمثال في أربعين سنة، وحققت سنغافورة زيادة مماثلة في خمس وثلاثين سنة.. وهناك أمثلة أخرى مماثلة كاليابان وماليزيا وتايلاند، أو أمثلة أقل إنجازاً كالبرازيل.. لكن كل خبرات الدول المشار إليها قد اشتركت في تأكيد أن النمو الاقتصادي المطرد هو أكثر الأدوات كفاءة في تخفيض معدلات الفقر وتحقيق مستوى معيشة أفضل للفقراء وتوفير خدمات تعليمية وصحية أفضل لهم.

ولكن النمو الاقتصادي وحده، وإن كان مطرداً، ليس إكسيراً ناجعاً.. وهو ما يذكرنا كلارك به في حديثه عن البيئة المواتية الصالحة والدافعة للنمو.. فغنى الأمم ونجاحها في مكافحة الفقر وتحقيقها للتقدم مرهون بإرساء العدالة بين الناس.. وفي المضمار الاقتصادي لا تتحقق هذه

كتاب الزاوية

ابن العماد الأقفهسي

فضل النيل

وقد وردت فيه آيات وأحاديث.

أما الآيات: فمنها قوله تعالى: «وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى» (سورة محمد من الآية ١٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سيحان، وجيحان/، والفرات، والنيل، «كل» من أنهار الجنة».

قال البغوي في تفسير هذه الأنهار الأربعة: تخرج من نهر الكوثر. قال: قال كعب الأحبار: نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة، ونهر الفرات نهر لبنهم، ونهر مصر نهر خمرهم، ونهر سيحان نهر عسلهم.

ونقل ابن زولاق في «تاريخ مصر» عن كعب الأحبار: أن نهر مصر نهر العسل في الجنة، والفرات نهر الخمر، وسيحان نهر الماء، وجيحان نهر اللبن.

وفي حديث الإسراء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لما انتهيت إلى سدرة المنتهى فرأيت أربعة أنهار (يخرج) من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان، «فقلت: يا جبريل ما هذه الأنهار؟. قال: أما النهران الباطنان فنهران في الجنة. وأما الظاهران فالنيل والفرات».

وقال ابن زولاق في تاريخ مصر: إن النيل يجري من تحت سدرة المنتهى، وإنه لو تُقُفِّيَ آثاره لوجد في أول جريانه أوراق الجنة. قال: ولذلك ندب إلى أكل البلطي من السمك، لأنه يتتبع أوراق الجنة فيرعاها. ويشهد لصحة «ما ذكره» ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «عليكم بالحيزوم فإنه يرعى من حشيش الجنة».

في النمو والتقدم والعدالة بين الناس



العدالة إلا بتكافؤ الفرص للناس كافة دون تمييز.. تكافؤ في فرص التعلم والتدريب والرعاية الصحية، ونصيب عادل من البنية الاساسية المعينة لهم على الانتقال والحركة سعياً وراء الرزق.. تكافؤ في فرص الحصول على الموارد الممكنة لهم في المنافسة من تمويل لإنشاء المشروعات والمشاركة فيها ملكية لها أو العمل فيها وتكافؤ في فرص الحصول على أراض ينشئون عليها مشروعاتهم.

ثم إذا دخلوا الأسواق بمنتجاتهم وخدماتهم تتحقق لهم عدالة المنافسة في أسواق تحكمها قواعد الكفاءة وتضبطها معايير رقابية حصيفة.. صارمة في تطبيق القانون دون تمييز.. مرنة في التطور، ملاحقة للمستحدثات، ولما يستجد في الأنشطة الاقتصادية بفضل إبداع الناس وتجديدهم.

عندئذ يمكن الاطمئنان الى أن الدخول المتحققة في قطاعات وأقاليم النمو ستولد دخولاً جديدة متدفقة من خلال الطلب على المنتجات وزيادة الطلب على العمالة والتشغيل ومن ثم زيادة الدخول، وفقاً للآليات الراسخة لأثر مضاعف الاستثمار والطلب... وهذا يأخذ وقته ومضماره ويتحرك بفاعلية كلما زادت مرونة الاقتصاد ودرجة استجابته من خلال أنشطة إنتاجية، ومدى اعتماده على مكونات محلية الإنتاج.

لاحت على خاطري صورة هذه الطفلة، صاحبة الجائزة، وأنا أطالع ما جاء في هذا الكتاب من مسيرة النمو ومكافحة الفقر والشروط المرصودة فيه لمتطلبات التقدم[٢] ... إن هذه الطفلة ذات الاستعداد الفطري والذهني للانطلاق والتعلم والتسابق والمنافسة وإثبات الذات، كحال أبناء وبنات عمرها[٣] من المصريين، يجب أن تحصل على فرصة متكافئة ومنافسة عادلة ليس فقط في مسابقة رمضانية ولكن في مسابقة الحياة.. إن هذه الطفلة ومثيلاتها كثيرات أراهن تواقات للمثابرة والاجتهاد، تعلما، ثم مشاركة في سوق العمل، ثم انطلاقاً في قيادة المشروعات. إنها وأقرانها وقريناتها، لا ينتظرون جميعاً تساقط ثمار النمو من أهل الغنى.

ولكن هذه الطفلة وأقرانها لا يحتاجون إلا تكافؤاً في الفرص، في التعلم والتدريب والرعاية الصحية، ونصيباً من الخدمات العامة يعين على الحراك الاجتماعي الإيجابي، وهي قبل كل ذلك من مبادئ تحقيق العدالة بين الناس التي لا تتقدم الامم إلا بها.

هوامش:

١ - تترجم أيضاً بمعنى صدقات أو تبرعات.

٢ - يذكرنا المفكر المصري الكبير الدكتور/ زكي نجيب محمود في كتابه حصاد السنين أن فكرة التقدم محتوية على وجوب التغيير مع متغيرات الحضارات المتعاقبة والتطور الذي ينقل صورة الحياة نحو ما هو أعلى، ومعنى ذلك وجوب الاهتمام بالمصير. ولا ينفي هذا الاهتمام أن نجيء قوائمه مستندة على تراثنا الذي تركه لنا السلف، على ألا يكون في حياتنا الحاضرة بمثابة النهاية التي نقف عندها، بل يكون بين أيدينا نقطة ابتداء نجاوزها على مستلزمات حاضر حي ومستقبل مأمون.

٣ - نقلاً عن الموقع الرسمي لمحافظة الاسكندرية على شبكة المعلومات الدولية أعلن وكيل وزارة التربية والتعليم بمحافظة الإسكندرية يوم الأحد الثاني من ديسمبر ٢٠٠٧، أن ثلاثة تلاميذ من أبناء المحافظة حصدوا المراكز الأولى في مسابقة أذكى أذكياء العالم الرابعة عشرة في مجال الحسابات العقلية والتي شارك فيها ٢٧٠٠ طالب وطالبة من ٣٥ دولة. وقال إن المسابقة أقيمت في ماليزيا ونظمتها هيئة «يو سي ماس» لافتا إلى أن المسابقة تعتمد على قياس قدرة الطالب في الإجابة على ١٠٠ مسألة حسابية في زمن اقصاه ٨ دقائق دون استخدام الآلة الحاسبة. وأضاف أن الطالبة «سارة يحيى حسن» من مدرسة «نبوغ الابتدائية» حصلت على المركز الأول تحت سن ٧ سنوات، كما حصلت الطالبة «ريناد صبري القاضي» من مدرسة «السيكرد هارت» على المركز الأول والطالب «تقي أيمن رشاد» على المركز الثاني في مسابقات تحت سن ٩ سنوات. ويذكر الخبر أن مصر تعد الدولة الأولى التي تحصل على أكثر من مركز متقدم على مدار تاريخ البطولة».

الشريعة حاضنة الحقوق

خالد أبو الفضل

لم يكن أبداً ثمة تعارض بين الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان. وأنا أحترم كل واحد منهما بدافع ووازع من الآخر. وأرى أن كل ما أتى به أي منهما من مبادئ كالحسن أو الجمال أو المعروف والتسامح أو المحافظة على كرامة الإنسان لمجرد كونه إنساناً بغض النظر عن لونه أو جنسه أو معتقده، وتحريره من العبودية لغيره من البشر. هو بالتحديد ما أتى به الآخر، بمعنى أنه طالما كان كل منهما يستهدف تحقيق نفس الغايات: فإنهما يصبحان بالقطع كوجهي العملة الواحدة.

في الشريعة فإن الله لن يستفيد شيئا من طاعة الإنسان، والقصد من هذه الطاعة في نظرها هو تحقيق الخير للإنسان، وحقوق الإنسان إذا ما خدمت مصالح خاصة تسلطية ضلت الطريق وأصبحت أداة لاستغلال وإذلال الشعوب، بحيث يمكن القول إن القصد منها كذلك هو تحقيق الخير للإنسان كالشريعة سواء بسواء. وهي نظرة غير مقبولة من البعض، ولكن من درس مناهج الشريعة العقلانية والأخلاقية، وكذا درس أسس حقوق الإنسان العقلانية والأخلاقية أدرك صحة ما أقول به على وجه اليقين.

لا أستطيع أن أنكر أن هناك من جعلوا الشريعة نقيض كل شيء تمثله حقوق الإنسان، فأنكروا القبح والحسن كمصدر عقلاني ومنهاج أساسي في تحديد نطاق الشريعة وأهدافها. بل أنكروا الأسس الأخلاقية للشريعة باعتبارها هدفا مقصودا لذاته، وجعلوا النص هو الهدف بغض النظر عن نتائجه وآثره على الاعتبارات الإنسانية مع انفرادهم بتفسيره وفق فهمهم له. بل تمادى بعض هؤلاء فجعل الشريعة عبارة عن هوية قبلية تناقض كل ما هو غربي أياً كان. ونسي هؤلاء - مثلاً - أن أول أوقاف في العالم ظهرت أساساً في العالم الإسلامي وكانت للعناية بالأيتام والأرامل والنساء الهاربات من وضع استبدادي، بل إن بعضها أوقف على رعاية القطط والكلاب الضالة. لقد وجد نظام الوقف أولا في ظل الحضارة الإسلامية بوازع مباشر من الشريعة وأهدافها الأخلاقية وليس تطبيقاً لنص ما. ونظر هذا النظر إلى علماء كابن رشد وابن سينا وابن طفيل وابن ماجه وابن عقيل وكأنهم خارجون على الشريعة في حين أننا نعلم يقيناً أن كل مفكر ممن ذكرت لعب دوراً أساسيا ومحورياً في التأثير على فكر توماس كوينس وجروتسيس وفوكن دور وسواريز وروسو ولوك.

أيها الحضور الكريم: يعلم المتخصصون منكم أن من ذكرت من مفكري العرب هم الآباء الفعليون لفكر حقوق الإنسان ولمبادئ حقوق الإنسان، ولولاهم لما عرف الغرب فكرة حقوق الإنسان أصلاً. ولكن مع السلفية الإسلامية التي طردت أمثال ابن طفيل وابن ماجه من الشريعة الإسلامية. يقابل هؤلاء السلفيين مباشرة متطرفون غربيون ممن تمسكوا بنظرية صراع الحضارات. فأنكروا فضل المفكرين المسلمين على الفكر الغربي وعلى المفكرين الغربيين أمثال بروتس وسواريز وغيرهما ممن جاءت كتاباتهم شاهدة على هذا التأثير. ولهذا تصوروا خطأ وظلماً، أن حقوق الإنسان هي اختراع غربي بحت، أتى إليه المسلمون وكأنهم يدعون إلى فتات المائدة الإنسانية، رغم أنه لولا إلهام الشريعة الإسلامية لمفكري الإسلام العظام كابن رشد وابن سينا وابن طفيل وابن ماجه وابن عقيل، لما اهتدى المفكرون الغربيون لنظرية حقوق الإنسان ممن تأثروا بأفكار هؤلاء العلماء المسلمين.

وبالمناسبة فإنه غير صحيح ما يتصوره البعض من أن الحضارة الإسلامية نقلت عن الفكر الإغريقي بغير إضافة أو استيعاب، وهو تصور متطرف وغير علمي. فالعلماء المسلمون ترجموا عن الإغريق ونقلوا عنهم، ولكنهم كانوا في موقف المستوعب الذي أضاف إليه الكثير، بحيث يمكن القول بأن كلا من الحضارتين الغربية والإسلامية تشتركان في سيمفونية متكاملة كونت مبادئ وحقوق الإنسان، ولا عجب في ذلك. لأن الفكر الإنساني عبارة عن غراس يؤازر بعضه بعضاً. في منظومة يكمل بعضها البعض، ويضيف بعضها إلى الآخر، ومن الصعب وضع حدود فاصلة لها. فلم ولن تجد مظهرا من مظاهر الحضارة إلا وجدت للحضارة الإسلامية مساهمة في جذوره، التي كانت جزءاً لا يتجزأ من الواقع الإنساني العام، ومن يدع أن الغرب هو الغرب والشرق هو الشرق ولا يلتقيان. لا يعرف شيئا عن تاريخ الحركات الاجتماعية والحركة الفكرية للبشر.

أيها الحضور الكريم: ليس هدفي من هذه الكلمة أن أثبت فضل الإسلام، وقدر مساهمته في تقرير حقوق الإنسان، ففضل الإسلام أمر مقرر لدى العلماء والمفكرين غير المنحازين وكتب في شأنه الكثيرون من علماء الغرب المنصفين، ولكن هدفي هو أن أقرر أن من يخلقون صوراً متطرفة للواقع الإنساني سواء في الشرق أو الغرب، وسواء من المسلمين أو غير المسلمين يمثلون خطراً على كل المعايير الخلقية والجمالية والحضارية للإنسان، ولتسمحوا لي أن أقدم مثلا على هذا الفكر المتطرف الذي يقدمه أشخاص من أمثال برنارد لويس وصمويل هنتنجتون ممن يرون، وفي صراحة وبدون مواربة، أن كل ما هو خير وجميل يأتي من الحضارة الغربية، وأن كل ما هو سيئ وقبيح يأتي من الحضارة الإسلامية وغيرهما يوجد آخرون ومن هؤلاء هذا الذي نشر نصاً مفزعاً أذيع - للأسف - من إحدى محطات الإذاعة الأمريكية، دعا فيه إلى ضرب العالم الإسلامي بالقنابل الذرية، وتهجير المسلمين من الغرب والحيلولة دون هجرة أي منهم إليه مجدداً. بل وصل إلى حد المطالبة بتنصير كل مسلم يقيم في الغرب كرهاً عنه، ولعلكم تظنون أنني التقطت نصاً تافها لشخص تافه، ولكني أقول لكم وللأسف الشديد إن هذا النص يحظى برقم (٣) في أمريكا من حيث إقبال الجمهور على البرنامج الذي يذيعه، بل استضاف هذا البرنامج نائب رئيس الجمهورية الأمريكيه ديك تشيني ونيتنياهو وكذا عمدة مدينة نيويورك. بل وصل الحال بديك تشيني إلى شكر مايكل سافج، مقدم هذا البرنامج، على أفكاره المفيدة والملهمة كما جاء في ثناء ديك تشيني عليه.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد. بل إن مايكل سافج، هذا يبث برنامجاً يومياً ينشر الكراهية للمسلمين: ووصل به الحال إلى حد وصف القرآن بأنه كتاب شيطاني مملوء برسالة واحدة وهي رسالة الكراهية. وأن المسلمين غير قادرين على استيعاب حقوق الإنسان بسبب هذا القرآن، لذا ففي رأيه أنه لا يجب أن يعامل المسلمون وفق معايير حقوق الإنسان، وإنما يجب أن يقتلوا تقتيلاً. وغير مايكل سافج كثيرون يرون أن الدولة الممثلة للحضارة في الشرق الأوسط هي إسرائيل، وأنها هي التي تمثل الحضارة والقيم المحافظة على حقوق الإنسان في مواجهة قوى الظلام والشر.

واسمحوا لي أيها السيدات والسادة أن أسألكم كيف يمكن لشخص يؤمن بأفكار كأفكار مايكل سافج أن يتهم الشريعة بأنها لا أخلاقية في حين أنه هو نفسه يعد مثالا حيًا لانعدام الأخلاق والقيم الإنسانية؟!

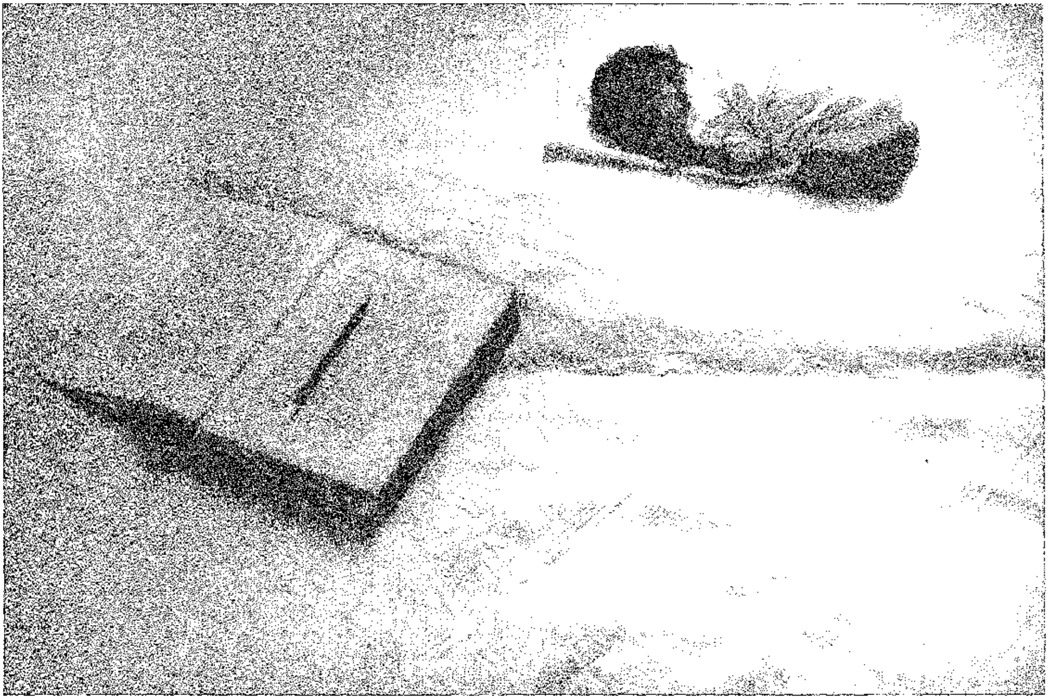
أيها السيدات والسادة: كنت أتمنى لو أن مايكل سافج كان مثالا وحيدا وفريدا في آرائه القبيحة المتطرفة، ولكن للأسف أنه يمثل تياراً يصدر في أمريكا وحدها كتاباً أو أكثر كل أسبوع يتهال بالشتائم والسباب على الإسلام والقرآن ورسول الإسلام ولو نظرتم إلى قائمة الكتب الأكثر مبيعا، وهي قائمة النيويورك تايمز، ستجدون أن أكثر الكتب مبيعا هي الكتب التي يؤلفها أشخاص يزعمون أنهم كانوا مسلمين ثم ارتدوا عن الإسلام بعدما تبينوا حقيقته السوداء البشعة.

على أن ثمة التباسا يجدر التنبيه إليه في هذا المقام، وهو أنه يوجد خلط متعمد بين احترام الدولة للحقوق المدنية لمواطنيها، وبين انتهاكها لحقوق الإنسان ويستغل هذا الخلط في تمرير الثانية تحت غطاء من الأولى. فاحترام الدولة للحقوق المدنية لمواطنيها لا يعني البتة أنها دولة تحترم حقوق الإنسان، أو حتى أنها دولة ديمقراطية، لأنه لا يمكن أن يخرج من تحت عباءة القبح أي جمال.

فدولة مثل جنوب أفريقيا قبل أن تتولى الأغلبية مقاليد الحكم فيها، كانت تحترم وبكل دقة الحقوق المدنية لمواطنيها البيض، ولكن كانت على رأس القائمة في انتهاك حقوق الإنسان. ونفس الشيء بالنسبة لإسرائيل التي تحترم بصورة دقيقة الحقوق المدنية لمواطنيها. ولكنها تمارس الانتهاك المستمر لحقوق الإنسان الفلسطيني وبصورة بشعة. وفي ظل التركيز الإعلامي المتحيز على احترام إسرائيل للحقوق المدنية لمواطنيها. يجري التعتيم على انتهاكها المنهجي لحقوق غير مواطنيها من الفلسطينيين الذين يلاقون على يديها أبشع أنواع الانتهاكات لحقوق الإنسان.

أيها السيدات والسادة، الجمال لا يتجزأ، والقبح لا يتجزأ. وكل منهما يأتي من نبع واحد. وفي النهاية إما أن نكون بصدد حضارة إنسانية، أو لا إنسانية.

محاضرة ألقاها الكاتب في جامعة أوسلو في ١٣ نوفمبر الماضي بمناسبة الاحتفال بفوزه بجائزة حقوق الإنسان التي تمنحها الجامعة



إنــه التعليـــم

أنطوان زحلان

> بلغ العدد الاجمالي للعرب الذين تسربوا إلى الدول الأعضاء لدى الـ (OECD) في عام ١٩٩٩ نحو ٩٦٧,٥٤٨ بما يمثل زيادة عن عدد الهنود الذين تسربوا إلى تلك الدول بنحو ٣٠٠,٠٠٠

تعد كل من المعرفة والعلم بمثابة أنشطة عامة لسائر المجتمعات في حين أن كل مجتمع لديه مشكلاته وتحدياته الخاصة. وتتمثل أحد أبرز ملامح المعرفة في الحاجة إلى رأس المال البشري وذلك لأغراض إنتاج وتطبيق تلك المعرفة" بينما تمثل الأنظمة القومية للتعليم العالي والأبحاث والتنمية أكثر الأدوات فاعلية لخلق وتطبيق المعرفة. فعلى الرغم من إمكانية الاحتفاظ بالمعرفة لآجال طويلة سواء في شكل أوراق مكتوبة أو بطريقة إلكترونية؛ إلا أن تلك المعرفة ستكون في هذه الحالة غير ذات قيمة ما لم تقم الكوادر التي تمتلك العلم والمهارات بالاطلاع عليها بهدف تشكيلها وتطويعها.

كذلك لن تكون المعرفة ذات فعالية ما لم يكن الأشخاص الذين يسعون إلى استخدامها أشخاصا يتسم سلوكهم بالتنظيم وتدعمهم هيئات وسياسات ملائمة. لذا، وبناء على ما سبق، يمكن إرجاع الفجوة المعرفية بين الدول إلى العديد من الأسباب، منها:

- قصور في رأس المال البشري.
- الاطلاع المحدود على المعرفة المحفوظة.
- غياب أو قصور المنظمات التي يتحتم وجودها لتوظيف رأس المال البشري.
- غياب السياسات الاقتصادية والعلمية الفعالة التي يمكن من خلالها اكتساب وتراكم وتطبيق معرفة بعينها.
- غياب المنظمات و/أو الهيئات المدعمة التي تقوم بتقديم الخدمات القانونية والمالية المطلوبة.

يمكن تقسيم الدراسة التي نحن بصددها إلى قسمين:

القسم الأول: يقوم بعرض البيانات والتحليلات التي يمكن الوقوف من خلالها على طبيعة ومدى الفجوة المعرفية لدى العرب.

القسم الثاني: يتناول الإجراءات التي - إذا تم تبنيها - سوف تمكن الدول العربية، منفردة أو مجتمعة، من العمل على تخطي الأزمات التنموية من خلال التوظيف الفعال لما لديها من رأس مال بشري وموارد بشرية. إن المشكلة الرئيسية التي تنطوي عليها الصلة بين التعليم العالي والأبحاث والتنمية من جهة وتطبيق المعرفة من جهة أخرى تتمثل في انعدام التأثير المباشر للجانب الأول على الجانب الثاني، حيث ينعكس التأثير الذي تمارسه نظم التعليم العالي على المجتمع واقتصادياته من خلال ما تنتجه تلك النظم من أبحاث وما يتم توظيفه من خريجي تلك النظم. ولكن ذلك

ترجمة: دعاء شندي

الصورة من مجموعة Story of Z للفنان فؤاد الخوري

عندما كنت طالبا بالجامعة في عام ١٩٤٩ كانت هناك عشر جامعات فقط بالعالم العربي وحوالي ٣٠،٠٠٠ من الخريجين، ثم تزايد عدد الجامعات إلى أن وصل إلى ما يزيد على ٣٠٠ جامعة تخرج فيها حوالي ١٥،٠٠٠،٠٠٠ طالب

التأثير يتضاءل بشكل كبير بسبب قلة الأبحاث وارتفاع معدل تسرب المتعلمين والمثقفين إلى خارج الدول العربية. على الرغم من ذلك، يمكن تغيير هذا الوضع إلى الأفضل.

القسم الأول: طبيعة الفجوة المعرفية لدى العرب:

المعرفة هي عملية معقدة بطبيعتها. هنالك عدة مؤشرات محددة لوضع الدول تشمل: رأس المال البشري، التمويل المقدم للأبحاث والتنمية، عدد الإصدارات السنوية التي يتم نشرها في الصحف الدولية المتخصصة، عدد العاملين في مجال العلوم والهندسة، درجة كفاءة النظام التعليمي، عدد براءات الاختراع التي يتم تسجيلها سنويا، الصادرات من المنتجات ذات التكنولوجيا المتطورة، وأيضا معدل التغير في تلك المؤشرات. وسوف تتناول هذه الدراسة بالشرح المؤشرات الأربع الأولى من المؤشرات (اليونسكو) في عام ٢٠٠٥ وصفا للموقف العلمي لدى العالم العربي [3] وسوف نورد في هذه الدراسة مصادر معلوماتية إضافية لتمكين القارئ من إجراء المقارنات والمقابلات بين أنماط الأداء لدى الدول العربية.

موقف رأس المال البشري العربي:

خرجت الدول العربية من تحت وطأة الاستعمار بمستوى زهيد من رأس المال البشري، حيث قامت كافة الدول العربية بعد الحصول على استقلالها بالتوسع الجذري في أنظمتها التعليمية. وأتذكر عندما كنت طالبا بالجامعة في عام ١٩٤٩ أنه كان هناك عشر جامعات فقط بالعالم العربي وحوالي ٣٠،٠٠٠ من الخريجين، ثم تزايد عدد الجامعات إلى أن وصل إلى ما يزيد على ٣٠٠ جامعة تخرج فيها الجانب. ويقوم حوالي ٨٢٪ من هؤلاء الطلاب العرب باستكمال دراساتهم العليا في الدول الأعضاء لدى منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD)، حيث تعد الجامعات الأوروبية أكثر الجامعات جذبا للطلاب العرب.

ويمكنني في ضوء البيانات الإحصائية غير المكتملة المتوفرة من جانب اليونسكو تقدير عدد الدارسين العرب الذين يحصلون على شهادات الدكتوراه من جامعات بالخارج سنويا بنحو ١٢،٠٠٠ دارس وكذلك القول بأن ٥٨٪ أو أكثر من هؤلاء الدارسين يتسربون إلى خارج الدول العربية التي ينتمون إليها، أي بما يشكل خسارة للعالم العربي تتمثل في فقدان حوالي عشرة آلاف من الدارسين الحاصلين على شهادات الدكتوراه سنويا. فهنالك عدد من العرب الحاصلين على شهادات الدكتوراه يتراوح بين ٦٠،٠٠٠ و ٧٠،٠٠٠ بين الدول النامية أو إلى نمو الدول العربية بشكل بطيء، ولكن سيتضح تفصيليا فيما بعد أن السياسات العلمية والاقتصادية القومية لدى الدول العربية هي ما يؤدي إلى حرمان تلك الدول من تعظيم الاستفادة من رأس المال البشري لديها.

* تم تجميع بيانات هذا الجدول من الإحصائيات المعدة من جانب اليونسكو وغير ذلك من مصادر، حيث يشتمل العمود الثاني من الجدول على البيانات المتوفرة لدى اليونسكو في حين يمثل العمود الثالث النسخة المنقحة من تلك البيانات بعد تصحيحها استنادا إلى الإحصائيات المعدة من جانب الاتحاد الأوروبي.

بلغ العدد الإجمالي للعرب الذين تسربوا إلى الدول الأعضاء لدى الـ (OECD) في عام ١٩٩٩ نحو ٩٤٨، ٩٦٧ بما يمثل زيادة عن عدد الهنود الذين

يا عرب!!*

سالفة الذكر.

من الصعب تحديد حجم تلك المؤشرات المصاحبة لمستويات محددة للتنمية ولكن يوجد إجماع عالمي على أن هناك بعض الدول قد أحرزت انطلاقة فيما يتعلق بالنمو الاقتصادي. فمن المتفق عليه مثلا أن كلا من الصين والهند تمران بمرحلة الانطلاق تلك، حيث لم يعد العالم يتحدث اليوم عن النمو الاقتصادي غير المكتمل لدى الصين والهند بل صار مترقبا لانضمام كلتا الدولتين إلى مجموعة الدول الصناعية. لذلك أصبحت هاتان الدولتان بمثابة مقياس هام تقارن الدول الأخرى به.

قامت منظمة الدول الإسلامية بطرح دراسة بشأن الأنشطة العلمية في كافة البلدان الإسلامية التي يشكل سكانها ٢٥٪ من إجمالي سكان العالم، وأقرت تلك المنظمة بأن إسهام الدول الإسلامية في النتاج البحثي على مستوى العالم خلال العقد الماضي لا يتعدى نسبة ٢.٥٪ [2] كما أورد التقرير العلمي الصادر عن منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة حوالي ١٥،٠٠٠،٠٠٠ طالب. ويتضح من الجدول رقم (١) أن معدل القيد بالجامعات العربية - محسوبا على أساس كل مليون فرد - يفوق معدل القيد بالجامعات لدى كل من الصين والهند (وذلك في عام ٢٠٠٥).

و لكن على الرغم من ذلك لا يزال العمل البحثي يمارس لدى الجامعات العربية في نطاق محدود، فتلك الجامعات مثقلة بالأعباء التعليمية بينما يعد تمويل الأبحاث بها (كما سأوضح فيما بعد) في حكم المنعدم، ونتيجة لذلك ظل العرب دائما يعتمدون على السفر للخارج لاستكمال دراساتهم العليا. لقد بلغ إجمالي عدد العرب المقيدين بجامعات خارج الوطن العربي نحو (١٢٠،٦٠٢) دارس وذلك طبقا لآخر إحصائيات اليونسكو في هذا الصدد في عام ١٩٩٩ مقارنة بـ (١٠٦،٠٣٦) دارس من الصين و(٥٢،٩٣٢) دارس من الهند مقيدين بتلك الجامعات (انظر الجدول رقم ١)، ومن هنا يتضح أن عدد العرب الذين يقومون بعمل دراسات أجنبية يفوق عدد الصينيين والهنديين في هذا عربي يعملون داخل العالم العربي مقارنة بـ ١٥٠،٠٠٠ من العرب الحاصلين على شهادات الدكتوراه ويعملون خارجه.

و من بين الحائزين لشهادات الدكتوراه في العالم العربي يقوم حوالي ١٠،٠٠٠ فقط بنشر واحدا أو أكثر من الأبحاث أو الدراسات سنويا بأحد الدوريات الدولية المتخصصة، بينما لا يوجد لدى الباقي من حائزي شهادات الدكتوراه فرصة لإجراء الأبحاث المنتجة وذلك نتيجة لبيئة العمل الجدبة والافتقار إلى التمويل الموجه نحو الأبحاث والتنمية.

تعد الصين والهند أكثر الدول التي تخطو خطى تنموية سريعة، حيث حلتا محل كوريا وتايوان اللتان أصبحتا الآن في مصاف الدول الأعضاء لدى الـ (OECD). من خلال الجدول رقم (١) يلاحظ أن الدول العربية لديها اهتمام بطلب العلم - سواء داخل العالم العربي أو خارجه - بدرجة أكبر من الصين والهند، وهذا يعني أن مقدار رأس المال البشري ليس هو العامل الذي أدى إلى احتلال الصين والهند لمركز الصدارة تسربوا إلى تلك الدول بنحو ٣٠٠،٠٠٠ ويقل عن عدد الصينيين الذين تسربوا إلى ذات الدول بمقدار ضئيل (الجدول رقم ٢).

* تم أخذ تلك البيانات من الجدول رقم (٢.II.A٢)، SOPEMI ٢٠٠٤ (التقرير السنوي عن مسارات الهجرة الدولية)، OECD، لعام ٢٠٠٤.

يمثل معدل تسرب العرب إلى الخارج -على أساس الفرد الواحد- أربعة أضعاف معدل تسرب الصينيين وخمسة أضعاف معدل تسرب الهنود إلى الخارج، ويصل عدد المهاجرين من الصينيين والهنود إلى ٣.٦ مليون فرد مقارنة بـ ٥.٤ مليون مهاجر عربي. بينما يقوم كل من العالم العربي والصين بتصدير أعداد متساوية من الكوادر فائقة المهارة إلا أن العالم العربي يفوق الصين والهند مجتمعتين من حيث المعدل الإجمالي للهجرة (بما يشمل الكوادر فائقة المهارة والكوادر متوسطة المهارة والكوادر التابعة).

يعمل المهنيون العرب بكفاءة كبيرة في الدول الأعضاء لدى الـ (OECD) وهذا ما يتضح



من خلال استمرار تسرب العرب إلى تلك الدول والمناصب المرموقة التي يشغلها العرب هناك. لا توجد هناك دراسات تتناول المقارنة بين أداء مختلف الجاليات العربية وغير العربية في تلك الدول. فعلى الرغم من وجود اختلافات جوهرية بين أداء تلك الجاليات إلا انه لا يمكن القول بأن أداء أي منها يفوق أداء الأخريات.

يعتمد استنباط النمو الاقتصادي من رأس المال البشري على الوسائل المستخدمة في أداء النشاط الاقتصادي. فالاستثمارات التي تتم من خلال عقود المشروعات المتكاملة (أو ما يعرف بـ «عقود تسليم مفتاح») التي تسهم بالقليل في عملية نقل التكنولوجيا إلى المنظمات القومية والإقليمية لا يتمخض عنها أي عمالة محلية إنما يترتب عليها معامل مضاعف منخفض. وإذا تمعنا في السلوك الذي تتبعه كل من الهند والصين وكوريا وغيرها سنجد أن تلك الدول تتبع سياسات يتم من خلالها توظيف كل نشاط باعتباره آلية لاكتساب وتراكم التكنولوجيا، لذلك استطاعت تلك الدول أن تواصل كافة استثماراتها وتديرها وتبتكر فيها وتطور من أدائها وتضاعفها.

لقد كان ذلك بمثابة السبب الرئيسي وراء معدلات النمو السريع التي سجلتها كل من الصين والهند، حيث أن امتلاك كلتا الدولتين للعلوم الضرورية والسياسات الاقتصادية قد أدى إلى تفعيل توظيف وتنمية المؤسسات القومية لديها بغرض اكتساب وتراكم وتطبيق وتطويع التكنولوجيا، هذا في حين أن الدول العربية لم تمتلك مثل تلك العلوم والسياسات[١].

من المتوقع دائما أن يتم تعويض التكلفة التي يتم تكبدها في إطار تعليم رأس المال البشري من خلال ما يقوم به الخريجون من إسهامات تجاه الاقتصاد القومي. لذا فإن القدرة على توظيف الخريجين بشكل فعال تحتل أهمية اقتصادية قصوى. وتنم ظاهرة تسرب المتعلمين والمثقفين عن الحقيقة القائلة بأنه بإمكان بعض الدول القيام بتعليم أبنائها ولكن دون القدرة على توظيفهم بشكل فعال، فهذه الدول لا تستطيع استخلاص المنافع الاقتصادية المرجوة من استثماراتها المبذولة في التعليم.

إن السياسات القومية الخاصة بعمليات الإنتاج والابتكار والاستثمار هي أحد العوامل المحددة لمدى إمكانية استنباط النمو الاقتصادي من رأس المال البشري. فالاستثمارات التي يتم تنفيذها من خلال عقود المشروعات المتكاملة (أو ما يعرف بـ «عقود تسليم مفتاح») والتي لا تتيح سوى مجال ضيق لتوظيف المؤسسات والعمالة القومية دائما ما ينتج عنها معامل مضاعف منخفض.

إلى جانب ذلك، يعد العالم العربي بمثابة مرتعا خصبا للاستثمارات التكنولوجية، حيث بلغ حجم الاستثمارات في قطاع البترول والغاز وكذلك في مجالات التشييد والبناء والنقل والتصنيع وتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، ما يزيد عن ٣٠٠٠ مليار دولار خلال الفترة من عام ١٩٨٠ حتى عام ٢٠٠٠. ولكن على الرغم من ذلك لم يقابل تلك الزيادة في حجم الاستثمارات ارتفاع في دخل الفرد، لذا ففي هذه الحالة قد يكون من شأن التوظيف الأكثر فعالية لرأس المال البشري الإتيان بنتائج أفضل. وبالتالي يتضح مما سبق أن المشكلة التي يواجهها العالم العربي ليست نقصا في رأس المال أو رأس المال البشري أو حتى في الأبحاث والتنمية، وإن حل تلك المشكلة التي يعانيها في هذا الصدد يكمن بما لا يدع مجالا للشك في توظيف رأس المال البشري بصورة أفضل[٢].

تمويل الأبحاث والتنمية:

إن السبيل الوحيد لامتلاك فريق من الباحثين على درجة عالية من الكفاءة (من بين الحاصلين على درجة الدكتوراه) ودعم استمرار هؤلاء الباحثين على تلك الدرجة من الكفاءة سيكون من خلال تمكينهم من إجراء الأبحاث وهذا ما يعني أن تمويل الأبحاث والتنمية هو أمر حاسم في هذا الصدد.

لقد قمت - من خلال الجدول رقم (٣) - بتلخيص بعض معلومات المقارنة الواردة في تقرير اليونسكو، حيث يتضح أن الدول العربية إلى جانب الدول الأقل نموا (وهي الدول الأكثر فقرا على مستوى العالم) تقوم بتخصيص الجزء الأصغر من الناتج القومي الإجمالي الخاص بها لدعم الأبحاث والتنمية. وتعد دول مجلس التعاون الخليجي من أقل الدول دعما للأبحاث والتنمية على مستوى العالم العربي من حيث نسبة ما تخصصه للأبحاث والتنمية من الناتج المحلي الإجمالي الخاص بها. كما تعتبر عملية تمويل الأبحاث هي أكثر المناحي التي يبرز فيها قصور الدول العربية بالمقارنة بكل من الصين والهند. حيث تقوم حكومتي الصين والهند بتوفير مخصصات مالية لدعم الأبحاث والتنمية أكبر بكثير من المخصصات التي توفرها أي من الحكومات العربية في هذا الصدد (انظر الجدول رقم ٣). وهذا ما يؤدي بدوره إلى تسرب المتعلمين والمثقفين إلى خارج الدول العربية التي سجلت معدلات لهذا التسرب أعلى بكثير من المعدلات المسجلة لدى كل من الصين والهند وذلك على أساس الفرد الواحد. ويمثل التمويل المقدم من حكومتي الصين والهند -على التوالي- لدعم الأبحاث والتنمية بهما نحو عشرة أمثال وثلاثة أمثال التمويل المقدم من حكومات الدول العربية لدعم الأبحاث والتنمية بها وذلك على أساس الفرد الواحد.

الجدول رقم (٣): مقارنة بين الدول فيما يتعلق بدعم الأبحاث والتنمية (خلال عام ٢٠٠٢) المتمثل في إجمالي المبالغ المنصرفة على الأبحاث والتنمية:

مقارنة النتاج البحثي:

إن من أهم الوسائل المتبعة لتقييم النشاط العلمي هو أن تعقد مقارنة بين أعداد الأبحاث التي يتم نشرها في الصحف الدولية المتخصصة من جانب مختلف الدول على أساس كل مليون فرد من سكان كل واحدة من تلك الدول (الجدول رقم ٤). لقد اتضح من خلال تلك المقارنات أن النتاج البحثي العربي قد ارتفع من ١١ بحثا تم نشرها في عام ١٩٨١ إلى ٣٣.٢ بحث تم نشرها في عام ٢٠٠٣ وذلك على أساس كل مليون فرد. أما كوريا فقد وصل النتاج البحثي الخاص بها في عام ١٩٨١ إلى ستة أبحاث فقط على أساس كل مليون فرد، وهو ما يساوي النتاج البحثي في العالم العربي لعام ١٩٨٥، في حين وصل النتاج البحثي لكوريا في عام ٢٠٠٣ إلى ثلاثة عشر أمثال نتاجها البحثي لعام ١٩٨١. وبالنسبة للهند، فقد ظل كم النتاج البحثي الخاص بها مستقرا بما يتراوح بين ١٧ و١٩ بحث تم نشره خلال الفترة من عام ١٩٨١ حتى عام ٢٠٠٣ وذلك على أساس كل مليون فرد. أما الصين، فلقد ارتفع رصيد النتاج البحثي لديها من بحث واحد إلى ٣٦ بحث في عام ٢٠٠٣، أي انه كان هناك شبه تعادل في رصيد النتاج البحثي لدى كل من الصين والعالم العربي بالنسبة لعام ٢٠٠٣. منذ عام ٢٠٠٣ قامت كل من الصين والهند بزيادة المخصصات الموجهة للبحث والتنمية بشكل كبير وكذلك بتعميق السياسات العلمية الخاصة بها لإسراع معدلات التنمية الاقتصادية.

هذا في حين أن كم النتاج البحثي والتنموي ورصيد رأس المال البشري لدى الدول العربية قد وصل في عام ٢٠٠٧ إلى ما وصلت إليه كل من الهند والصين في تلك الجوانب خلال عام ٢٠٠٣. فالصين تخطو خطوات سريعة مثلها في ذلك مثل كوريا التي سبقتها في هذا المضمار، ومما لاشك فيه أنها قد سبقت العالم العربي خلال السنوات الأربع الأخيرة.

التعاون الدولي بين الباحثين العرب:

أن التعقيد والشمولية التي تتسم بهما العملية المعرفية جعل إيجاد مبدأ التعاون بين الباحثين العرب أمرا لا مفر منه، ولهذا فلا بد من تهيئة الظروف الاجتماعية والسياسية بما يمهد لخلق هذا التعاون.

الجدول رقم (١): الدراسة بالخارج بالنسبة للدول العربية مقارنة بالصين والهند

			السكان	الدراسة خارج الوطن	الدراسة داخل الوطن	
الدولة	عام ١٩٩٩	عام ١٩٩٩ (منتج)	عام ١٩٩٧ (بالمليون)	لكل مليون فرد		لكل مليون فرد
الدول العربية	١١١ ٨٥٤	١٠٦ ٦٠٢	٢٥٣.٤	٤٧٦	٣.١٦٨.٤٤٥	١٢.٤٧٤
الصين	٩٥.٨٩٩	١٠٦.٠٣٦	١.٢٢٧.٠	٨٦	٧.٣٦٤.٠٠٠	٦.٠٠٢
الهند	٤٨ ٣٤٨	٥٢ ٩٣٢	٩٦٢.٠	٥٥	٩.٨٣٤.٠٠٠	١٠.٢٢٣



ويتحدد مدى التعاون بين الباحثين من خلال كم الأبحاث المشتركة التي يتم إنتاجها. يوضح الجدول رقم (٥) فيما يلي حدوث تعاون دولي بين الباحثين في كافة الدول العربية في عام ١٩٩٥، ولكن هناك عدد من الاختلافات الجوهرية بين الدول العربية فيما يتعلق بمستوى وقوالب هذا التعاون.

يتسم التعاون في مجالات العلم والتكنولوجيا بأهمية قصوى فيما يتعلق بجودة ونجاح المشروعات العلمية، فالتقدم العلمي يعتمد على الخبرات عالية المستوى والتي تعد في حد ذاتها بمثابة سلعة نادرة وصعبة المنال، ولذلك فمن هنا تأتي أهمية التعاون بين عدد صغير نسبيا من العلماء الذين يعملون في مجال بعينه. لقد دعمت العديد من الدراسات الحديثة التوجه نحو هيمنة فرق البحث على مجالات انتاج المعرفة[١] حيث تنتمي فرق البحث تلك إلى العديد من الجهات والمنظمات.

يأخذ التعاون الدولي بين العلماء وأخصائيي التكنولوجيا أشكالا عدة من أبرزها المناقشات والمبادلات التي تتم من خلال اللقاءات العلمية. ففي عام ١٩٩٥ على سبيل المثال تم عقد حوالي ١٨٠٠٠ لقاء علمي نشرت فعالياته على مستوى العالم، حيث توافرت للعلماء من خلال تلك اللقاءات فرص جيدة للنقاش وتبادل المعلومات.

ولكن يلاحظ أن العلماء المتخذين من الدول العربية مقارا لهم لم تكن لهم نسبة مشاركة مرضية في مثل تلك اللقاءات، حيث قاموا بتقديم ٢٠٠ ورقة بحث فقط على مدار ١٨.٠٠٠ لقاء علمي تم عقده على مستوى العالم في عام ١٩٩٥، وهذا ما يعني أن مستوى التواصل من جانب العلماء العرب مع المجتمع الدولي هو مستوى متضائل للغاية.

ومن الأشكال الأخرى التي يأخذها التعاون الدولي بين العلماء هو اشتراك العلماء من دولتين أو أكثر في عمل الأبحاث. لقد قمت بعمل تحليل مفصل للنتاج البحثي العربي اتضح من خلاله أن التعاون بين العلماء العرب هو عنصر شبه منعدم تقريبا على الرغم من وجود عدد من المنظمات العربية الإقليمية التي تهدف إلى توطيد أواصر هذا التعاون، ذلك لأن المنظمات العربية القومية والإقليمية لا توفر موارد جادة وحقيقية لدعم هذا التعاون.

هناك عدد كبير من المشاكل العلمية والتكنولوجية المشتركة بين الدول العربية لذا لا بد من إيجاد عوامل محفزة لخلق التعاون العلمي بين تلك الدول. فمعظم الوطن العربي مثلا يقع ضمن منطقة صحراوية جافة تندر فيها المياه مما يستلزم عمل الأبحاث حول استخدام المياه في الزراعة وكذلك حول إدارة الموارد المائية. هذا بالإضافة إلى أن العديد من الدول العربية هي منتجة للبترول والغاز مما يفرض تحديات تكنولوجية مشتركة تهيئ فرصا للتعاون العلمي وتبادل الخبرات في تلك الجوانب. علاوة على ما سبق فإن هناك عدد من المشكلات التي تجتمع عليها الدول العربية في مجالات الصحة وتطبيق القوانين والمعايير المختلفة وغير ذلك من المجالات.

قام العلماء في الجامعات لدى دول مجلس التعاون الخليجي بنشر ١٧٢٢ بحث في عام ١٩٩٠ بالإضافة الى ٢٧١٦ بحث في عام ١٩٩٥، حيث تم عمل ٢٥٪ من تلك الأبحاث بالاشتراك مع علماء ينتمون لجهات غير عربية في حين بلغ عدد ما تم عمله من تلك الأبحاث بالاشتراك مع دول مجلس التعاون الخليجي نحو ٧.٢٪ في عام ١٩٩٠ و٦٪ في عام ١٩٩٥[٧].

تحتل دول المغرب العربي أعلى نسب التعاون الدولي في مجال عمل الأبحاث في حين تعد نسبة التعاون الإقليمي لديها في هذا الصدد من أقل النسب. لقد طرأ بعض التغيرات على معدلات التعاون الدولي في مجال عمل الأبحاث لدى أربع من دول المغرب العربي فيما بين عامي ١٩٩٠ و١٩٩٥، حيث انخفض معدل التعاون الدولي لدى الجزائر من ٨٠٪ إلى ٦٩٪ من إجمالي عدد الأبحاث بينما ارتفع رصيد ليبيا من ٣١٪ إلى ٦٠٪ وكذلك رصيد المغرب من ٤٦٪ إلى ٧٤٪ وتونس من ٢٩٪ إلى ٦٤٪. وبذلك يكون متوسط معدلات التعاون الدولي في مجال عمل الأبحاث لدى دول المغرب العربي قد ارتفع من ٥٤٪ إلى ٦٤٪ خلال تلك الفترة. لقد قام العلماء في كل من الجزائر والمغرب وتونس بنشر عدد اجمالي من الأبحاث يصل إلى ١٣٦٤ بحث خلال عام ١٩٩٥ منها ٨٠٤ أبحاث تم عملها بالاشتراك مع علماء من خارج دولهم، ومما يثير الدهشة هنا هو أن ١١ بحث فقط من جملة الـ ٨٠٤ أبحاث سالفة الذكر هو ما اشترك في عمله علماء ينتمون لاثنتين من دول المغرب العربي في حين أن واحدا فقط من تلك الأبحاث الأحد عشر قد تم عمله بواسطة علماء دول المغرب العربي فقط، ولذلك يمكن القول بأن معدل التعاون الإقليمي في مجال

الجدول رقم (٢): أعداد الكوادر فائقة المهارة (HSP) بالدول الأعضاء لدى الـ (OECD) في عام ١٩٩٩

الدولة	عدد المغتربين	نسبة الـ (HSP)	عدد الـ (OECD)
العالم العربية	٤.٤٦٢.٣٩١	٪ ٢٣	٩٦٧.٥٤٨
الصين	١.٩٢٨.١٩٩	٪ ٥١.٩	١.٠٠٠.٧٣٥
الهند	١.٦٤٩.٧١١	٪ ٣٩.٦	٦٥٣.٣٨٦

الجدول رقم (٣): مقارنة بين الدول فيما يتعلق بدعم الأبحاث والتنمية (خلال عام ٢٠٠٢) المتمثل في اجمالي المبالغ المنصرفة على الأبحاث والتنمية

الدولة	المبالغ المنصرفة (بالمليار دولار)	النسبة التي تمثلها المبالغ المنصرفة من الناتج المحلي الاجمالي	المبلغ المنصرف للفرد الواحد	عدد الباحثين لكل مليون فرد
كافه دول العالم	٨٢٩.٩	١.٧	١٣٤.٤	٨٩٤.٠
الدول المتقدمة	٦٤٥.٨	٢.٣	٥٤٠.٤	٣٢٧٢.٧
الدول النامية	١٨٣.٦	١.٠	٤٢.٨	٣٧٤.٣
الدول الأقل نموا	٠.٥	٠.١	٠.٧	٤.٥
الدول العربية الأفريقية	١.٢	٠.٣	٦.٥	١٥٩.٤
الدول العربية الآسيوية	٠.٦	٠.١	٦.٢	٩٣.٥
كافة الدول العربية	١.٩	٠.٢	٦.٤	١٣٦.٠
البرازيل	١٣.١	١.٠	٧٥.٠	٣١٤.٩
الصين	٧٢.٠	١.٢	٥٦.٢	٦٣٣.٠
الهند	٢٠.٨	٠.٧	١٩.٨	١١٢.٦
اسرائيل	٦.١	٤.٩	٩٢٢.٤	١٣٩٥.٢

* مصدر البيانات المدرجة بالجدول: UNESCO op.cit. table 1p.

الجدول رقم (٤): عدد الأبحاث التي تم إصدارها لدى بعض الدول على أساس كل مليون فرد

الدولة	١٩٨١	١٩٨٥	١٩٩٠	١٩٩١	١٩٩٢	١٩٩٣	١٩٩٤	١٩٩٥	٢٠٠٣
العالم العربي	١١	١٥	٢١	٢١	٢١	٢١	٢٤	٢٦	٣٣.٢
البرازيل	١٦	١٩	٢٥	٢٧	٣١	٣١	٣٤	٤٣	٧٤.٨
الصين	١	٣	٧	٧	٨	٨	٩	١١	٣٦.١
الهند	١٧	١٥	١٦	١٧	١٧	١٧	١٨	١٩	١٩.٤
كوريا	٦	١٥	٤٢	٤٨	٥٨	٧٤	٩٧	١٤٤	٤٣٣
فرنسا	٤٩٦	٥٩٣	٦٢٨	٦٢٧	٦٨٦	٧٢١	٧٦٨	٨٤٠	٨٢٦
هولندا	٥٦٧	٧٦٨	٩٣٢	٩٢٠	١٠٠٩	١٠٩٨	١١٦٦	١٢٥٢	١٢٠٩
سويسرا	١٢٠٢	١٤٠٦	١٣٥٢	١٣٦١	١٥٢٥	١٦٢٢	١٧٨٠	١٨٧٨	٢٠٠٥

* تم تجميع بيانات هذا الجدول من خلال المعلومات المتاحة لدى معهد المعلومات العلمية بمدينة فيلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية



عمل الأبحاث هو معدل متضائل للغاية.

يصل معدل التعاون الدولي في مجال عمل الأبحاث لدى دول المشرق العربي إلى ٢٥٪ من إجمالي ما يتم عمله لدى تلك الدول من أبحاث، في حين أن معدل التعاون فيما بين تلك الدول في هذا المجال هو معدل محدود للغاية.

النظم العلمية والتكنولوجية لدى العرب:

تعود الأزمة التي تمر بها التنمية العربية إلى أن الدول العربية لا تحصل على العوائد التي من المفترض أن تحصل عليها من خلال استثماراتها في كل من الموارد البشرية وعمليات الأبحاث والتنمية وتكوين إجمالي رأس المال الثابت، وهذا ما يمكن إرجاعه بشكل كبير إلى تردي حالة النظم العلمية والتكنولوجية القومية.

النظم العلمية والتكنولوجية هي بطبيعتها نظم مكثفة من التكنولوجيا المعقدة تشمل الهيئات والمنظمات المختلفة، وتتمثل أهم وظائف تلك النظم في إنتاج وتراكم واكتساب ونشر المعرفة وكذلك تحويلها إلى عناصر هامة ومفيدة.

إن جودة وكفاءة الروابط بين مختلف مكونات النظم العلمية والتكنولوجية تلعب دور حاسم لا يقل أهمية عن الدور الذي تلعبه مكونات تلك النظم في حد ذاتها أو بمعنى آخر، مكونات تلك النظم ستكون غير ذات أهمية ما لم توجد هذه الروابط[٦].

من العوامل التي تحول دون تكوين الروابط سالفة الذكر هي تلك السياسات الاقتصادية والعلمية السائدة وما يصاحبها من ضعف (وفي أغلب الأحيان انعدام) الجمعيات والاتحادات المهنية العربية وكذلك الافتقار إلى التمويل الموجه لدعم تنقلات العلماء العرب للمشاركة في المؤتمرات والأنشطة العلمية على المستويات القومية والإقليمية والدولية.

تتحدد كل من إنتاجية العمالة والقدرة على اكتساب وتراكم التقنيات الحديثة من خلال مدى الربط بين مهارات العمالة وتأهيلها وإدارتها من ناحية والنظم العلمية والتكنولوجية من ناحية أخرى. إن الالتفات إلى إنتاجية وأداء العمالة يعد من العوامل الأساسية في بناء القدرة التنافسية لدى اقتصاد أي أمة.

في عام ١٩٧٠ اقتربت الدول العربية من مستويات إنتاجية العمالة لدى كل من اليابان وأوروبا، ولكن من الغريب أن

الجدول رقم (٥): التعاون الإقليمي والدولي بين الباحثين في العالم العربي خلال عام ١٩٩٥

الدولة	العدد الإجمالي للأبحاث التي تم إنتاجها	عدد ونسبة الأبحاث المشتركة	الدول المشاركة في أكبر عدد من الأبحاث المشتركة	عدد الأبحاث التي شاركت فيها منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية	عدد الأبحاث التي شاركت فيها دول عربية	عدد الأبحاث التي شاركت فيها جهات متعددة الجنسيات
الجزائر	٣٢٨	٢٢٧ (٦٩٪)	فرنسا ١٥١ (٦٦٪)	١١٧ (٨١٪)	٣ (١٪)	—
البحرين	١٠٦	٢٩ (٢٧٪)	المملكة المتحدة ٧ (٢٤٪)	١١ (٣٨٪)	٣ (١٠٪)	٦ (٢١٪)
مصر	١٩٩٥	٥٨٥ (٢٩٪)	أمريكا ١٥٤ (٢٦٪)	٣٣٧ (٥٨٪)	١٢٣ (٢١٪)	٤٩ (٨٪)
العراق	١١٤	٣٤ (٣٠٪)	أمريكا ٥ (١٥٪)	٢٠ (٥٩٪)	١٢ (٣٥٪)	٠٠
الأردن	٢٦٦	٩٥ (٣٦٪)	أمريكا ٢٣ (٢٤٪)	٥٨ (٦١٪)	١٨ (١٩٪)	١٢ (١٣٪)
الكويت	٢٩٠	١١٧ (٤٠٪)	أمريكا ٢٥ (٢١٪)	٥٦ (٤٨٪)	٢٦ (٢٢٪)	١٧ (١٥٪)
لبنان	٧٣	٣٢ (٤٤٪)	أمريكا ١٤ (٤٤٪)	٢٧ (٨٤٪)	١ (٣٪)	٤ (١٣٪)
ليبيا	٥٨	٣٥ (٦٠٪)	المملكة المتحدة ٩ (٢٦٪)	١٦ (٤٦٪)	٧ (٢٠٪)	٤ (١١٪)
موريتانيا	٧					
المغرب	٥٣٩	٣٩٥ (٧٤٪)	فرنسا ٢١٤ (٦١٪)	٣١٤ (٨٠٪)	٣ (٥٠,٠٪)	٦٤ (١٥٪)
عمان	٨٤	٣٧ (٤٥٪)				
فلسطين	١٦					
قطر	٤٩	٣٦ (٥٤٪)	مصر ٢٣ (٦٤٪)	٩ (٢٥٪)	٢٤ (٦٧٪)	٢ (٦٪)
السعودية	١٢٤٠	٢٩٤ (٢٤٪)	أمريكا ٧٦ (٢٥٪)	١٦١ (٥٥٪)	٧٩ (٢٧٪)	٢٦ (٩٪)
الصومال	٦					
السودان	١١٢	٧٤ (٦٦٪)	أمريكا ١٠ (١٤٪)	٤٥ (٦١٪)	١١ (١٥٪)	١٣ (١٨٪)
سوريا	١٣٤	٨١ (٦٠٪)●	فرنسا/المملكة المتحدة ـ ١٦	٤٤ (٨٦٪)		٢٩ المركز الدولي للأبحاث الزراعية في المناطق الجافة (ICARADA)
تونس	٣١٢	١٤٧ (٤٦٪)	فرنسا ٨٧ (٥٩٪)	١٢٢ (٨٣٪)	٣ (٢٪)	١٧ (١٢٪)
الإمارات	١٣٧	٥٥ (٤٠٪)	مصر ١١ (٢٠٪)	٢٦ (٤٧٪)	٢٢ (٤٠٪)	٦ (١١٪)
اليمن	٣٠	٢٨ (٨٣٪)	فرنسا/المملكة المتحدة ـ ١٦	١٥ (٥٤٪)	٨ (٢٩٪)	٤ (١٤٪)
الإجمالي	٥٩٣٢	٢٣٠١ (٣٩٪)	٧٥٤ (٣٣٪)	١٤٧٨ (٦٤٪)	٣٤٢ (١٥٪)	٢٣٣ (١٠٪)

● يشمل ذلك ٢٩ بحثاً تم إصدارها من جانب علماء لدى (ICARADA).

❖ مصدر بيانات هذا الجدول: المؤلف الخاص بالدكتور أ.ب.زحلان بعنوان «العلم والتكنولوجيا لدى العالم العربي: بمضيان بلا تغيير»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-١٩٩٩ (باللغة العربية)

تأخذ مستويات إنتاجية العمالة لدى الدول العربية في الانحدار مع بداية عصر ازدهار البترول في عام ١٩٧٤ واستثمار ٢٠٠٠ بليون دولار في تكوين إجمالي رأس المال الثابت مع حلول عام ٢٠٠٠ وكذلك التوسع الشامل في الأنظمة التعليمية على كافة المستويات[٧]. وتشير التقديرات إلى أن الدول العربية تستثمر مبلغاً يتراوح بين ٢٠٠٠ و٣٠٠٠ بليون دولار في مشروعات جديدة تعتمد بشكل شبه حصري على أسلوب عقود المشروعات المتكاملة (أو ما يعرف بعقود تسليم مفتاح).

يعد الانحدار في معدل أداء العمالة العربية بمثابة ظاهرة متفردة وذلك نتيجة الاعتماد المتزايد على أنماط التعاقد القائمة على عقود المشروعات المتكاملة (عقود تسليم مفتاح) وأسلوب استحواذ العميل في ذات الوقت الذي زادت فيه أعداد المتخصصين والموارد المالية؛ وهذا يرجع إلى انعدام التكامل فيما بين كل من النظام التعليمي والوضع الاقتصادي وسوق العمل.

يمكن تلخيص المعوقات التي تواجه عملية التنمية فيما يلي:

● السياسات المتبعة من قبل القطاع العام والمتمثلة في إبرام عقود مشروعات متكاملة (عقود تسليم مفتاح) مع جهات استشارية دولية متخصصة في التصميمات الهندسية مع توجيه اهتمام محدود نحو اكتساب المعرفة.

● التكامل الرأسي بين المؤسسات الصناعية القومية الرئيسية واعتمادها الكبير على موردي الخدمات المتصلة بالصناعة العالمية وبالتالي عدم الالتفات إلى الجهات القومية والإقليمية.

● التطبيق المحدود لأساليب إسناد الأعمال والتعاقد من الباطن من جانب الشركات المملوكة للدولة وشركات القطاع الخاص.

● أوجه القصور لدى الهيئات العلمية والمهنية قومية كانت أم إقليمية.

● محدودية الاهتمام الموجه نحو التكنولوجيا التفكيكية والهندسة العكسية.

● قلة الدراسات التي يتم إجراؤها إقليمياً فيما يتعلق بالسياسة العلمية.

● ندرة الأماكن المخصصة للعلوم والتكنولوجيا حول الجامعات والمدارس الفنية، بغرض الترويج لنقل التكنولوجيا إلى المشروعات الصغيرة والمتوسطة.

• رداءة خدمات المعلومات الفنية والإحصائية[٨].

• تدني مستوى الحوافز الباعثة على الابتكار.

• ضعف الآليات المخصصة لدعم أفضل الممارسات.

• عدم توجيه الاهتمام المناسب نحو تشجيع المنافسة.

• توجيه قدر ضئيل من الاهتمام نحو إنتاجية العمالة ومراقبة الجودة[٩].

الإجراءات الواجب اتخاذها:

لقد لوحظ من القسم الأول من هذه الدراسة أن ما لدى العرب من رأس مال بشري وإمكانات في مجال البحث والتنمية وموارد طبيعية يضاهي أو أحيانا يفوق ما لدى كل من الصين والهند من تلك العوامل، وذلك على أساس الفرد الواحد، في حين يقل مستوى أداء الدول العربية بكثير عن مستوى الأداء لدى كل من هاتين الدولتين. إن إصلاح السياسات الحالية لن يصبح ممكنا إلا في ضوء الفهم المتعمق للأسباب الباعثة على تدني مستوى الأداء لدى الدول العربية بالمقارنة بالدول الأخرى.

يتطلب تفهم الصعوبات الحالية بكل ما يكتنفها من تعقيد إجراء كم كبير من الأبحاث خاصة في المجالات الاقتصادية والإدارية وكذلك في مجال السياسة العلمية، بحيث يتسنى لنا كعرب تحديد ما يواجهنا من مشكلات عديدة وبالتالي إيجاد الحلول العملية لتلك المشكلات.

وهناك بعض السبل المتعارف عليها تتسم بعاملي السرعة وانخفاض التكلفة ويمكن من خلالها نشر الخبرات وتدعيم الأبحاث في المجالات سالفة الذكر بشكل تدريجي. ومما يسهل اتباع تلك السبل توافر رأس المال البشري وكثرة الجامعات لدى الدول العربية.

يعد تدريب وتأهيل القوى العاملة من أهم الإجراءات التي يجب اتباعها لزيادة العمالة وخفض التكاليف، حيث يهدف هذا الإجراء إلى تعزيز قدرات العمالة ورفع مستوى الإنتاجية فيما يتعلق بالتقنيات التي يوجد عليها طلب كبير وكذلك ضمان رواج تلك العمالة من خلال تأهيلهم بالشهادات التي تعكس مهاراتهم.

تعد مؤسسات الاستشارات والمقاولات العربية من أهم أدوات تحويل الاستثمارات الموجهة نحو التعليم والأبحاث والتنمية إلى منافع اقتصادية. لذلك يجب إعطاء الأولوية للإجراءات التي تمكن تلك المؤسسات من زيادة حصتها في السوق. وهذا ما سوف يؤدي بدوره إلى دعم القدرة على منافسة شركات المقاولات الأجنبية في الأسواق المحلية. وتشمل تلك الإجراءات تحسين الخدمات المالية، تأسيس نظام قانوني وتشريعي يتسم بالكفاءة، تدريب وتأهيل العمالة، وتوفير خدمات معلوماتية وإحصائية تتصف بالدقة والفعالية. من شأن الإجراءات سالفة الذكر تدعيم الروابط بين كل من مؤسسات الاستشارات والمقاولات، والمنظمات المهنية، والجامعات والموارد البشرية العربية[١٠]، كما يمكن من خلال تلك الإجراءات إحراز العديد من المنافع والأرباح على المستويين الاجتماعي والاقتصادي.

تمويل اللقاءات العلمية:

تعد ندرة التعاون بين العلماء في الدول العربية من أهم العراقيل التي تحول دون الاستفادة من رأس المال البشري المتاح. تمثل اللقاءات العلمية آلية منخفضة التكلفة لإجراء المناقشات والمبادلات العلمية بين المتخصصين، ولهذا فإن زيادة التمويل الموجه إلى المؤتمرات العلمية داخل الوطن العربي من شأنه تمكين العلماء من تضفير مجهوداتهم والعمل مجتمعين بشكل أفضل.

تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات:

تحتل الدول العربية مكانة متأخرة في مصاف الدول فيما يتعلق بتطوير قطاعات تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات على الرغم من قيام الدول العربية بشراء كم هائل من الخدمات المتصلة بتلك التكنولوجيا والأجهزة اللازمة للعديد من المجالات والجهات كالاتصالات العسكرية، خدمات التليفزيون والإذاعة، الصناعات المختلفة، الهيئات الحكومية، المطارات والخطوط الجوية، والبنوك. لا بد من توجيه الجهود المشتركة نحو تحليل مكونات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الخاصة بعقود المشروعات الضخمة مما سيكفل دعم المشاركة المحلية في مجال نقل التكنولوجيا والابتكار في هذا المجال الحيوي.

لا بد أن يتم تضييق نطاق الفجوة المعرفية لدى العرب من خلال سبل سوية ومنخفضة التكلفة بما سيسهم بشكل كبير في تحقيق المنفعة العامة والاعتماد على الذات والرخاء على المستوى القومي. ☼

هـــــوامـــــش:

(*) خلال حملته الانتخابية للفوز بالرئاسة الأمريكية عام ١٩٩١، استخدم الرئيس الأمريكي بيل كلينتون (تولى الرئاسة من ١٩٩٢ حتى ٢٠٠٠) شعار It's economy Stupid للتدليل على أهمية الاقتصاد في تحديد توجهات الناخب الأمريكي.

١. يستخدم المصطلح «رأس المال البشري» للإشارة إلى «الأشخاص المتعلمين». ومن المصطلحات شائعة الاستخدام أيضا في الآونة الأخيرة مصطلح «الكوادر فائقة المهارة - (HSP)»، وهو ما يطلق على خريجي الجامعات. حيث حل هذا المصطلح محل مصطلح آخر كان يستخدم في الماضي بنفس المعنى، ألا وهو «القوى العاملة عالية المستوى»، وهو ما يترجم بالإنجليزية إلى «High Level Manpower». ويعكس هذا المصطلح المنتشر في الوقت الحاضر بعد احتلت قضايا الثروة مركزا هاما على الساحة.

٢. س. عبد الله نعيم وعطاء الرحمن (محررين)، «موقف البحث العلمي لدى الدول الأعضاء في منظمة الدول الإسلامية». COMESTECH، باكستان (إصدار عام ٢٠٠٦). يفرد هذا الإصدار فصل خاص بكل واحدة من الدول الأعضاء يستعرض أهم المعلومات عن سكانها، التغييرات التي طرأت على الوضع التعليمي لها خلال العقد المنقضي، معلومات عن أبرز عشرة فروع من العلم لديها، مجالات البحث العلمي الخاصة بها خلال الخمس أو العشر سنوات الماضية، الجامعات ذات الإنتاجية الموجودة فيها، أبرز مفكريها والجامعات التي ينتمون إليها، أعداد واتجاهات الإصدارات العلمية لديها خلال العقد المنقضي، وصادراتها والناتج المحلي الإجمالي الخاص بها.

٣. اليونسكو، «التقرير العلمي الصادر عن اليونسكو في عام ٢٠٠٥»، اليونسكو ٢٠٠٥.

٤. أ.ب. زحلان، «العلم والتكنولوجيا لدى العالم العربي: يمضيان بلا تغيير»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٩ (باللغة العربية).

٥. أ.ب. زحلان، Ibid.

٦. ستيفان واشتي، بينجامين ف. جونز وبراميان أوزي، «تزايد هيمنة فرق البحث على مجالات إنتاج المعرفة»، Science ٣١٦، رقم ٥٨٢٧، الصفحات من ١٠٣٦-١٠٣٩، ١٨ مايو ٢٠٠٧.

٧. يمكن الاطلاع على المزيد من المعلومات بشأن التعاون الإقليمي والدولي في مجال الأبحاث والتنمية من خلال (زحلان ١٩٩٩).

٨. تم مناقشة تلك الموضوعات تفصيليا في أحد إصدارات أ.ب. زحلان بعنوان «صناعات البناء لدى العرب»، Croom Helm، لندن، ١٩٨٣، حيث تم نشر نفس الإصدار باللغة العربية من جانب مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٣. وكذلك من الإصدارات الأخرى الخاصة بزحلان فيما يتعلق بنفس الموضوعات هو إصدار بعنوان «اكتساب القدرات التكنولوجية: دراسة بشأن شركات الاستشارات والمقاولات العربية»، Macmillan، لندن، ١٩٩٠، حيث تم نشر نفس الإصدار باللغة العربية من جانب كل من مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٠ وزحلان (١٩٩٩).

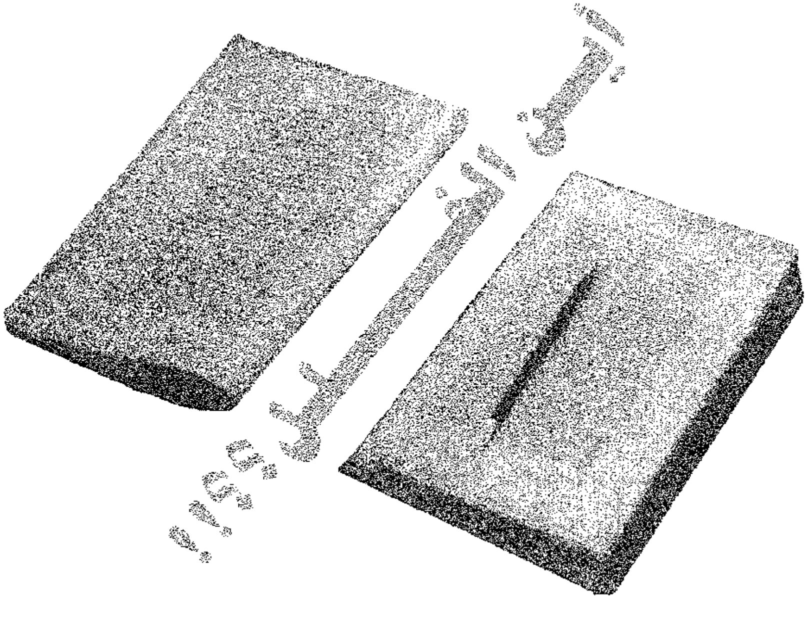
٩. أ.ب. زحلان، «إنتاجية العمالة والمنافسة»، المشرق العربي، رقم ٢، الصفحات من ٩٨-١١٢، ١٩٩٤.

١٠. بالطبع هناك بعض الاستثناءات من ذلك.

١١. تم توجيه بعض الجهود في العديد من الدول العربية نحو تحسين معايير ونظم مراقبة الجودة لديها.

١٢. عماد مصطفى، «الإطار التنظيمي لعمليات اكتساب المعرفة ونقل وإدارة وتعريب التكنولوجيا»، ٢٠٠٣.

النتاج البحثي العربي
قد ارتفع من ١١ بحثا تم نشرها
في عام ١٩٨١ إلى ٣٣,٢ بحث تم نشرها
في عام ٢٠٠٣ وذلك على أساس
كل مليون فرد



معتز خورشيد

تعانى الجامعات الخاصة من نقص فى مواردها البشرية من هيئة التدريس والهيئة المعاونة، فى حين تمتلك الجامعات الحكومية كوادر تعليمية وبحثية أكثر عددا وقدرة علمية وتنوعًا أكاديميًا

■ ■ تشهد مصر - فى الوقت الراهن - حواراً مجتمعياً متعدد الأطراف يدور حول الرؤى المستقبلية لتطوير منظومة التعليم العالى وتحديثها وإعادة هيكلتها وضمان جودة أدائها وتنظيم القدرة التنافسية لخريجيها على المستويين الإقليمى والعالمى. وتعود أهمية هذا الحوار إلى المكانة التى تحتلها منظومة التعليم فى أى مشروع قومى للتنمية الشاملة بمصر، وما يمكن أن تقوم به من دور محورى للارتقاء بالعنصر البشرى وتعظيم قدراته بغية اللحاق بعصر المعرفة ومجتمعات الحداثة بالألفية الثالثة.

وقد طرحت - فى هذا الصدد - رؤى تطويرية متباينة ومقترحات إصلاحية بديلة على الأصعدة الأهلية والحزبية والحكومية الرسمية. كما تُظمت العديد من الندوات والحلقات النقاشية والمؤتمرات العلمية المتخصصة التى تسعى فى مجملها إلى وضع استراتيجية متكاملة لإصلاح مسار العملية التعليمية والخروج بها من الحلقة المفرغة التى تحد من قدرتها على الانطلاق نحو تحقيق أهداف التنمية البشرية.

وبرغم الاختلافات فى الرؤى ومقترحات التطوير فقد اجتمعت الآراء على ضرورة ارتباط جهود الإصلاح بمعالجة الاختلالات الهيكلية فى منظومة التعليم العالى، حيث أفادت أدبيات التنمية الشاملة وبرامج الإصلاح الاقتصادى والاجتماعى - على المستوى العالمى - أن مشكلة الدول النامية تكمن أساساً فى ماتعانيه من اختلالات هيكلية فى بنية المجتمع وما ينتج عنها من انعكاسات سالبة على معدلات الأداء الاقتصادى والاجتماعى وعلى قدرة الدول النامية على تحقيق الأهداف التنموية والارتقاء بالمستوى المعيشى للمواطن.

أولاً: أنواع الاختلالات الهيكلية

تفرق برامج التنمية بين نوعين من التشوهات الهيكلية فى بنية الاقتصاد والمجتمع. يتمثل النوع الأول فى عدم اتساق - أو توازن - هيكل الإنتاج وتوزيع الدخل والتجارة الخارجية والعمالة والسكان... إلخ. فالدول الخليجية تعانى - على سبيل المثال - من عدم اتساق فى هيكلها السكانى وقوة العمل بها من حيث تنامى نسبة العمالة الوافدة وتراجع معدلات مشاركة قوة العمل الوطنية فى النشاط الاقتصادى والاجتماعى. فى حين تعانى دول نامية أخرى من تحيز فى هيكلها الإنتاجى تجاه النشاط الخدمى مع تقلص فى الدور التنموى لقطاعها الصناعى. ويلاحظ أيضاً تزايد اعتماد الدول النامية على الواردات من العالم الخارجى مع تدنى دور الإنتاج الوطنى فى إشباع الطلب المحلى على السلع والخدمات. كذلك تعتبر ظاهرة نقص موارد الدول النامية من النقد الأجنبى نتيجة مباشرة لاختلال العلاقة بين الصادرات والواردات فى ميزان المدفوعات.

أما النوع الثانى من الاختلالات البنيوية فيتمثل فى وجود ازدواجية بين قطاعات الاقتصاد وشرائح المجتمع بدول العالم الثالث. فتباين معدلات التنمية البشرية ومستوى الخدمات الاجتماعية بين المناطق الريفية والحضرية يمثل إحدى المشاكل الهيكلية للعديد من الدول النامية؛ كما يمثل

تباين مستوى الأجور السائدة فى القطاع الخاص عن مستوى الرواتب التى يتقاضاها العاملون بالقطاع العام نوعية أخرى من الازدواجية ذات التأثير السالب على جهود التنمية الشاملة. كذلك يمكن اعتبار اختلاف مستوى التكنولوجيا المطبقة فى القطاعات الصناعية المنظمة عن التقنيات السائدة فى قطاعات الاقتصاد غير المنظم ازدواجية تتطلب اتباع السياسات والتدابير الملائمة للتقليل من آثارها السالبة على الأداء الاقتصادى والاجتماعى.

ومن هنا فقد توجهت معظم الخطط الإنمائية - وما تتضمنها من برامج تنفيذية - إلى معالجة الاختلالات الهيكلية والقضاء على الازدواجية السائدة فى البنية الاجتماعية والاقتصادية بالدول النامية كأحد المتطلبات الرئيسية لإصلاح المسار الاقتصادى والاجتماعى وتحقيق أهداف التنمية الشاملة.

وبالمثل، يتسم نظام التعليم العالى بمصر بشيوع العديد من الاختلالات فى هيكله والتشوهات فى بنيته الأساسية بما يهدد جهود الإصلاح الراهنة ويحد للجامعات ومجلس الجامعات الخاصة فى مصر بالاشتراك مع وزارة التنمية الاقتصادية - المسئولة عن صياغة خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية - إعداد دراسة شاملة تقوم بقياس الفجوة المستقبلية بين مخرجات منظومة التعليم العالى (عرض قوة العمل) ومتطلبات القطاعات الإنتاجية والخدمية من الخريجين وفق الفئة المهنية للخريج موزعة على المحافظات والأقاليم الحضرية والريفية بمصر (الطلب على قوة العمل). وتعتبر هذه الفجوة بين قوى العرض وعناصر الطلب من المؤشرات التخطيطية الهامة لتخصيص الاستثمارات فى قطاعات التعليم العالى العامة والخاصة والأهلية، من حيث تأثيرها على المواءمة بين مخرجات العملية التعليمية ومتطلبات أسواق العمل. ويمكن بطبيعة الحال تبنى سياسات من شأنها إعداد طالب التعليم العالى وفق متطلبات المجتمع المعرفى بالألفية الثالثة من ناحية، وتوجيهه إلى التخصصات العلمية الأكثر طلباً فى أسواق العمل الوطنية والإقليمية من ناحية أخرى.

وجه الخصوص فى التخصصات العلمية الأكثر حداثة ومن أعضاء هيئة التدريس الأكثر خبرة وكفاءة علمية. وهو ما يمكن أن يؤدى إلى استنزاف الكوادر البشرية المتميزة بالجامعات الحكومية. وفى محاولته لعلاج هذا التباين، وضع مجلس الجامعات الخاصة قواعد حاكمة لتقدير أعداد هيئة التدريس المعينين بالجامعات الخاصة وتوازن هذا العدد مع حجم الإعارات والانتدابات من الجامعات الحكومية. بيد أن هذا التوجه المرغوب يتعين أن يصاحبه سياسة مكملة لاختبار أعضاء هيئة التدريس تضمن مستوى جودة التعيينات بالقطاع الخاص.

٢ - بالإضافة إلى التباين فى توافر الموارد البشرية بين القطاعين الخاص والعام، فإن منظومة التعليم المصرى تشهد اختلالاً واضحاً فى معدلات الأجور المطبقة بالجامعات الحكومية والخاصة. ففى حين يصل مرتب الأستاذ الجامعى بالجامعات الحكومية إلى نحو ثلاثة آلاف جنيه فى المتوسط، فإن مرتبه بأى جامعة خاصة قد يصل إلى ثمانية أو عشرة آلاف جنيه شهرياً. وبصرف النظر عن الخلاف فى معدلات الاستخدام السائدة فى كل من الجامعات الخاصة الحكومية فيعود - بطبيعة الحال - إلى سياسة الحكومة الحالية للتوسع فى إتاحة التعليم العالى بمصر وفق التوجه العالمى نحو ديمقراطية التعليم وإتاحته للقادر وغير القادر من شرائح المجتمع. ويتطلب علاج هذه المشكلة الهيكلية أن تسعى الجامعات الخاصة إلى تطوير تخصصات علمية غير متوافرة (أو غير مكتملة) بالجامعات الحكومية، مع استكمال مواردها البشرية وربط مستوى رسومها الدراسية بمعدلات جودة أدائها والتكلفة المرتفعة لإمكاناتها المادية. كما يتطلب الأمر أن تتوجه الجامعات العامة إلى تعظيم جهودها فى مجال البحث عن مصادر بديلة - غير حكومية - لتمويل أنشطتها التعليمية والبحثية من خلال تقديم خدمات مجتمعية متميزة، مع توجه الحكومة إلى زيادة الطاقة الاستيعابية للجامعات الحكومية من خلال زيادة الاستثمارات فى قطاع التعليم وتحفيز القطاع الخاص على المشاركة فى دعم وتطوير منظومة التعليم العام.

٤ - مازالت الجامعات الحكومية - بحكم إمكاناتها البشرية وأعداد طلابها وخريجيها وبالتنوع فى مناهجها العلمية

أعداد الطلاب فى بعض كليات التجارة الحكومية يقدر بنحو (٥٠) ألف طالب فى المتوسط، فى حين يصل عدد الطلاب بكليات الحقوق والآداب إلى ما يقارب (٢٥) إلى (٣٠) ألف طالب.

من قدرتها على تحقيق الأهداف التعليمية المرغوبة.

ثانياً: الاختلال بين مخرجات التعليم وسوق العمل

يعتبر الاختلال بين مخرجات التعليم ومتطلبات سوق العمل من أهم المشاكل الهيكلية التى يتعين التصدى لها من قبل متخذ القرار التعليمى وخبراء التعليم العالى والبحث العلمى على المستوى الوطنى. إذ يمكن تفسير مشكلة البطالة الهيكلية ليس فقط بالفجوة الكمية بين حجم المخرجات التعليمية وما يمكن أن يوفره المجتمع وقطاعاته الإنتاجية من فرص عمل للخريجين، ولكن أيضاً بقصور مؤسسات التعليم العالى الوطنية فى إعداد خريج قادر على التفاعل مع متطلبات أسواق العمل والمنافسة على المستويين المحلى والإقليمى بما يتناسب مع عصر العلم والتكنولوجيا ومجتمعات المعرفة وعولمة الأنشطة الإنتاجية والخدمية..

وبناء على ما سبق فإن التغلب على هذه القضية الهيكلية يتطلب من قبل وزارة التعليم العالى والمجلس الأعلى

ثالثاً: الازدواجية بين الجامعات الخاصة والعامة

تعانى منظومة التعليم من اختلال رئيسى يتمثل فى الازدواجية (Duality) بين الجامعات العامة ومؤسسات التعليم العالى الخاصة. ويمكن رصد هذه الازدواجية بين الجامعات الخاصة والعامة فى النقاط التالية:

١ - تعانى الجامعات الخاصة من نقص فى مواردها البشرية من هيئة التدريس والهيئة المعاونة. فى حين تمتلك الجامعات الحكومية كوادر تعليمية وبحثية أكثر عدداً وقدرة علمية وتنوعاً أكاديمياً. ففى جامعة القاهرة - على سبيل المثال - يقدر حجم هيئتها العلمية - فى عام ٢٠٠٥/٢٠٠٤ - بما يزيد على عشرة آلاف عضو منهم نحو ستة آلاف ونصف أستاذ جامعى، فى حين يتراوح عدد أعضاء هيئة التدريس المعينين بالجامعات الخاصة (١٠٠-٢٠٠) عضو فى المتوسط. وتنعكس هذه الازدواجية فى تعاظم طلب الجامعات الخاصة - التى يصل عددها فى الوقت الراهن إلى ١٦ جامعة - على أعضاء هيئة التدريس بالجامعات الحكومية، وعلى والعامة، فإن هذا الاختلال فى منظومة الأجور من الممكن أن يساهم فى خلق مناخ غير صحى قد يهدد كفاءة أداء منظومة التعليم العالى ككل. وحيث أن الأجور بالقطاع الجامعى الخاص تعكس - إلى حد كبير - التكلفة السوقية لوظيفة الأستاذ الجامعى، ونظراً لتوجه الدولة السياسى والاقتصادى نحو تحرير الأسعار والأجور بشكل شامل والارتقاء بجودة التعليم العالى، فإنه يتعين إعادة النظر فى منظومة الأجور والمرتبات والمكافآت بقطاع التعليم العالى العام، والسعى إلى تذويب الفوارق بين ما يتقاضاه أعضاء هيئة التدريس فى كل من القطاعين العام والخاص.

٣ - تتميز الجامعات الخاصة بوفرة مواردها المالية مع تواضع أعداد الطلاب بها، فى حين تعانى الجامعات الحكومية من تكدس فى أعداد طلابها ونقص فى مواردها المالية المتاحة. ويعود التناقص فى أعداد الطلاب بالجامعات الخاصة إلى صغر الشريحة المجتمعية القادرة على سداد رسومها الدراسية المرتفعة من ناحية، وعدم سعيها إلى تنويع التخصصات العلمية بكلياتها ومعاهدها استكمالاً للمجالات الأكاديمية غير المتوافرة بالجامعات الحكومية، من ناحية أخرى. أما التكدس العددى بالجامعات - تقوم بالدور الرئيسى فى منح الدرجات العلمية وتوفير الكفاءات المهنية التى تتطلبها سوق العمل المصرية والإقليمية العربية، ومازال دور الجامعات الخاصة محدوداً فى هذا الشأن نظراً لحداثة تجربة التعليم العالى الخاص فى مصر من ناحية، وتركيز الجامعات الخاصة على عدد محدد من التخصصات العلمية المتكررة بالتعليم العام دون الاجتهاد فى تطوير برامج حديثة تخدم متطلبات سوق العمل، من ناحية أخرى. وحيث إن التجارب الدولية تفيد أن الدول التى حققت نجاحات فى مجال تطوير التعليم العالى وتعظيم مساهمته فى مجال التنمية البشرية، قد ارتكزت على نظم تعليمية مشتركة تعتمد على كل من القطاعين العام والخاص فى تقديم الخدمات التعليمية، فإنه يتعين صياغة خطة قومية شاملة فى مجال التعليم تسعى - فى المدى الطويل - إلى الزيادة المخططة لمشاركة التعليم الخاص فى منظومة التعليم العالى وتنسيق الأدوار بين القطاعين الخاص والعام فيما يخص تحقيق متطلبات سوق العمل والارتقاء بجودة العملية التعليمية والحفاظ على معدلات الإتاحة المرغوبة وفق التوجه العالمى لديمقراطية التعليم العالى.



رابعاً: اختلال أعداد الطلاب والإمكانات

إلى جانب الازدواجية السائدة فى منظومة التعليم العالى بين المؤسسات العامة والخاصة، فإن الجامعات الحكومية تواجه مشكلة هيكلية رئيسية تتمثل فى اختلال العلاقة بين أعداد الطلاب والإمكانات المتاحة من قاعات تدريسية ومعامل بحثية وأجهزة علمية ومكتبات رقمية ووسائل تدريبية.

وتفيد مؤشرات التعليم العالى أن أعداد الطلاب فى بعض كليات التجارة الحكومية يقدر بنحو (٥٠) ألف طالب فى المتوسط، فى حين يصل عدد الطلاب بكليات الحقوق والآداب إلى ما يقارب (٢٥) إلى (٣٠) ألف طالب. هذا فى الكليات النظرية - أى العلوم الإنسانية والاجتماعية - أما الكليات العملية مثل الهندسة والطب والحاسبات والمعلومات فقد تزايدت أعداد طلابها بشكل كبير خلال حقبتى الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضى وبداية الألفية الثالثة. فقد خرجت كلية الحاسبات والمعلومات بجامعة القاهرة - وهى كلية حديثة أنشئت فى عام ١٩٩٦م- دفعتها الأولى فى عام ٢٠٠٠م وكان عدد الخريجين لا يتجاوز المائة خريج. بيد أن عدد الطلاب فى الدفعات التالية، خلال الأعوام العشر الماضية - قد قفز من مائة طالب فى عام ١٩٩٦م إلى نحو (٧٠٠) طالب فى عام ٢٠٠٧م. وبالطبع فإن النمو الكبير فى أعداد الطلاب لم يقابله زيادة مماثلة فى حجم الموارد المالية والطاقة الاستيعابية والإمكانات المادية والبشرية.

ومما لاشك فيه أن هذا الاختلال الهيكلى يمثل عائقاً أساسياً يقلل من فرص الجامعات الحكومية لتحقيق أهداف ضمان جودة العملية التعليمية والبحثية وتأهيل طلابها للتفاعل مع متطلبات عصر العلم والتكنولوجيا ومجتمعات المعرفة.

وحيث إن التوجه نحو تطوير الأداء الجامعى وضمان جودته يعتبر ضرورة يفرضها مناخ التعليم العالى وأسواق العمل على المستويين الوطنى والعالمى، فإن علاج هذا الاختلال بين كثرة الأعداد الطلابية والإمكانات المادية للجامعات، يجب أن يحتل مرتبة متقدمة فى سلم أولويات استراتيجية التعليم العالى والبحث العلمى. ويمكن تحقيق ذلك من خلال حزمة متكاملة من السياسات تتمحور حول زيادة قدرة الجامعات الخاصة والأهلية والمعاهد العليا الفنية على استيعاب جزء من طلاب الجامعات الحكومية، وزيادة حجم الاستثمارات الحكومية والمشتركة لتحقيق الزيادة المرغوبة فى الطاقة الاستيعابية للجامعات الحكومية فى ظل مستويات مقبولة من جودة الأداء، وخلق مناخ مناسب يسمح بتعظيم الموارد الذاتية للجامعات العامة، واستخدام طرق تعليمية غير تقليدية لتقليل الاعتماد على أسلوب التدريس وجهاً لوجه مثل "التعليم الإلكترونى والتعلم عن بعد، وأخيراً وليس آخراً التوجه إلى أنماط ونظم تعليمية أكثر مرونة مثل مراكز التعليم المفتوح والجامعات الافتراضية.

خامساً: الاختلالات المالية

الجامعات المصرية تعانى - فى معظمها - من اختلالات مالية هيكلية على مستويات متعددة. فالجامعات الحكومية تعانى، بشكل أساسى، من عدم الاتساق بين إيراداتها الذاتية وما توفره الحكومة لها من دعم مالى وبين متطلباتها من الإنفاق على العملية التعليمية والبحثية فى ظل مستوى مرغوب من جودة الأداء. وتمثل هذه الفجوة المالية عائقاً رئيسياً فى طريق تحقيق أهداف التطوير والتحديث للعملية التعليمية بوجه عام. كذلك تتسم الجامعات والمعاهد الخاصة بوجود اختلالات مالية تكمن فى تباين المعايير المستخدمة فى تحديد العلاقة بين مستوى ما تقدمه الجامعة أو المعهد من خدمات تعليمية وبحثية، وقيمة ما تحصله من رسوم دراسية. وبرغم تأثر مستوى هذه الرسوم التعليمية - وفق آليات السوق - بحجم الطلب على الخدمات التعليمية والمجال الأكاديمى للدراسة ومعدلات الربحية المرغوب تحقيقها، فإن توافق الرسوم الدراسية مع مستوى جودة الخدمات التعليمية المقدمة - وما تتضمنه من إنفاق مادى - يعتبر أمراً ضرورياً لضمان سلامة المنظومة السعرية بسوق التعليم العالى، ومن ثم استخدامها فى اختيار الطالب للجامعة أو المعهد الذى سيلتحق به. ومن هنا فإننا نشهد تبايناً غير منضبط فى الرسوم الدراسية على مستوى الجامعات الخاصة والأهلية - لا يعكس بالضرورة فروق جودة الأداء - بدءاً من ثلاثة آلاف جنيه سنوياً فى بعض المعاهد العليا وصولاً إلى نحو (٧٥) ألف جنيه فى إحدى الجامعات الخاصة.

وعلى مستوى آخر، فإن ميزانية الجامعات المصرية تتضمن عدم اتساق فى توزيع بنودها على عناصر الإنفاق، إذ يحتل باب الأجور والمرتبات نسبة مرتفعة من جملة الإنفاق فى الجامعات الحكومية، فى حين يتراجع حجم الإنفاق على البحث العلمى والتطوير وهو الأمر الذى يخل بقدرة الجامعة على استكمال أنشطتها التعليمية والبحثية والخدمية المجتمعية بالجودة والكفاءة المرغوبة. وتشير المؤشرات المالية بجامعة القاهرة - على سبيل المثال - إلى أن بند الأجور والمرتبات (الباب الأول) يقدر بنحو (٦٥٠) مليون جنيه سنوياً، فى حين تصل معدلات الإنفاق الجارى على البحوث (٨٠٠) ألف جنيه فقط (بند ٣ بحوث بالميزانية). ومن هنا فإن إعادة هيكلة الموازنة المالية للجامعات الحكومية وزيادة حجم الإنفاق على بعض أبوابها من خلال تنويع مصادر تمويلها الذاتى والتخصيص الأمثل للدعم الحكومى يمثل خطوة ضرورية فى اتجاه التصحيح الهيكلى لمنظومة التعليم الحكومية.

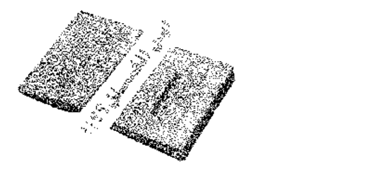
سادساً: البرامج الخاصة والمتميزة

ومما يزيد عملية التصحيح الهيكلى صعوبة، توجه الدولة - فى الوقت الراهن - نحو تطبيق سياسات من شأنها تعميق حدة هذه الاختلالات. إذ تؤدى البرامج الخاصة أو المتميزة بالجامعات الحكومية - التى بدأ تطبيقها فى الأونة الأخيرة بغية توفير موارد ذاتية إضافية للجامعة - إلى وجود أنماط أو نظم تعليمية متباينة داخل الكلية الواحدة تختلف فى مستوى جودة الخدمة التعليمية والأساليب والتكنولوجيات المستخدمة ومستويات الإشراف العلمى والإرشاد الأكاديمى. كما أن هذه البرامج الخاصة من الممكن أن تؤدى إلى إرساء مبدأ يتنافى مع التوجه العالمى لإتاحة التعليم بالجودة المرغوبة للقادر وغير القادر مالياً على حد سواء، على الأقل بالجامعات الحكومية. كما أنه يصعب قبول مبدأ المفاضلة بين الطلاب المتساوين فى القدرة العلمية بنفس المعهد أو المؤسسة العلمية بناء على الإمكانات المالية لأولياء الأمور، إذ إن هذا التوجه من الممكن أن يؤدى إلى خلق مناخ اجتماعى غير موائم بين الطلاب.

سابعاً: مهام الجامعة

يتعين الإشارة فى هذا الصدد إلى الاختلال فى دور الجامعات الذى قد ينشأ عن تباين الوزن النسبى لتوزيع جهودها بين مجالات التعليم والبحث العلمى وخدمة المجتمع وتنمية البيئة إلى جانب الدور التنويرى والثقافى. ومع قبول التوجه الراهن نحو تخصص بعض الجامعات فى مجال محدد مثل الجامعات ذات التوجه البحثى، أو جامعات الدراسات العليا، أو الجامعات التكنولوجية. غير أن الأمر المحقق - فى هذا الشأن - أن مسمى «الجامعة» قد نشأ أساساً بهدف تحقيق الحد الأدنى

ميزانية الجامعات المصرية تتضمن عدم اتساق فى توزيع بنودها على عناصر الإنفاق، إذ يحتل باب الأجور والمرتبات نسبة مرتفعة من جملة الإنفاق فى الجامعات الحكومية، فى حين يتراجع حجم الإنفاق على البحث العلمى



للجمع بين التعليم والبحث والتنوير المجتمعي. وهنا يجب الإشارة أيضاً إلى قصور مغاير في الجامعات الحكومية من حيث سعيها إلى التعدد الكبير في التخصصات العلمية دون توافر المقومات المطلوبة لتحقيق هذا التوسع غير المنضبط في التخصصات. فتركيز الجامعات على مجالات تميزها العلمي والأكاديمي وفق ما تملكه من قدرات خاصة يعد توجهاً مرغوباً لتنمية القدرات وضمان جودة الأداء. ولا يعني ذلك عدم قيامها بأنشطة متنوعة في إطار التعليم والبحث العلمي والخدمة المجتمعية، ولكنها تقوم به في مجال تميزها العلمي وبقدر ما تملكه من قدرات متطورة. ومن هنا فإن البدائل المطروحة في الوقت الراهن لتقسيم الجامعات الحكومية الضخمة متعددة التخصصات إلى مجموعة من الجامعات المتخصصة ذات التميز النسبي يمثل - وفق المنطق السابق - توجهاً مرغوباً من الممكن أن يساهم في تقليل الاختلالات الهيكلية في منظومة التعليم العالي.

ثامناً: صعوبة الإتاحة مع الجودة

يتبقى أن نناقش - في نهاية هذه الدراسة - إحدى القضايا الرئيسية المثارة على ساحة التعليم المصري في الوقت الحالي، وهي مشكلة «الإتاحة مع ضمان الجودة». إذ تبنت الحكومة المصرية - خلال النصف الثاني من القرن الماضي - سياسة رامية إلى التوسع في إتاحة التعليم للراغبين فيه. وقد تناغمت هذه السياسة مع التوجه العالمي - وقرارات منظمة الأمم المتحدة - بأن التعليم يتعين أن يكون حقاً للقادر وغير القادر على حد سواء، وأن مفهوم «ديمقراطية التعليم» يجب أن يتسع ليشمل طبقات اجتماعية أكثر شمولاً. هذا وقد نجحت مصر في تحقيق معدلات إتاحة مرتفعة - في هذا المجال - وإن كان ذلك على حساب جودة الأداء، نظراً لقصور الموارد المالية والزيادة الكبيرة في أعداد الطلاب بالجامعات الحكومية.

وفي ظل تنامي دور العلم والتكنولوجيا في الألفية الثالثة والانتقال إلى المجتمعات المعرفية وتزايد حدة المنافسة في ظل المناخ الجديد للعولمة، فقد تعاظمت الحاجة إلى الاهتمام بقضايا ضمان الجودة والاعتماد على مستوى التعليم ما قبل الجامعي والتعليم العالي على حد سواء. ومن هنا فقد طرحت وزارة التعليم العالي والحزب الوطني رؤية تعليمية مغايرة مفادها أن السياسات التعليمية للدولة - خلال المرحلة المقبلة - يتعين أن تنتقل من التركيز على إتاحة فرص تعليمية لقاعدة عريضة من الطلاب - حتى وإن لم تتحقق مستويات الجودة المرغوبة - إلى التوجه نحو تعليم يسعى إلى ضمان جودة منظومة التعليم، حتى وإن نتج عن هذا التوجه انعكاسات سالبة على معدلات الإتاحة الحالية.

والمشكلة تكمن في صعوبة تطبيق هذه الرؤية المستقبلية وعدم القدرة على تحقيق أهدافها في ظل المناخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي المصري الراهن، حيث يتعذر تقنين الجودة مع استمرار الإتاحة في ظل الأعداد الكبيرة للراغبين في الالتحاق بالمرحلة الجامعية. وإن النقص المتوقع في الأعداد المقبولة بمؤسسات التعليم العالي الحكومية - الذي سينتج عن تطبيق معايير ضمان الجودة - سيتعذر تعويضه في ظل محدودية الإنفاق القومي على التعليم والبحث العلمي.

أي أن هذا الاختلال الناجم عن صعوبة - أو تضارب - هدفي الجودة والإتاحة في إطار منظومة التعليم العالي المصرية، يمكن اعتباره إحدى القضايا الهيكلية المطلوب مواجهتها. بيد أن هذه المشكلة تتطلب وضع استراتيجية قومية يشارك بها القطاعان الحكومي والخاص ومؤسسات المجتمع المدني لتطوير الجامعات الحكومية وتعظيم إمكاناتها المالية، وزيادة الطاقة الاستيعابية للتعليم العالي من خلال زيادة حجم الاستثمارات في التعليم العالي والتوسع في الجامعات الأهلية والخاصة بما يسمح بتوزيع أفضل لخريجي المرحلة الثانوية الراغبين في استكمال دراستهم العليا. كما يتطلب الأمر وضع سياسات تتضمن الاعتماد - بشكل أكبر - على أنماط ونماذج تعليمية مغايرة تسمح بدعم التوجه نحو الجودة دون التأثير سلباً على التوسع في التعليم العالي. فمما لا شك فيه أن مراكز التعليم المفتوح والجامعات الافتراضية ومراكز التعليم الإلكتروني والتعلم عن بعد يمكن أن تمثل توجهاً مرغوباً لتحقيق هدف الجودة مع استمرار الإتاحة. ■

كتاب الزاوية

ابن العماد الأقفهسي

منابع النيل

إنه يخرج من جبل القمر، على ما ذكره الكندي. وذكره أيضاً المسعودي، وصاحب الأقاليم السبعة قال: وإنه يخرج أصله من جبل القمر من عشرة عيون: خمسة تجتمع في بطيحة، يعني مكان مسطح من الأرض، ثم يجتمع بعد ذلك الماءان. وذكر صورة جبل القمر وأنه مقوس، وعلى رأسه شراريف هكذا.

وذكر المسعودي في مروج الذهب: أن الفلاسفة قالوا: إنه يجري على وجه الأرض تسعمائة فرسخ. وقيل ألف فرسخ في عامرها وغامرها، من عمران وخراب، حتى يأتي إلى بلاد أسوان من صعيد مصر. وإلى هذا الموضع تصعد المراكب من فسطاط مصر، وعلى أميال من أسوان جبال وأحجار، يجري النيل في وسطها، فلا سبيل إلى جريان السفن فيه. وهذا الموضع فارق بين مواضع سفن الحبشة في النيل، وبين سفن المسلمين. ويعرف هذا الموضع في النيل بالجنادل والصخور. ثم يأتي (النيل) الفسطاط. فينقسم خلجانات إلى بلاد: تنيس، ودمياط، ورشيد، وإلى إسكندرية، كل يصب إلى البحر (الرومي).

قال: وأصل النيل ومنبعه من تحت جبل القمر، ومبدأ ظهوره من اثنتي عشرة عيناً. وجبل القمر خلف خط الاستواء؛ يعني الذي يستوي فيه الليل والنهار. وأضيف إلى القمر لأنه يظهر تأثيره فيه عند زيادته ونقصانه. بسبب النور والظلمة، والبدر والمحاق.

"ثلاث سلامات"

محمود الشريف

نبيل حنفي محمود

كانت أغنيات ابن مدينته: سيد درويش في طليعة ما ردده محمود الشريف أيامها من أغنيات ليطابق بين ما تعلمه عن الغناء والموسيقى وما يردده الناس من غناء، فاكتشف ولاحظ أصدقاؤه أن صوته مقبول في الغناء

** لست أدرى متى استوقفتني تلك الملاحظة، ولكن الأمر المؤكد... أن ذلك حدث منذ سنوات ليست بالكثيرة وفي أحد الأيام الأولى من شهر رمضان المعظم، كنت يومها أستمع إلى أغنية «رمضان جانا» التي لحنها محمود الشريف وتغنى بها محمد عبدالمطلب، عندما قفزت تلك الملاحظة إلى عقلي في صورة التساؤل التالي: كيف صنع محمود الشريف لحنا كهذا عاش بين الناس لأكثر من نصف قرن؟، فإذا بهاتف من داخلي يرد على تساؤلي بتساؤل آخر: وهل كانت «رمضان جانا» وحدها من بين أعمال محمود الشريف التي عاشت بين الجماهير وقاومت الزمن والنسيان؟. بدا التساؤل الأخير آنذاك كلمعة البرق، فبدد ما أحاط باسم محمود الشريف في عقلي من ظلال وحجب، ووجدت نفسي أردد أسماء ومطالع أغنيات كثيرة اختزنها عقلي في مستويات الوعي المختلفة وكانت جميعها من تلحين محمود الشريف. تذكرت يومها الأغنيات التالية: «يا حمام البر» لأحلام - «ثلاث سلامات» لمحمد قنديل - «أبيض يا وردي» لشادية - «يا سيدي أمرك» لعبد الحليم حافظ - «القلب والا العين» لسعاد محمد - «ياوله يا وله» لعبد الغني السيد - «عاد السلام يا نيل» لفايدة كامل و«الله أكبر» للمجموعة: أغنيات حفظتها الذاكرة... فهي لا تغيب ولا تنسى لأنها تشكل للمرء والأمة تراثا وهوية: محمود الشريف.. هذا العبقري.. كيف ننساه في زحمة الحياة وهجمة الأغاني الشبابية والفيديو كليب؟، وكيف أصبح لقب الموسيقار في أيامنا هذه يطلق على كل من هب ودب ومن لم يأت بواحدة، واحدة فقط - من مثل روائع محمود الشريف التي لا تموت؟، والمقال الحالي يهتم برصد أهم المراحل في مسيرة محمود الشريف الفنية ويحاول أيضا أن يجلو بعض الخصائص المميزة لإبداعاته الغنائية والموسيقية.

الميلاد والنشأة

خيمت أجواء من الحزن والقلق على الإسكندرية في صباح السبت الثالث من جمادى الأولى من سنة ١٣٣٠ هـ والموافق العشرين من أبريل عام ١٩١٢م، كان مبعث الحزن ما تناقلته الصحف عن حادث غرق السفينة تيتانك خلال رحلتها الأولى والأخيرة في مساء الاثنين الخامس عشر من أبريل ١٩١٢ م، بينما جاء القلق مما حملته الصحف من برقيات تلغرافية عن مهاجمة الأسطول الإيطالي لبعض مناطق الدولة العثمانية في اليوم السابق وهو الجمعة الموافق التاسع عشر من أبريل، ومصر أيامها كانت ولاية عثمانية، وفي نفس اليوم - الجمعة ١٩/٤/١٩١٢م - شاهد الإسكندرانيون كسوفا للشمس في الثانية من بعد الظهر، في تلك الأجواء المشحونة بالخوف والتوتر والقلق. وفي منزل صغير بحي باكوس برمل الإسكندرية، وضعت زوجة مقيم الشعائر بمسجد سيدي العجمي: حسين إبراهيم ولداً أسماه والده محمود الشريف، وعندما روعت مجموعة من المهربين واللصوص والد محمود الشريف، وكان ذلك بغية اتخاذ مسجد سيدي العجمي - الذي يقع في حي العجمي عند الأطراف الغربية لمدينة الإسكندرية - وكرا لأعمالهم المشينة، هجر مقيم الشعائر الطيب حي العجمي، واتخذ لنفسه مشتلا للزهور في منطقة بعيدة، آنذاك.. كان الفتى محمود الشريف يتلقى تعليمه الأولى في الكتّاب، وبعد أن أتم حفظ بعض من أجزاء القرآن الكريم بالكتّاب، التحق بمدرسة حجر النواتية الأولية في حيّ باكوس، وجاءت وفاة والده بعد أيام من انتظامه بدراسته الأولية لتغير من مسار حياته، حيث قرر أخوه الأكبر - والذي أصبح مسئولاً عن الأسرة - أن أوان مشاركة الصبي محمود الشريف في توفير الرزق لنفسه وللأسرة قد حان، مما ترتب عليه انقطاع محمود الشريف عن الدراسة بعد انتظامه فيها لستة أشهر فقط، ولتشهد شوارع حيّ باكوس وحاراته بعد ذلك تنقل الصبي محمود الشريف بين مهن بسيطة بحثاً عن قروش قليلة يقيم بها أوده وينفق منها على أسرته، حيث عمل لفترة كصبي جزار، وقضى فترة أخرى يدفع عربة بطيخ ينادي عليه في شوارع باكوس، لقد اكسبت خشونة البداية بين أهل باكوس من البسطاء والكادحين الفتى محمود الشريف إحساسا صادقاً بالرجولة والأصالة والقوة، وانطبعت قسوة انتزاعه من صفوف الدراسة وإلقائه المبكر لمعترك الحياة في مظهر متجهم وملامح صارمة، ولكن ذلك لم يكن إلا ستارا يخفي قلباً يفيض برقة تشبه نسمات الإسكندرية في لياليها الصيفية!.

تدور حياة البسطاء من ساكني الأحياء الشعبية المصرية حول محور واحد يتمثل في الكفاح من أجل لقمة العيش ومواصلة الحياة، وهو كفاح كثيرا ما تتخلله المشاحنات والمعارك التي تعد بمثابة ملح الحياة في تلك الأحياء، ولما كان محمود الشريف يميل للرياضة بطبعه ويتميز ببنيان جسدي قوي، فإنه إتجه منذ صباه لتعلم رياضة المصارعة حتى أتقنها، وقد جاء تحول مشاعره تجاه الفن وبالتحديد فن الغناء والموسيقى كنتيجة لموقفين، تمثل الموقف الأول في مصاحبته لأخيه إسماعيل إلى قصر الأمير عمر طوسون بحيّ باكوس في الإسكندرية، حيث كان الأخ يعمل عازفاً في الفرقة الموسيقية بالقصر، وهناك في قصر الأمير عمر طوسون صافحت مؤلفات كبار الموسيقيين الغربيين أسماع الفتى محمود الشريف، فبهرته تلك الأعمال من نوعية السيمفونية والكونشرتو والسوناتة وغيرها من أشكال التأليف الآلي العالمي، وجاء الموقف الثاني عندما استمع محمود الشريف إلى درس في العزف على العود يتلقاه حلاق من حي باكوس على يد مدرس للعود، فأرهف سمعه لما يدور في درس العود، ورويدا وجد نفسه يتدخل فيما يلقيه المدرس على الحلاق من أمور فنية، ولم يلبث حتى انضم إلى الحلاق في دروس تعلم العزف على العود، ثم أتقن عزف العود على يد اثنين من كبار الموسيقيين الإسكندرانيين الهواة هما محمد فخري وجورج طانيوس، وقطع محمود الشريف شوطا آخر في سعيه لتعلم الغناء والموسيقى مع اثنين من مطربي الإسكندرية، أولهما هو الشيخ علي الحارس والذي أخذ عنه الأدوار والموشحات القديمة، وأما الآخر فهو الشيخ فؤاد محفوظ الذي تلقى عنه علوم وقواعد الموسيقى الشرقية، وعندما استكمل محمود الشريف أدواته في فني الغناء والموسيقى، مضى يطابق بين ما تعلمه من علوم الغناء والموسيقى على ما يستمع إليه من أغنيات، وكانت أغنيات ابن مدينته: سيد درويش في طليعة ما ردده محمود الشريف أيامها من أغنيات ليطابق بين ما تعلمه عن الغناء والموسيقى وما يردده الناس من غناء، فاكتشف



لم تكن نجاحات محمود الشريف مع فرقة بديعة مصابني هي كل مطمحه من عمله بالفن، ولكن عينه كانت على السواد الأعظم من جمهور الغناء



ولاحظ أصدقاؤه أن صوته مقبول في الغناء، فانطلق يردد ما يحفظ من أغنيات سيد درويش ومحمد عبدالوهاب وغيرهم من رواد الغناء في حفلات الأصدقاء وأفراح حي بكوس، حتى شاع ذكره بين الناس في الحي الشعبي كنجم بازغ في دنيا الغناء.

بين الفرق المتجولة والصالات

كانت الإسكندرية في مطلع الثلاثينيات - وعندما احترف محمود الشريف العمل بالموسيقى والغناء - مقراً لعديد من فرق التمثيل والغناء المتجولة، جاء ظهور تلك الفرق مواكبا لبدء انهيار المسرح الغنائي بمصر في أعقاب أزمة ١٩٣٠م الاقتصادية الكبرى، ويتذكر محمود الشريف بدايته مع إحدى الفرق المتجولة بالإسكندرية فيقول عن ذلك: «ثم احترفت بالانضمام إلى مسرح شعبي في الإسكندرية، وكان هذا المسرح يحشر في رواياته ألحان سيد درويش، فبدأت أحفظها، وكان صاحب المسرح يفرض على أن أغني أثناء الاستراحة، فكنت أغني أدوار عبدالوهاب وسيد درويش وأتصرف فيها تصرفا يعجبني ويعجب الناس، ومن هنا اكتشفت أنني أستطيع أن أكون ملحناً». لم يذكر محمود الشريف في حديثه لمجلة «الراديو المصري» عن حياته اسم صاحب المسرح الذي شهد خطوته الأولى في احتراف الغناء، وإن كانت بعض المصادر قد أشارت إلى أنه عمل في عام ١٩٢٨م وعند بداية رحلته مع الغناء في فرقة «أحمد المسيري» كممثل ومطرب وملحن، وأنه تنقل بعد ذلك بين عدة فرق بالإسكندرية منها: «فرقة فوزي الجزايرلي» - «فرقة علي الحاج» - «فرقة خميس سكر» - «وفرقة فوزي منيب». وقد اتفقت جميع المصادر التاريخية التي اهتمت بالحديث عن محمود الشريف على نزوحه إلى القاهرة في مطلع الثلاثينيات بعد سنوات قضاها متنقلاً بين فرق الإسكندرية المتجولة.

ولدت فكرة انتقال محمود الشريف إلى القاهرة لعرض فنه خلال حديث له مع أحد ممثلي فرقة عمل بها لفترة من الوقت، دار الحديث في مدينة العريش التي انتهى إليها مطاف الفرقة، حيث تحدث إليه زميله الممثل حسن راشد عما يمكن أن يحققه من نجاح في مسارح القاهرة وإذاعاتها، وعندما اتخذ الشريف قراره بالذهاب إلى القاهرة، استضافه حسن راشد - وكما ذكر محمود الشريف نفسه - بمنزله في القاهرة، ثم تولى الرجل مهمة تقديمه إلى ملكة الاستعراضات: بديعة مصابني، كانت بديعة مصابني تدير آنذاك صالتين للاستعراضات، إحداهما شتوية في شارع عماد الدين الذي كان يغص بالمسارح والملاهي، والأخرى صيفية بجوار كوبري الانجليز (الجلاء حالياً) وفي الأرض التي يرتفع عليها الآن فندق شيراتون القاهرة. وبعد أن استمعت بديعة مصابني إلى غناء محمود الشريف وعزفه على العود، وافقت على ضمه إلى أعضاء فرقتها، حيث أسندت إليه مهمة المشاركة مع مجموعة أصوات الرجال في تأدية أدوار الغناء الجماعية التي تفيض بها استعراضات الفرقة، وكان أول أجر تقاضاه محمود الشريف من عمله في فرقة بديعة مصابني هو اثنا عشر جنيها في الشهر، كانت بداية عمل محمود الشريف في مسرح بديعة مصابني الاستعراضي قرابة نهاية عام ١٩٣٤م، حيث ظهر اسمه في إعلانات فرقة بديعة مصابني بصحافة ذلك العهد وبين أسماء المشاركين في برامج الفرقة منذ شهر نوفمبر في عام ١٩٣٤م.

الإذاعة والشهرة

لم تكن نجاحات محمود الشريف مع فرقة بديعة مصابني هي كل مطمحه من عمله بالفن، ولكن عينه - شأنه في ذلك شأن جميع من احترفوا الغناء - كانت على السواد الأعظم من جمهور الغناء، وهو الجمهور القابع في الريف والحضر وفي الأكواخ والقصور، ولم يكن جمهور فرقة بديعة مصابني ليمثل بأي حال من الأحوال السواد الأعظم من جمهور الغناء، وإنما كان ذلك السواد يمثل بجمهور الإذاعات التي كانت قد توحدت في محطة حكومية مع بداية عمل محمود الشريف عند بديعة مصابني. فلما أصاب الشريف ما أصاب من شهرة بألحانه لفرقة بديعة مصابني، اتجه إلى الإذاعة لتكون هي وسيلته للوصول إلى الجماهير العريضة التي خرج منها ويعتقد في قرارة نفسه أنه يغني ويلحن لها. وسرعان ما عرفت ألحان محمود الشريف طريقها إلى آذان مستمعي محطة الإذاعة المصرية الحكومية، وقد غلب قالب المونولوج الفكاهي على معظم أعمال محمود الشريف الأولى بالإذاعة، وذلك ربما لانتشار هذا القالب من خلال صالات الملاهي والمسارح المنتشرة في ذلك العهد، وربما أيضاً لأن ذلك القالب كان مقارباً لما قدمه الشريف لفرقة بديعة مصابني أو لأنه الأقرب إلى قلوب البسطاء من الناس. ومن مونولوجات محمود الشريف الفكاهية الأولى بالإذاعة نذكر ما يلي حيث يقرن باسم المونولوج اسما المؤلف والمؤدي بالإضافة إلى تاريخ الإذاعة الأولى: (معازلة في الطريق: يونس القاضي - حسين ابراهيم، ١٩٣٦/٤/١٥م) - (المرايا: أبوالسعود الإبياري - فتحية شريف، ١٩٣٧/٦/٨م) - (أنا عقلي احتار: زكي إبراهيم - فتحية شريف، ١٩٣٧/٦/٨م) - (عايزة أحبك: أبوالسعود الإبياري - فتحية محمود، ١٢/ ١٩٣٨/٢ م) - (أعيط لك: أبوالسعود الإبياري - فتحية محمود، ١٩٣٨/٢/١٢م) و(آخر الشهر: أمين صدقي - حسين المليجي ونعمات المليجي، ١٩٣٨/٢/١٢م)، لم تكن الأعمال الإذاعية الأولى لمحمود الشريف كلها مونولوجات فكاهية، ولكنها تضمنت أيضاً أول أغانيه الوطنية، ونعني بذلك أغنية «الوطن» التي كتبها أبوالسعود الإبياري وتغنت بها علية فوزي من أستوديو الإذاعة بالإسكندرية في العاشرة وخمس وخمسين دقيقة من صباح الأحد الموافق ١٩٣٧/٤/٢٥م.

لم تحقق أي من الأعمال الأولى لمحمود الشريف الشهرة لاسمه، سواء تلك التي أذيعت عبر ميكروفون الإذاعة أو غيرها من أعماله لفرقة بديعة مصابني، ولكن الشهرة جاءته عندما استمع من الشاعر الغنائي محمد عثمان خليفة الشهير بابن الليل إلى المذهب والمقطع الأول من طقطوقة جديدة، كان نص المذهب والمقطع الأول كما يلي:

بتسألني بحبك ليه
سؤال غريب ما أجاوبش عليه
الدنيا ليل ساكن هادي
وأنا غريب في الدنيا دي
وانت القمر نورك بادي
لقيت في ضيك ارشادي
إلى طريق الأمل
إلى الأماني
نورك يابدر اكتمل
في الليل هداني
بتسألني بحبك ليه
سؤال غريب ما أجاوبش عليه

أعجب محمود الشريف بكلمات ابن الليل وقرر أن يلحنها، اتخذ محمود الشريف صيغة التحميلة لوضع مقدمة قصيرة للحنه لهذه الطقطوقة، والتحميلة في الموسيقى العربية هي لحن موزون بالإيقاع تؤديه الآلات مجتمعة ويتخلل أجزاءها ارتجالات لحنية من كل آلة على حدة، قسم الشريف المقطع الأول من الطقطوقة إلى جزءين، تكون الجزء الأول منهما من البيتين التاليين: (الدنيا ليل ساكن هادي / وأنا غريب في الدنيا دي - وانت القمر نورك بادي / لقيت في ضيك إرشادي)، وقد أعطى الشريف ذلك المقطع لحناً من مقام البياتي، ثم لحن الجزء الثاني والذي يتضمن البيتين المتبقيين من المقطع الأول وهما: (إلى طريق الأمل / إلى الأماني - نورك يابدر اكتمل / في الليل هداني) من مقام الراست الشجي، وكرر الأمر نفسه مع الجزء الثاني من الطقطوقة. لقد جدد محمود الشريف في قالب الطقطوقة عندما ابتكر التقسيم السابق، لكنه في نفس الوقت أعطى للأغنية لحناً أصولياً فائق الجمال.

يضم تراث الغناء المصرى عدداً كبيراً من المونولوجات الفكاهية التى لحنها محمود الشريف وتغنى بها محمود شكوكو على امتداد سنوات كثيرة



ثنائية الملحن / المطرب

لم يكن محمود الشريف ليقتنع بما تحقق لشق الملحن فى شخصيته الفنية من نجاح، وبينما هناك شق المطرب من تلك الشخصية لم يستمع إليه جمهور الغناء الكبير بالإذاعة بعد، لذا... يمكن القول بأنه وطبقاً للنظام المعتمد بالإذاعة فى ذلك العهد، قام محمود الشريف بعرض صوته أمام لجنة اختيار الأصوات الجديدة بالإذاعة، فأجازته اللجنة ليغنى فى الإذاعة بين كوكبة من أجمل الأصوات فى كل تاريخ الغناء المصرى. نذكر من أصوات الرجال فى هذه الكوكبة أسماء مثل: محمد عبدالوهاب. فريد الأطرش. صالح عبدالحى. محمد بخيت. محمد عبدالمطلب. عبدالغنى السيد. عبداللطيف عمر. محمد صادق وعباس البليدى، وجاءت الإذاعة الأولى لمحمود الشريف كمطرب فى وصلتين قدمتهما الإذاعة فى مساء الخميس ١٣/٤/١٩٣٩م: غنى محمود الشريف من ألحانه فى الوصلة الأولى التى بدأت فى السادسة والنصف أغنيتين من تأليف السيد زيادة، كانت الأغنية الأولى هى نشيد «روح الشباب»، بينما حملت الأغنية الثانية اسم «ليلة فى الصحراء»، وفى الوصلة الثانية لمحمود الشريف فى ليلة الخميس ١٣/٤/١٩٣٩م والتى بدأت قبل الثامنة بعشر دقائق وكانت مدتها عشرين دقيقة، تغنى الشريف بنشيد وأغنية من ألحانه أيضاً، كان النشيد هو نشيد «الوطن» من كلمات أبوالسعود الابيارى، وقد سبق للمطربة علية فوزى أن تغنت به فى ٢٥/٤/١٩٣٧م، بينما كانت الأغنية وهى «روحى بتنادى عليك» من تأليف السيد زيادة.

أكد محمود الشريف -وللمرة الثانية فى بدايته مع الغناء كمطرب- انحيازه الواضح للغناء الوطنى، وذلك عندما قدم بالإذاعة وفى العاشرة من مساء يوم الاثنين ٢٢/٥/١٩٣٩م أول نشيد قومى وطنى من ألحانه وغنائه، وكان مطلع ذلك النشيد الذى كتبه السيد زيادة كما يلى:

يامصر ياكل الرجاء
أنت مهد الأوفياء
اطلبى منا الفداء
واصعدى نحو السماء
وانشدى أعلى القمم

لم تحتفظ الإذاعة وشركات الصوتيات شيئاً من الأعمال التى تغنى بها محمود الشريف فى بداية ومعظم مرحلة (الملحن / المطرب) من مشواره مع الغناء، تلك المرحلة التى استغرقت سنوات عقد كامل فيما بين عامى ١٩٣٩ و١٩٤٩م. وضاعت هذه الأعمال بين ما ضاع من تراث الإذاعة المصرية. ومن الغريب أن ما يسمعه جمهور الغناء حتى الآن من الغنائيات التى أداها محمود الشريف بصوته هو -وعلى الأرجح- آخر ما غنى بالإذاعة، والمعنى بذلك غنائياته الجميلة فى البرنامج الغنائى: «قسم»، وهو البرنامج الذى اشتهر بين الناس وطوال أكثر من نصف قرن من الزمان باسم «السلطانية»!. وقد أذيع البرنامج لأول مرة من الإذاعة فى العاشرة من مساء السبت ٤/٦/١٩٤٩م، قدم محمود الشريف فى هذا البرنامج الذى تدور فكرته حول المثل الشعبى «اجرى يا ابن آدم جرى الوحوش... غير رزقك لم تحوش»، قدم أربعة ألحان تغنى بها جميعاً وشاركته فى بعضها أصوات مجموعة المنشدين (الكورس)، والألحان الأربعة هى: موال «إن طال عليه الليل». طقطوقة «يا خال أنا خالى». واللحنان الجماعيان «هيلا هيلا» و«الدنيا أرزاق».

تكشف الأعمال الغنائية الأربعة الباقية لمحمود الشريف فى التسجيل المتداول للبرنامج الغنائى «قسم»، أن الشريف كان يغنى بصوت مقبول محمل بشحنة من الإحساس العميق والتعبير الصادق، فضلا عن أن أداءه كان يتسم بالسلاسة والدقة، ولعل السبب فى خصائص غنائه تلك يرجع إلى كونه ملحناً، لم يكن صوت الشريف فيما يستشف من أدائه لألحان برنامج «قسم» الأربعة من الأصوات الصادحة الرخيمة كأصوات كبار المطربين، ولم يكن صوته أيضاً قادراً على التطريب بنفس قدرته على التعبير والتصرف والنابعة من شق الملحن فى شخصيته الفنية. ولم يكن صوته كذلك من الأصوات العالية ذات المساحة الكبيرة والمقامات الكثيرة، وإنما دار غناؤه لهذه الأعمال فى طبقات القرار من صوته والتى تنتمى إلى فئة الباص من التقسيم الغربى لأصوات الرجال، لذلك لم يقدم أعمالاً غنائية أخرى بصوته. فيما تم رصده من أعماله أثناء إعداد هذا المقال. وبعد ألحانه الأربعة فى البرنامج الغنائى «قسم»: ولعله أدرك بعد إذاعة ذلك البرنامج فى صيف عام ١٩٤٩م، أن صوته قد أعطى كل ما يستطيع أن يعطيه فى مجال الغناء، وأنه ليس هناك ما يمكن لذلك الصوت أن يضيفه إلى تراث الغناء المصرى والعربى فى عصره الذهبى، وهو العصر الذى قلنا ونكرر أنه امتد لنصف قرن فيما بين عشرينيات القرن العشرين وسبعينياته.

ملك الأغنية الشعبية

عندما توقف محمود الشريف عن الغناء أو كاد فى مطلع الأربعينيات، كان جانب الملحن فى شخصيته الفنية ما زال ناضراً ويختزن الكثير من الأفكار والأنغام، فانطلق ومنذ السنوات الأولى من الأربعينيات ينفث طاقاته الثرية فى ألحان ترنمت بها معظم الأصوات الجميلة التى كانت تملأ سوق الغناء شدواً وترجيعاً، وقد بلغ إنتاج الشريف فيما بين الأربعينيات ونهاية الثمانينيات من القرن الماضى المئات من الألحان التى صاغها فى القوالب الآتية: الطقطوقة - الموال - المونولوج الفكاهى - النشيد - القصيدة - البرنامج الغنائى والمقطوعة الموسيقية، ويمكن القول بأن جنس الأغنية الشعبية والتى تجىء فى القوالب الثلاثة الأولى (الطقطوقة - الموال والمونولوج الفكاهى) كان هو الغالب على إنتاج الشريف من الألحان، حيث قدم عبر مشواره مع الغناء عشرات بل مئات من الأغنيات الشعبية التى تناقلتها الألسن منذ إذاعتها الأولى واستقرت فى القلوب حتى أيامنا هذه.

اختلف أهل الغناء كثيراً حول مفهوم الأغنية الشعبية، وبالرغم من ذلك فقد أظهر الخلاف نقاط اتفاق يمكن أن تشكل تعريفاً أولياً للأغنية الشعبية، فالأغنية الشعبية - من وجهة نظر الجميع - هى أغنية تتكون من كلمات بسيطة مما يردد على ألسنة الناس وفى قالب نظمى بسيط، وتلحن هذه الكلمات البسيطة بألحان سهلة التراكيب النغمية مما يمكن أن تردده أصوات الناس العادية ولا يتطلب أداء هذه الألحان أصواتاً مدربة أو موهوبة، لقد كان سيد درويش خير مثال على نقاط الاتفاق هذه حول الأغنية الشعبية، فقد خرج كما نعرف جميعاً من بين جماهير الشعب، ولما كان فناناً صادقاً وموهوباً بالفطرة، فإن أغنياته تميزت بكلماتها البسيطة وتراكيبها السهلة وألحانها التى تتردد على شفاه الجميع بسهولة.

اختلف إسهام الشريف بالتلحين فى فرعى الأغنية الشعبية الآخرين عن إسهامه فى الفرع الرئيسى وهو الطقطوقة، والمعنى بالفرعين الآخرين من الأغنية الشعبية هما المونولوج الفكاهى والموال، فبينما غلب قالب الطقطوقة على معظم ما قدم من أغنيات شعبية خلال مشواره مع الغناء، فإن ما قدمه من مونولوجات فكاهية يجىء تاليا فى مجال الأغنية الشعبية لما قدمه من طقاطيق، ويحل الموال ثالثاً فى ترتيب القوالب التى استخدمها الشريف فى معالجة الأغنية الشعبية. ويرجع اهتمام الشريف بتقديم المونولوجات الفكاهية إلى فترة بدايته مع الفرق المتجولة بالإسكندرية وغيرها من مدن ومسرح بديعة مصابنى بالقاهرة، حيث كانت المونولوجات الفكاهية تشكل آنذاك ركناً أساسياً فيما تقدمه الفرق المتجولة وفرقة بديعة مصابنى من غناء، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى كون هذا القالب الغنائى أقرب إلى أذواق الغالبية من جمهور الغناء فى ذلك العهد، تلك الغالبية التى تشكلت فى تلك الفترة من العمال وصغار الموظفين والمهنيين، مما جعل رواج

هذا العبقرى.. كيف نسيناه فى زحمة الحياة وهجمة الأغانى الشبابية والفيديو كليب؟. وكيف أصبح لقب الموسيقار يطلق على كل من هب ودب



قالب المونولوج الفكاهى فى تلك الفترة عظيماً، ولنضرب مثالاً هنا بواحد من أوائل المونولوجات الانتقادية الهادفة التى قدمها محمود الشريف، ونعنى بذلك مونولوج «تصفر... تخضر... تحمر» الذى كتبه أبوالسعود الابيارى ولحنه محمود الشريف وتغنت به ثريا حلمى للمرة الأولى من الإذاعة فى الخامسة والربع من مساء الاثنين ١٠/١/١٩٤٤م، ويبدأ المونولوج بالمذهب والمقطع التاليين:

وشك أحيانا يصفر

وساعات يخضر ويحمر

علشان إيه والنبى ليه

قلبنا عندك بعد الشر

تلهف من واحد سلفية

وتماطل شهر وشهرين

فشلك يوم ومعاك نقدية

تحتار تهرب وتروح فين

إن قال لك سلامات تصفر

وأما يقول لك هات تخضر

وتشوف الوصلات تحمر

عينك ما تفتحش ف عينه

ولزومه ايه

ربح نفسك وادفع دينه

يا فلان بيه ولا تصفر... ولا تخضر... ولا تحمر

يعد محمود شكوكو أكثر الأصوات الغنائية تقديماً لمونولوجات محمود الشريف الفكاهية. ومن أوائل المونولوجات التى قدمها الشريف لشكوكو المجموعة التالية التى أذيعت من الإذاعة المصرية فى السابعة وعشر دقائق من مساء الاثنين ٣١/١/١٩٤٤م، كانت هذه المجموعة من المونولوجات التى تغنى بها محمود شكوكو. كما كانت تعرفه الإذاعة فى الأربعينيات - من الحان الشريف تتضمن الآتى متبوعاً باسم مؤلفه: (الجدعنة: فتحى قورة) . (أدم القبض: خليل مواقى) . (الحق على: إبراهيم جكلة) و(حدق وليق: محمد الشاطبى)، وتتميز هذه المونولوجات بالمواقف الضاحكة وتعتمد كثيراً على المفارقات اللغوية التى تدفع المستمع اليها للضحك والإغراق فيه، ومن خلال هذا الضحك يعالج الشاعر الافكار التى يريد أن يطرحها على مستمعى المونولوج.

يضم تراث الغناء المصرى عدداً كبيراً من المونولوجات الفكاهية التى لحنها محمود الشريف وتغنى بها محمود شكوكو على امتداد سنوات كثيرة بعد المونولوجات الأربعة المشار إليها هنا قبلاً، ومن هذه المونولوجات نذكر الآتى: «ياسلام يا خوجا» من تأليف أحمد فهمى وجاء بفيلم «تاكسى حنطور» الذى عرض لأول مرة فى ٣/٩/١٩٤٥ م - «الأباريق» الذى قدمته الإذاعة مع مونولوج «ورالك ورالك» لأول مرة فى ٢٥/٢/١٩٤٦م (المونولوجان من تأليف فتحى قورة) - «حمودة فايت يابنت الجيران» من كلمات عباس كامل وتضمنه فيلم «صاحب بالين» الذى عرض لأول مرة فى٢٣/١٢/١٩٤٦م (اشتركت سعاد مكاوى مع شكوكو فى أداء المونولوج) - «الحارس الله» من تأليف أحمد فهمى وأذيع فى ٢٩/٦/١٩٥٥م و«جرحونى وقتلوا الأجزاخانات» الذى كتبه محمود الكمشوشى وقدمته الإذاعة لأول مرة بعد خمس وثلاثين دقيقة من الساعة الحادية عشرة فى صباح الاثنين ١١/٨/١٩٥٨م. لقد حقق كثيرا مما لحنه الشريف لشكوكو من مونولوجات نجاحاً ساحقاً لم يتوفر ولو جزء منه لأغنيات جميلة تغنت بها أكبر الأصوات الغنائية. ولعل البعض من كبار السن ما زال يذكر ترديد المصريين وراء شكوكو لمونولوجات مثل «الأباريق» و«حمودة فايت». لقد حقق هذان المونولوجان نجاحاً يفوق الوصف، حيث رددهما الجميع بمصر، وتغنى بهما محمود شكوكو فى حفلاته ولسنوات طوال.

الغناء للوطن

أكد محمود الشريف منذ خطواته الأولى فى عالم الغناء المصرى انحيازه الواضح للغناء لمصر أو للوطن، وقدم نشيدان وطنيان بين أعماله الأولى، وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م لتسقط النظام الملكى بمصر، غير أهل الغناء معتقداتهم بين يوم وليلة: فالأغانى التى كانت تضاف فى كل عام إلى رصيد مكتبة الإذاعة من خلال احتفالات المناسبات الملكية، تحولت ببساطة الى أغان ثورية عندما تم استبدال اسم الملك بالحركة (وهو الاسم الأول للثورة)، وقد شارك محمود الشريف فى مجموعة الأغنيات التى أطلقها أهل الغناء بعد أيام قليلة من نجاح الثورة للترحيب بالنظام الجديد وإدانة النظام السابق. جاء مضمون أغنيات الشريف الأولى بعد نجاح ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م مقارباً فى مجمله لمضمون أغلب الأغنيات التى قدمت فى نفس الفترة، ومن بواكير الأعمال الغنائية التى لحنها محمود الشريف بعد نجاح الثورة نذكر المجموعة التالية موضحاً بها أسماء الشعراء والأصوات الغنائية وتاريخ الإذاعة الأولى: (مونولوج «قف من أنت»: أبوالسعود الإبيارى - ثريا حلمى، ٢٧/٩/٢٠٠٥م) - (يا ابن مصر: الصول محمود جاد - محمد عبدالمطلب، ٢٨/٩/١٩٥٢م) - (جيش الكرامة: عبدالفتاح مصطفى - محمد عبدالمطلب، ٢/١٠/١٩٥٢م) و(قولوا بإذن الله: إبراهيم رجب - عباس البليدى: ٧/١٠/١٩٥٢م).

قدم محمود الشريف خلال السنوات الثلاث الأولى من عمر الثورة مجموعة صغيرة من الأغنيات الوطنية، نذكر من هذه المجموعة الآتى: «إلى وطنى» التى كانت من نظم الدكتور مختار الوكيل وغناء فايدة كامل - «ودينا على أسوان» التى كتبها على زهران وانطلق بها صوت محمد قنديل ونشيد «ارفع راسك» الذى أنشده سيد إسماعيل وكانت كلماته لمأمون الشناوى، إن أغنيات كهذه وربما غيرها لم تترك أثراً فى سجلات الغناء الوطنى وانمحت من ذاكرة الناس. ولكن الشريف قدم أيضاً أغنيات وطنية أخرى تعد بمثابة معالم لتاريخ وتطور الأغنية الوطنية المصرية، ومن هذه الأغنيات ما قدمته الإذاعة لأول مرة قبل عشر دقائق من منتصف ليل الاثنين الموافق ٢١/١١/١٩٥٥ م، ليلتها قدمت الإذاعة - وللمرة الأولى - رائعة الشريف (وطنى)، كانت هذه الرائعة من تأليف احمد مخيمر وشدت بها نجاة الصغيرة مع عبدالرءوف اسماعيل، وفيما يلى نقدم الأبيات التالية التى تشكل المقطع الأول من هذه الأغنية التى تزداد بهاء مع كر الأيام:

وطنى وصباى وأحلامى

وطنى وهواى وأيامى

ورضا أمــــــــى

وحنان أبـــــــى

وخطى ولـــــــدى

عند اللعــــــب

يخطو برجاء بســــام

وطنى وصباى وأحلامى

مثلت قصيدة «وطنى» للرباعى (مخيمر - الشريف - نجاة وعبدالرءوف) نهجاً جديداً فى صياغة الأغنية الوطنية، حيث تخلص الشاعر ومن بعده الملحن ومن ثم المؤديان من المباشرة والصياح السائدين فى وطنيات هذه الفترة، لذلك جاءت المعانى جديدة والصوت رائقاً وواثقاً، لقد اعتقد الناس عندما ذاعت تلك الأغنية ان صوت عبدالرؤوف اسماعيل هو صوت المطرب الصاعد إلى آفاق الشهرة أيامها: عبدالحليم حافظ، وظل هذا الاعتقاد مسيطراً على البعض حتى فى عقد الستينيات، وذلك للتشابه الكبير والواضح بين صوتى المطربين، ومن أغنيات الشريف التى تعد من علامات تطور الأغنية الوطنية المصرية نذكر أيضاً أغنيته الرائعة «يا حمام البر» تلك الأغنية التى قدمتها الإذاعة المصرية ولأول مرة مساء يوم الاثنين الموافق ١٨/٦/١٩٥٢م، جاءت الأغنية بين مجموعة من الأغنيات أطلقتها الإذاعة ابتهاجاً برحيل آخر جنود الاحتلال البريطانى لمصر فى يوم الأربعاء الموافق ١٣/٦/١٩٥٦م.

كانت صياغة صلاح جاهين العبقرية لهذه الأغنية باستخدام بعض المأثورات

لم يجد الشريف فى حياته درويشاً واحداً ينصفه من أولئك الذين أحلوا السرقات الفنية لغيره أو هللوا لاستعلاء الصغار



الشعبية والوطنية، هى كل ما يحتاجه محمود الشريف ليضع لهذه الأغنية واحداً من أجمل وأعذب الألحان الغنائية (الميلودية) فى تاريخ الغناء المصرى كله، ولينطلق بذلك اللحن البالغ العذوبة والشجن صوت المطربة أحلام الذى جمع فى نبراته بين العاطفية والشعبية، مما جعلها وبحق أجمل أغنيات تلك المرحلة من نضال الشعب المصرى.

لم تهنأ مصر بجلاء الاحتلال البريطانى أكثر من أربعة أشهر ونصف الشهر، حتى هاجمت قوات العدوان الثلاثى الأراضى المصرية فى يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٩٥٦م، فسطرت الأغنية الوطنية المصرية واحداً من أمجد فصول تاريخها عندما تصدت لمقاومة العدوان، وبالطبع لم يتخلف محمود الشريف عن الإسهام فى تسطير هذا الفصل، حيث قدم على وقع دوى غارات طائرات العدوان على القاهرة أحد أهم أناشيد المرحلة والغناء الوطنى المصرى فى كل عصوره، والمعنى بذلك هو نشيد «الله أكبر».

اختار محمود الشريف إيقاع المارش لنشيد «الله أكبر»، وجعل لحن النشيد الغنائى من مقام عجم مع تلوين درجة المقام وكذلك التلوين الكروماتيكى، لقد استغرق انتاج هذا النشيد يوماً واحداً انقضى فى تأليفه وتلحينه وتوزيعه - الذى قام به عطية شرارة - وتحفيظه لمجموعة أصوات الرجال بالإذاعة وتسجيله فى النهاية، وبالرغم من ذلك حقق النشيد نجاحاً امتد حتى أيامنا هذه، تمثلت أول مظاهر هذا النجاح فى إقبال الجماهير عليه منذ إذاعته الأولى، وجاء ثانى هذه المظاهر يوم أن فاز هذا النشيد بالمركز الأول فى استفتاء أجرته مجلة «الإذاعة» مطلع عام ١٩٥٧م، ويتبقى ثالث هذه المظاهر وأهمها على الإطلاق فى استمرار بقائه بأسماع الناس، وذلك عندما اختارته دولة ليبيا الشقيقة سلاماً وطنياً لها منذ عام ١٩٦٩م وحتى الآن.

واكبت أغنيات محمود الشريف الوطنية جميع المناسبات الوطنية التى كانت بمثابة السمة المميزة لمصر الخمسينيات، ومن هذه المناسبات نذكر كلاً من الوحدة بين مصر وسوريا وبناء السد العالى وتسليح الجيش المصرى، لقد سجلت تلك الأغنيات التى لحنها محمود الشريف وتغنت بها أصوات كثيرة كفاح وآمال المصريين خلال حقبة من أهم وأحرج حقب تاريخ مصر الحديث. وأفصحت هذه الأغنيات فى نفس الوقت عن مفهوم الأغنية الوطنية عند محمود الشريف، فإذا به مفهوم يحتوى هموم الوطن والمواطن ويسخر مواهب المشاركين فى إنتاج الأغنية للتغنى بتاريخ الوطن ونضال الشعب.

تكريم ورحيل

إن الدارس للغناء المصرى فى عصره الذهبى لا يجد ملحناً أنتج قدر ما أنتج محمود الشريف من أغنيات شعبية ووطنية، وكأن رسالة الرجل فى الحياة كانت هى «الغناء للشعب والوطن». لقد كان محمود الشريف صاحب موهبة متفردة بين مواهب عدة تميز بها ذلك العصر، ومما يعلى من قيمة هذه الموهبة أن الرجل لم يضعف - ولو لمرة واحدة - أمام إغراءات الاقتباس أو الأخذ من الغرب. كانت إبداعاته جميعاً - وإن تسربل بعضها بأستار التوزيع الموسيقى - محلية قحة تعبر عن البسطاء من الناس، ولنأخذ هنا مثالاً واحداً لفكرة محلية واحدة أعطت لواحد من ألحانه ملامح عبقرية لا مرية فيها، فعندما أراد محمود الشريف أن يعبر فى رائعته «يا حمام البر» عن صوت الحمام ومرحه الذى يعرفه كل فلاح مصرى، فإنه أعطى دوراً منفرداً (صولو) لآلة القانون فى الفواصل الموسيقية بين مقاطع الأغنية، حيث حاكى العازف لهذا الدور المنفرد على آلة القانون صوت هديل الحمام، إن أمثال هذه الفكرة فى أعمال محمود الشريف أكثر من أن تعد أو تحصى، ولقد تعددت القوالب الموسيقية التى أفرغ فيها محمود الشريف أعماله، وبالرغم من ذلك ظل المسرح الغنائى هو حلم مشواره الطويل مع الغناء، وهو ما عبر عنه فى عشرات البرامج الغنائية الإذاعية والمسرحية التى اشتهرت بين الناس وواظب الشريف على تقديمها، ومن هذه البرامج ما تحدثت عنه صحيفة الأهرام فى الصفحة العاشرة من عددها الصادر فى يوم الاثنين الموافق ١٩٦٠/٧/٤م، حيث أوردت الصحيفة فى تلك الصفحة خبراً عن أوبريت غنائى يدعى «ثورة بلدنا» يجرى الإعداد لتقديمه فى عيد الثورة الثامن (١٩٦٠/٧/٢٣م)، وقالت الصحيفة فى ثنايا الخبر أن خمسة ملحنين يعكفون على تلحين الصور الغنائية للأوبريت وهم: عبدالحليم على - محمود الشريف - سيد مصطفى - حسين جنيد وسيد اسماعيل، إن أحداً يتأمل أعمال محمود الشريف أو يحللها، لن يخرج من ذلك سوى بانطباع واحد عن غلبة الأصالة على كل ما أنتج من غناء وموسيقى.

لكل ذلك ولأسباب كثيرة يضيق المجال بذكرها، تعددت أشكال التكريم الذى لقيه محمود الشريف عبر مشواره مع الغناء، فمن هذه الأشكال عضويته لكثير من اللجان والهيئات المهتمة بالموسيقى، ومن ذلك عضويته فى كل من: لجنة الموسيقى بالاتحاد الاشتراكى العربى - لجنة معهد الموسيقى العربية - جمعية المؤلفين والملحنين بباريس والقاهرة، بالإضافة لانتخابه وكيلاً لنقابة الموسيقيين لسنوات طوال، ومن أشكال التكريم الذى لقيه محمود الشريف ما أهدى إليه من أوسمة وميداليات وشهادات مثل: وسام العلوم والفنون المصرى من الطبقة الأولى - وسام الاستحقاق السورى - وسام الكوكب الأردنى - ميدالية السد العالى - ميدالية الجلاء - ميدالية معركة بورسعيد - شهادات تقدير من الكلية الحربية والكلية الجوية - شهادة تقدير من الإذاعة فى الاحتفال بيوبيلها الذهبى (١٩٨٤) وشهادة تقدير فى يوبيل التليفزيون الفضى (١٩٨٥)، وقد نال محمود الشريف جائزة الجدارة فى الفنون لعام ١٩٧٨م، بينما تأخرت عنه جائزة الدولة التقديرية - كالعهد بها - حتى جاءته فى عام ١٩٩٠ م. كانت الأمراض قد أقعدت محمود الشريف فى تلك الأيام من صيف عام ١٩٩٠م عندما أدركته الجائزة، حتى أنه لم يستطع الخروج من بيته لاستلام الجائزة التى تأخرت عنه كثيراً، فذهبت ابنته الوحيدة السيدة إكرام لتتلقى الجائزة نيابة عن الفارس الذى أقعده المرض، وفى يوم الأحد الموافق ١٩٩٠/٧/٢٩ م لقى محمود الشريف وجه ربه فى شقته الكائنة بإحدى البنايات القريبة من قصر عابدين، وهى الشقة التى استقر بها قبل سنوات طويلة ولم يستبدلها بشقة أكبر أو بعمارة يبنيها، مات محمود الشريف فى شقته المؤجرة بين ذراعى وحيدته إكرام، وليدفن بعد ذلك بمسقط رأسه: مدينة الإسكندرية وطبقاً لوصيته.

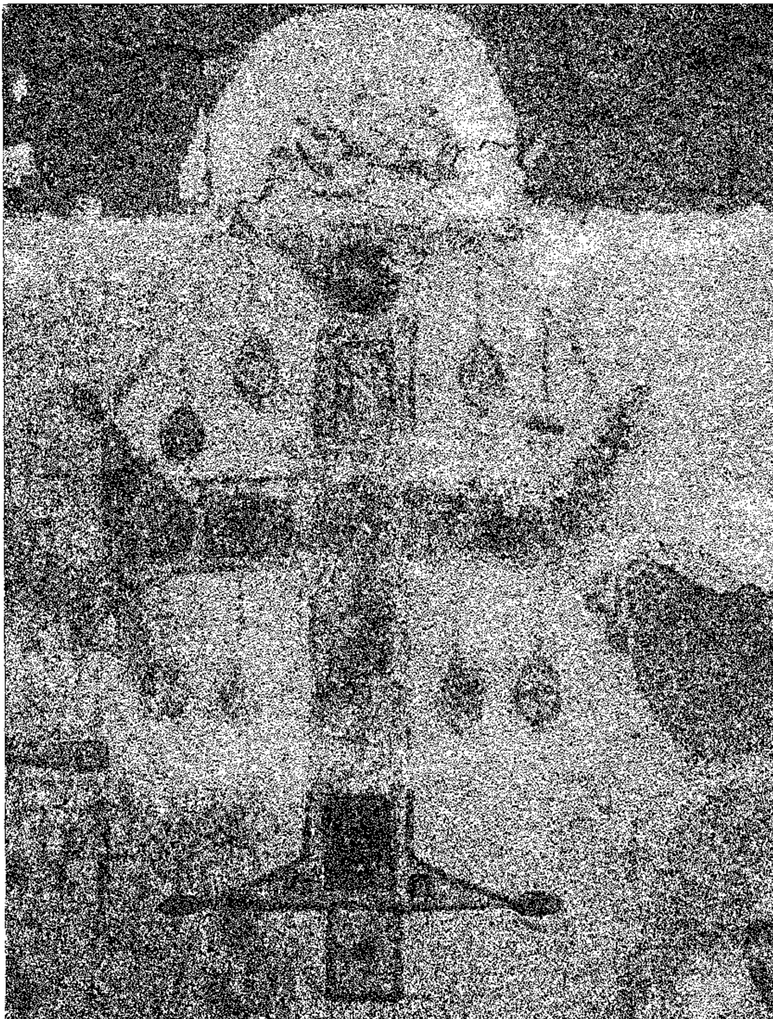
لم يجد محمود الشريف فى حياته درويشاً واحداً من أولئك الذين أحلوا السرقات الفنية لغيره أو من الذين هللوا لاستعلاء الصغار، لم يجد الرجل واحداً من هؤلاء ينصفه ويكتب عنه ولو سطراً واحداً فى حياته، ولعل السبب فى ذلك هو ما فرضه الرجل على حياته الخاصة من عزلة، بالإضافة إلى ما أثر عنه من صراحة وحدة، وإنما اندفع الجميع ليكتبوا عنه بعد رحيله ممتلئنا بالغصة من تأخر التكريم ونكران الجميع، وهى كتابات تأتى وليدة الحدث وتعبر عن انفعالات وقتية، وعندما تنقشع سحابة الحزن التى يخلفها الرحيل، يجد المرء أن شيئاً حقيقياً لم يصنع لتكريم من رحل، والمقال الحالى إن هو إلا مقتطفات من بعض فصول كتاب يجرى إعداده الآن عن محمود الشريف، كتاب نرجو أن يفى الرجل بعض حقه الذى ندين له به جميعاً.

صحراء الرهبنة

مينا بديع عبد الملك

كيليا ثاني أقدم تجمع رهباني في العالم. وقد بنيت كنائسها باستخدام الطوب الرملي. وأكثر مبانيها قدماً يعود للقرنين الرابع والخامس الميلاديين

رسم للصليب به عدد من الزخارف



■ ■ تعد منطقة كيليا[*] (أو القلالي) هي ثاني أقدم تجمع رهباني في العالم. وقد أقامها الأب آمون عام ٣٣٥ ميلاديا أي بعد عشر سنوات من تأسيسه منطقة نتريا للرهبنة. وتقع كيليا في منتصف المسافة بين مدينتي دمنهور والسادات.

كان الغرض من تأسيس منطقة كيليا توفير مكان إضافي للرهبان الذين تزايد عددهم في منطقة نتريا وضاق بهم المكان بحيث أصبح غير مناسب للصلاة والوحدة الانفرادية، بالإضافة إلى إيجاد موقع للتوقف بين نتريا وصحراء الأسقيط الموحشة (وادي النطرون حاليا، والذي يعد ثالث أقدم تجمع رهباني في العالم بعد كيليا).

هذه المنطقة التي ازدهرت منذ القرن الرابع الميلادي وحتى السابع الميلادي عانت من هجوم الزراعات العشوائية عليها والتي قضت على كثير من الآثار المتبقية فيها، وجاء ذكرها في كتابات المؤرخين والرحالة مثل: يوحنا كاسيان، روفينوس، بلاديوس، ساويرس بن المقفع مؤلف كتاب تاريخ البطاركة، وكتابات اليعقوبي في القرن التاسع الميلادي، والرحالة العربي البكري في القرن الحادي عشر الميلادي والتي ذكرها كمكان مهجور.

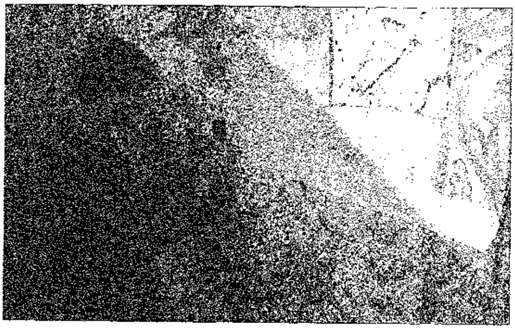
في عام ١٩٣٢ قام عالم الآثار الايطالي بريشيا Bereccia برسم خريطه للمنطقة، ثم دي كوسون De Cosson عام ١٩٣٧ الذي نبه إلى أهمية منطقة «قصور الربيعات» بكيليا. لكن الموضوع لم يأخذ شكلا جديا إلا في عام ١٩٦٤ على أيدي أعضاء بعثة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة وبعثة جامعة جنيف بسويسرا حيث اكتشفوا وحددوا المكان وقاموا بالحفائر في أكوام مختلفة من الآثار وتم ترقيم كل كوم منها، كما تم تحديد حوالي

لكل قلاية رغم بساطتها، حجرة للصلاة وأيضا لكي يمارس فيها الراهب قوانينه التي تشمل الواجبات التي ينبغي عليه أن يؤديها يوميا. وتشتمل بعض الوحدات على مبان ضخمة مثل أبراج المأوى (الحصون) والكنائس

١٥٠٠ كوم أثري للنساك في مساحة ستة عشر كيلومترا مربعا.

قلاية لكل راهب

كان موقع كيليا - مع بداية نشأته يغطي مساحة أكثر من مائة كيلومتر مربع، ويشتمل على خمسة مجمعات من المباني تسمى قصورا وهي: قصور الربيعات، قصور العزيلة، قصور عيسى، قصور الحجيلة، قصور العريمة. هذه المجمعات الكثيفة تفصلها أحيانا مسافة تقل عن عشرين مترا، مما يوحي للنظرة الأولى أنها مدن أو قرى أقيمت بطريقة عشوائية لم يخطط لتطورها. إلا أن حقيقتها قد تكشفت عند التنقيب في أحد هذه المجمعات الرهبانية، فقد وجد أن كل مبنى عبارة عن وحدة متكاملة قائمة بذاتها، فهي تحتوي على بئر وحديقة داخلية ومكان للصلاة وكذلك مكان للتخزين. والمباني الوحيدة ذات الطابع الاجتماعي هي بيوت الصلاة التي يتراوح عددها بين الواحد والثلاثة لكل تجمع، وتمثل جزءا مكملا للتجمع. روعي في انتشار التجمع الحفاظ على النظام الأساسي للقلاية، بالرغم من أن بعض المساكن كانت متراصية الأطراف ككهوف مظلمة تحت الأرض التي كان يأوي إليها رهبان مصر الأوائل.





أعضاء من البعثة السويسرية يعملون بالمنطقة

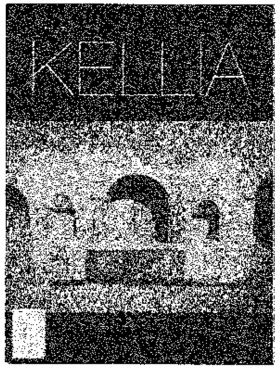
وقد بنيت قلالي وكنائس كيليا باستخدام الطوب الرملي المصنوع من الرمال المجاورة والذي يعتمد تماسكه على درجة تركيز الأملاح المعدنية الموجودة به، كما غطيت الحوائط الخارجية بطبقة من الملاط تقيها من هطول مطر الشتاء المتكرر، أما حوائط الحجرات فقد غطتها طبقة من الملاط الخشن وزينت ببعض الرسومات. واستخدمت طريقة البناء هذه أيضا في المباني الكبيرة ذات العقود نظرا لندرة الحصول في مصر على الخشب اللازم لإقامتها.

أكثر المباني قدما من القرنين الرابع والخامس طمرت تحت الرمال، وحجراتها من الحجم المتوسط تصلها بعضها ببعض مجموعة من الممرات الضيقة. ومن المعتقد أن الرهبان قد قاموا بأنفسهم ببناء القلالي الأولى، وكانت زخارفها بدائية لا تتعدى بضعة أشكال على سطح الجدران، تمثل في معظمها رسم الصليب، الذي يعد الرسم المشترك في أنحاء مباني منطقة كيليا. كانت هذه القلالي القديمة يسكنها راهب واحد فقط لديه رغبة صادقة في حياة الوحدة. هذه القلالي قليلة العدد، وبقاياها القليلة صمدت عبر الزمن.

بحلول القرن السادس أصبح بناء التجمعات أكثر مشقة، كما أن اتساع الحجرات يدل على رغبة شاغليها في درجة أكبر من الراحة. وعلى هذا أصبحت طرق البناء أكثر تعقيدا مما تطلب إسناد العمل إلى حرفيين حقيقيين: من معماريين ونجارين ونقاشين. وبذلك أصبح المجمع التقليدي مستطيل الشكل تحيطه جدران سميكة ترتفع عدة أمتار تعزله عن العالم الخارجي وتحميه من العواصف الرملية. وتبلغ مساحة المباني ٢٥ - ٣٥ مترا، ويحتل فناؤها الجزء الأكبر منها. وتوجد في الفناء تجهيزات متعددة كالبئر المحاطة بقنوات عديدة مصنوعة من الطوب المحروق والتي توزع الماء على الحديقة الداخلية وتمتد أحيانا إلى حديقة خارجية. وتشغل حجرة المعيشة الركن الشمالي الغربي والتي تعتبر قلب المبنى حيث تشتمل على وحدة أو أكثر تتكون كل منها من حجرات عديدة يمكن الوصول إليها عن طريق باب في الفناء. وهكذا أصبح لكل راهب في هذا المجمع قلايته الخاصة التي يمكن اللجوء إليها للاعتزال عن بقية الرهبان.

وتحيط القلالي بالكنيسة التي تعتبر أهم المباني، والتي يسمح في بعض الأحيان للزائرين بدخولها بعد أن يمر الزائر بعدد من الحواجز التي يشرف عليها كبير رهبان التجمع الرهباني - يطلق عليه اسم «ربيتة الدير» - ومنها البوابة الخارجية التي تغلق من الداخل. ومن خلال مجموعة من الأبواب يمكن أن يصل الزائر إلى الرواق المزين بالزخارف المتنوعة. ومنه ينزل إلى ممر مزود بباب ذي ضلفتين يؤدي في النهاية إلى الكنيسة، وذلك إذا كان قد سمح له أصلا بالزيارة، إذ إنه من المعتاد في خلال فترة الأصوام تغلق الأديرة أبوابها حتى يتفرغ الآباء الرهبان للعبادة وعدم الانشغال بزيارات وأحاديث الزوار وأخبار العالم المتنوعة.

لكل قلاية رغم بساطتها، حجرة للصلاة وأيضا لكي يمارس فيها الراهب قوانينه التي تشمل الواجبات التي ينبغي عليه أن يؤديها يوميا، وتشتمل بعض الوحدات على مبان ضخمة مثل أبراج المأوى (الحصون) والكنائس. ولم يظهر الحصن المربع الشكل ذو الجدران السميكة في كيليا حتى القرن السابع. وقد يرتفع الحصن إلى سبعة أو ثمانية أمتار، وملحق به كوبري متحرك مرتفع عن الأرض بحيث يمكن الوصول إليه عن طريق سلم في الفناء. ومن الواضح أن الغرض من بناء الحصون هو الالتجاء



إليها درءاً للأخطار التي تمثلها هجمات بدو الصحراء بغرض السرقات.

عانت منطقة كيليا من نقص الأخشاب والطوب المحروق والملاط أو الجير وتم استخدام الطوب المحروق في تدعيم أماكن حفظ المياه وغيرها من الأماكن المعرضة للماء. وجاء على لسان أحد رهبان منطقة كيليا، وهو الأب بيمن Pimen . ذكر للأخشاب حينما قال: (لم نتعلم أن نغلق الأبواب الخشبية وإنما بالأحرى فمنا).

عالم من الفخار

استخدم الصانع في منطقة القلالي كثيرا من الأوعية الفخارية داخل الجدران. ويرجح الباحثون أن استخدام هذه الأواني ربما لتقليل الرطوبة في تلك المنطقة أي لعزل المبنى عن الخارج. وهنا تكشف الباحثة السويسرية ماري-ايزابيل كاتن Marie-Isabelle Cattin الكتاب عن فخار منطقة كيليا. فقد عوض الفخار النقص الشديد في المعادن والأخشاب. فهو يمثل نحو ٩٨٪ من مجموع متاع الرهبان في ذلك التجمع، وكانت قد جرت العادة في منطقة كيليا أن يتخلص الرهبان من الفخار القديم أو المكسور في مكان مخصص لذلك مما أدى إلى تراكم أنواع من الفخار فوق بعضها كل منها يمثل عصرا أو فترة من الزمن مما يمكن العلماء من دراستها.

ومن الاستخدامات التي شاعت للسيراميك من هذا الفخار استخدامه في أرضية المطبخ بما يشبه السيراميك الحديث، كذلك تم تصنيع جميع أدوات المطبخ من هذا الفخار مثل أوعية الطهي أو أوعية ذات أغطية لحفظ الطعام، وأوعية تخزين الماء والأطباق والأقداح والمغارف، والأوعية ذات المسامية العالية لحفظ الحبوب، وبعض الأدوات الكنسية مثل قارورة زيت الميرون (أو الزيت المقدس) وعلبة البخور. كما شهدت مباني كيليا تجهيزات متقدمة من الصرف الصحي باستخدام مواسير من الفخار مكونة من قدور طويلة بدون قاع داخل بعضها البعض تسير عبر الحوائط لطرد مياه الصرف خارج المباني للتهوية وتلطيف الجو. وقد بلغ فهم قاطني منطقة كيليا لطبيعة البيئة أن استخدموا كسر الفخار في تكسية الجزء السفلي من حوائط المباني لمقاومة عوامل التعرية وخاصة في حالة هطول الأمطار الشديدة.

كنائس المحبة

لم يتبق من كنائس منطقة كيليا إلا القليل جدا، فمن بين ١٥٠٠ مبنى في كيليا لم تتمكن البعثة السويسرية من التعرف إلا على عشرة منها فقط، وقد أقيمت الكنائس دائما داخل أسوار المجمعات القديمة، وجرت العادة على أن يقتصر استخدامها مرة واحدة في الأسبوع من ليلة السبت وحتى فجر الأحد لأداء صلوات القداس الإلهي لجميع الرهبان من قاطني منطقة كيليا. وكانت الكنائس تتميز ببساطة تخطيطها البدائي، فهي تتكون من صحن كبير ذي عقود، مقسم إلى جناحين أو ثلاثة، تمتد في اتجاه الشرق لتصل إلى الهيكل الذي يوجد على جانبيه خورسان في الناحيتين البحرية (أي الشمالية) والقبلية (أي الجنوبية).

وتتصل بالكنائس أحيانا عدة حجرات منفصلة عن بقية المجمع، ومن المرجح أنها كانت تستعمل في خدمة حاجات الكنيسة، وبالأخص في إعداد وليمة الأغابي Agapi (كلمة يونانية تعني المحبة)، وهي الوجبة التي يشترك فيها جميع أعضاء المجمع المتواجدين في صلاة القداس الإلهي.

بازدحام المنطقة بالوافدين في النصف الثاني من القرن السابع، حدثت طفرة في البناء في معظم مناطق كيليا، فتم تجديد وتوسيع التجمعات القديمة، فبلغ اتساع الحجرات إلى المدى الذي يسمح به البناء بالطوب الرملي، وبلغ اتساع عقود صالاتها إلى أكثر من ثمانية أمتار، وغطيت جميعها بطبقة من الملاط.

وبحلول القرن الثامن الميلادي، لم يتبق من مباني كيليا سوى مبان قليلة يسكنها رهبان مسنون يقدمون خدماتهم للحجاج المسلمين المارين بهذا الطريق. وفيما بعد استخدمها البدو للاحتماء بها من تقلبات الجو إلى أن طمرتها الرمال وظلت المنطقة في صمت وسكون طوال اثني عشر قرنا من الزمان !! حتى تم اكتشافها على أيدي أعضاء البعثتين الأثريتين السويسرية والفرنسية في عام ١٩٦٤.

شهدت مباني كيليا تجهيزات متقدمة من الصرف الصحي باستخدام مواسير من الفخار مكونة من قدور طويلة بدون قاع داخل بعضها البعض تسير عبر الحوائط لطرد مياه الصرف خارج المباني للتهوية وتلطيف الجو

مهارة الفنان القبطي

على جداريات قلالي الرهبان بمنطقة كيليا، تسجل العديد من الرسومات المتعددة منها أشكال الصليب المختلفة وأنواع من الزخارف النباتية والطيور وصور القديسين بالإضافة إلى الرموز ذات المعنى الروحي. ونظرا لافتقار منطقة كيليا في الخامات الحجرية المتميزة مثل الرخام والحجر الجيري الجيد، لجأ الفنان إلى الرسومات والزخارف لكي يعوض هذا النقص، وبدلا من نحت أعمدة حقيقية عالية التكلفة فإنه قام برسم هذه الأعمدة بحرفية عالية جدا، بالإضافة لاستخدام تقنية حسب القوالب الجصية.

كانت أكثر الأماكن بمنطقة كيليا غنية بالزخارف والرسومات هي الكنائس وقاعات الصلاة وحنية الصلاة بقلاية الراهب، فقد كان الحائط الشرقي (يطلق عليها اسم الشرقية) يحمل الكثير من رسومات العهد الجديد مثل رسم السيد المسيح يحوط به الآباء الرسل وبعض الآباء من مؤسسي منطقة كيليا مثل القديس أنطونيوس أب الرهبان (الذي حدد موقعها ووضع بها الأساس الأول وهو الصليب عندما زارها بصحبة الأب آمون عام ٣٣٥ م)، والقديس آمون (مؤسس

المنطقة الرهبانية)، والقديس مكاريوس الإسكندري (الذي تولى رئاسة رهبان المنطقة).

استعمل الفنان أكاسيد المعادن في التلوين بعد أن أذابها في ماء الجير، مع ترطيب السطح المراد الرسم عليه بالماء، وكانت مجموعة الألوان المستخدمة هي الأخضر والأسود والأصفر وقليل من الأبيض والأزرق.

أما قاعات وحنيات الصلاة فقد ازدانت بصليب داخل الحنية تحيط به رسومات للأزهار ورسومات لأعمدة تحيط بهذه الحنيات على الجانبين، وهذه الزخارف على قدر بساطتها فإنها مريحة للعين وتشير إلى تخصيص المكان للصلاة. أما أشكال الصليب فهي كثيرة ومتنوعة ولها شكل يميزها عن بقية المناطق الرهبانية الأخرى في مصر، وخاصة أن بعض رسومات الصليب الملونة يحف بها على الجانبين طيور ملونة تظهر وكأنها تقف أمام الصليب بخشوع.

هذه الرسومات المختلفة الموجودة على حوائط مجمعات كيليا تمثل إضافة أساسية للتعرف على خصائص الفن القبطي الذائع الصيت في المنسوجات والعمارة. فقد كشفت الرسومات والزخارف المتعددة، التي أظهرتها عمليات التنقيب، التي أجريت على أيدي أعضاء البعثتين السويسرية والفرنسية. النقاب عن أصل علم الأيقونات. أنواع هذه الرسومات تعود في الغالب إلى الاتجاه الديني حيث رسم الصليب في المقام الأول، إلا أن الدافع الفني كان يغلب المغزى الديني للعمل.

المجتمع الرهباني

كذلك حفلت جدران منطقة كيليا بكثير من النصوص القبطية وأيضا اليونانية، وهي في مجملها صلوات وتذكارات للرهبان المتنقلين مثل: (رقد في الرب أبونا الصالح بوهى Pohy في ١٥ من شهر بؤونة، وأبونا سرابيون Serapion في اليوم الرابع من شهر برمودة، وأبونا أورى Ory في ٢١ من شهر طوبة، وأبونا أبرآم Abraam من جبل الأسقيط في ٢٠ من شهر هاتور). بالإضافة إلى نصوص أخرى بها صلوات وطلبات من أجل بعض العائلات، وفي الغالب تكون عائلات الرهبان أو من زوار منطقة كيليا.

والحقائق التي اكتشفت في كيليا ترتب عليها أمران. فمن ناحية قد أمدتنا بمادة موثقة لدراسة العامية القبطية لهذه المنطقة (اللهجة البحيرية) فيما قبل القرن التاسع الميلادي. ومن جانب آخر أمكن الاستفادة من التواريخ المدونة على النقوش في التأريخ لهذه المنطقة مما له بالغ الأهمية في فهم التطور التاريخي لها.

لقد كشفت أعمال التنقيب بمنطقة كيليا عن معلومات غزيرة منها العلاقات التي ربطت المجمع الرهباني في كيليا والمواقع الأخرى في الدلتا وكذلك عالم البحر المتوسط عامة. كما أمدتنا بصورة متكاملة عن مدن الصحراء التي سكنها رجال يسعون إلى التقرب من الله نابذين الحياة الدنيوية، للبعد عن الضغوط السياسية.

من خلال هذه الدراسات وجدنا أن الرهبنة المثالية قد تغيرت رويدا رويدا من خلال التطور المعماري وفن الزخرفة في المجمعات الرهبانية. فقد تطورت حياة البؤس والفقر للرواد الأوائل شيئا فشيئا وفتحت المجال إلى حياة التجمعات التقليدية دون المساس بالغرض الأساسي للرهبنة وهو الاعتزال عن العالم والتفرغ للعبادة والعمل اليدوي. وبذلك وضعوا حجر الأساس للحياة الاجتماعية والروحية التي تدين لها بالكثير حركة الرهبنة المسيحية. وهذا ما أهدته مصر للعالم كله. ❊

هوامش

(❊) كتالوج كيليا - منطقة الأديرة القبطية بالوجه البحري. إصدار جامعة جنيف بسويسرا عام ١٩٨٩ بمناسبة معرض الآثار القبطية لمنطقة القلالي بمتحف الفن والتاريخ في الفترة (١٢ اكتوبر ١٩٨٩ - ٧ يناير ١٩٩٠).
Ermitages Coptes en Basse Les Kellia Egypte

كتاب الزاوية

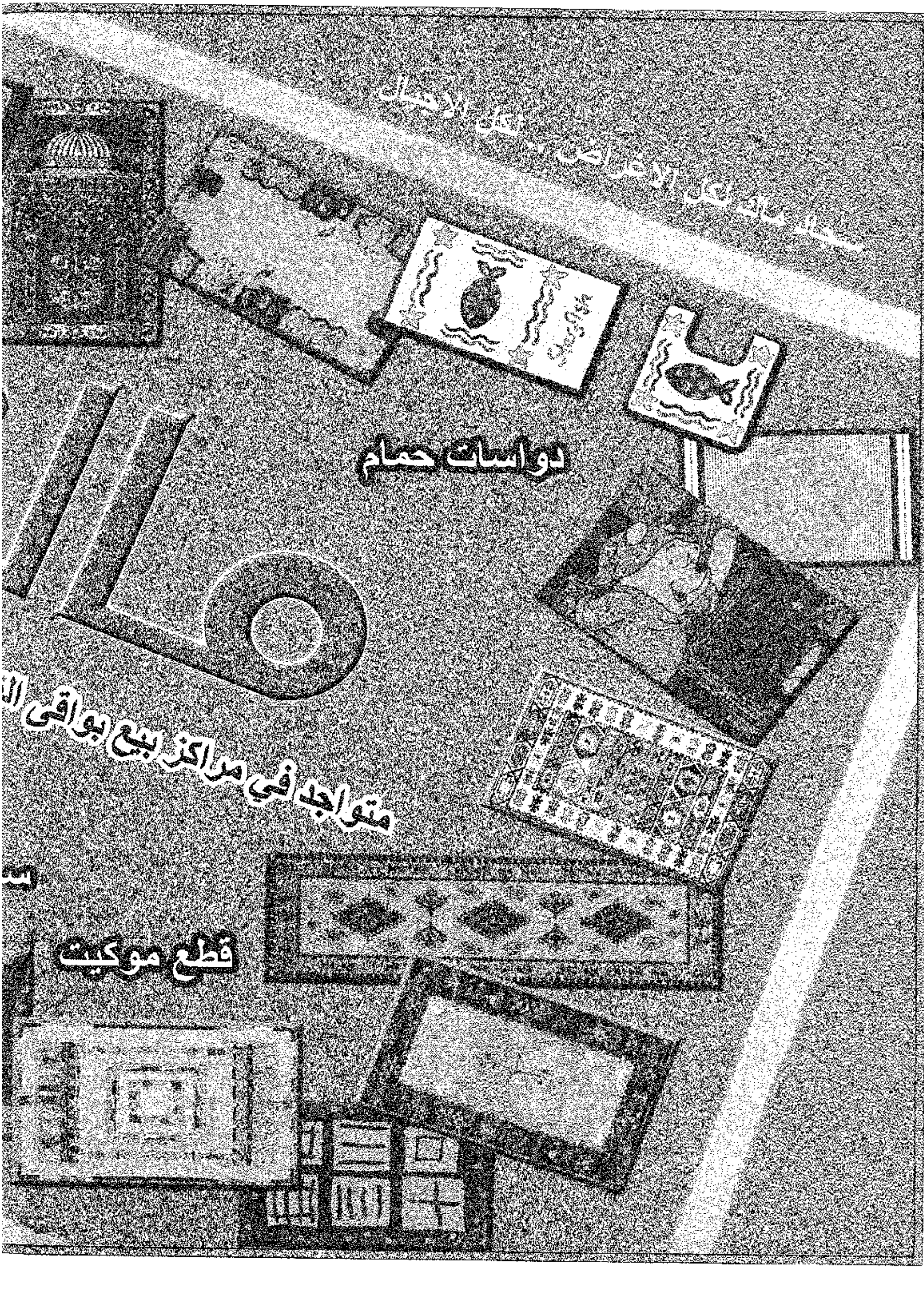
ابن العماد الأقفهسي

حائط حول النيل

وأما الحائط الممتد بالجانب الشرقي عن النيل، فذكر المسعودي: أنه لما أغرق الله فرعون ومن معه من الجنود، خشي ما بقي بأرض مصر من الذراري والنساء والعبيد. أن يغزوهم ملوك الشام والغرب. فملكوا عليهم امرأة ذات رأي وحزم، يقال لها دلوكة. فبنت على بلاد مصر حائطاً يحيط بجميع البلدان، وجعلت عليهم المحارس والأجراس، والرجال متصلة أصواتهم بقرب بعضهم من بعض. وأثر هذا الحائط موجود إلى هذا الوقت، وهو سنة ثمانين وسبعمائة، ويعرف بحائط العجوز.

قال المسعودي: وقيل إنما بنته خوفاً على ولد لها كان كثير القنص، فخافت عليه من سباع البر والبحر، واغتيال من جاوز أرضهم من الملوك وأهل البوادي. فحوطت الحائط من التماسيح وغيرها. وقيل غير ذلك.

فملكتهم ثلاثين سنة. واتخذت بمصر البرابي والصور، وأحكمت آلات السحر وغير ذلك.


دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقي
قطع موكيت



سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
ير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
ة صلى
www.maccarpet.com



أمبرتو إكو

ها نحن فى واقع الأمر نكتشف شيئا فشيئا أن دولة الإسلام قد عاملت المسيحيين وشعائرهم بقدر من التسامح، مثلهم فى ذلك مثل اليهود

■ ما بين نداء البابا أوربان الثانى لشن الحملة الصليبية الأولى فى الخامس والعشرين من نوفمبر ١٠٩٥ وبين دعوة الرئيس جورج دبليو بوش لإطلاق ما وصفه بالـ «حملة الصليبية» الانتقامية على «الإرهاب الدولى» فى أعقاب هجمات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، يبدو الزمان وكأنه قد توقف. فالتناظرات والتوازيات التى يجوز رصدها بين «الحروب المقدسة» القروسطية ونزاعات الألفية الثالثة توحى بأن عقارب الساعة قد أصابها اختلال. لكن الزمان لم يتوقف، وساعة الدهر لم تفقد صوابها، بل الإنسانية هى التى تمشى القهقرى، وكأنها سرطان بحر مذعور يخطو إلى الوراء على شاطئ ملتهب الرمال متلاطم الأمواج. تلك هى الدلالة الرمزية التى يبثها الروائى والأكاديمى الإيطالى أمبرتو إكو فى عنوان كتابه الجديد: «على خطو سرطان البحر القهقار، الحروب الساخنة والشعبوية الإعلامية» (A Reculons, comme une écrevisse,Guerres chaudes et populisme médiatique). فى هذا الكتاب، جمع إكو سلسلة من المقالات والدراسات التى كان قد نشرها ما بين عامى ٢٠٠٠و٢٠٠٥، فى فترة استتبع فيها اللا نظام العالمى الجديد موجة من التوترات التى وشت بحلول ردّة فى مسيرة الحضارة الإنسانية. ولعل من أبرز تجليات ذلك السعى الحثيث إلى الوراء، التى يفرد لها الكاتب حيزاً كبيرا، هو عودة الحديث الموسع عن «موسم جديد للحروب الصليبية مع تجدد الصدام بين الإسلام والغرب». وعودة فوران الحروب الساخنة ممثلة فى حربى العراق وأفغانستان بعد نصف قرن من المسالمة المتوترة، صنيعة الحرب الباردة.

والمعروف لقارئ أمبرتو إكو أن كتاباته تدعو إلى نبذ العنف والتعصب، وتعمد إلى النقد الموضوعى لأخلاقيات الحضارة الغربية، وتسعى - كما هو خليق بكتابات أستاذ علم السيميائيات والباحث فى دروب الفلسفة وعلم الجمال- إلى تفكيك قوالب المتناقضات الجدلية الجاهزة، القائمة على التبسيط المخل من قبيل «نحن وهم»، «الطيبون والأشرار»، «البيض والسود»... وهى معلومة بدا ذكرها واجباً فى هذا الاستهلال الذى استطال. ذلك أن النصين اللذين اجتزأناهما من الكتاب يُظهران وكأن الكاتب الذى اختطهما شخص موغل فى العنصرية، مبغض كل البغض للإسلام والمسلمين. لكن الحق هو أن إكو يسعى فى المقالين إلى تقديم نوع من المسرحة الفكرية لنظريات صموئيل هنتنجتون- الرائجة وقت كتابة النصين- حول صدام الحضارات، ليبين مبلغ الضرر الذى يقع على الإنسانية جمعاء من جراء استبطان تلك النظريات وتطبيقها. فكلا المقالين مزاج خيال الروائى الحر وبصيرة المفكر المحصنة، ذلك المزاج الذى يتجلى حين يتخلى الكاتب عن نسق التجريد الجاف لينطق بأفكاره من وراء قناع السخرية السوداء. فهو فى النص الأول، وتحت عنوان «الاستيلاء على القدس»، يؤدى دور مراسل صحفى يعود به الزمان ألف عام إلى الوراء، ليقدم لنا بثاً إذاعياً مباشراً من مدينة القدس عام ١٠٩٩م، مسجلاً وقائع استيلاء أجداده الصليبيين على المدينة المقدسة، وكاشفاً عن لحظة من أهم لحظات بناء الجدار العازل بين الشرق والغرب. أما النص الثانى («سيناريو حرب صليبية جديدة»)، فيجسد فيه إكو دور محامى الشيطان، الذى يؤمن بحتمية صدام الحضارات، ويتنبأ بحملة صليبية جديدة، ولكنه لا يملك سوى حث الغرب على المهادنة، إذعاناً لإملاءات عقلية برجماتية لا أخلاقية، وتحقيقاً لرؤية مادية نفعية.

ومابين وقائع ماضٍ محقّق وترهات مستقبل معلّق، يمضى خيال كاتب المقالين محاكياً مشية سرطان البحر القهقار، الذى أصابه ذعر وصَغار، أمام أمواج العنف المتلاطمة، على الشاطئ الغربى الذى شهد - وما فتئ يشهد - إبحار سفن فرسان الرب باتجاه ممالك جنة الشرق.

داليا توفيق سعودى

الإنسانية تتقدم إلى الوراء!

رجال التحالف الصليبي راحوا يذبحون الناس بلا شفقة؛ آه يا إلهي! هناك من يضربون رؤوس الأطفال في الحوائط حتى تتهشم...

الاستيلاء على القدس

بث مباشر(١)

١٤ يوليو، صباحا. ألو! ستوديوهاتنا. هل تسمعونني؟ هكذا! أسمعكم جيدا OK. هنا أورشليم، وإليكم بث مباشر من جبل صهيون، نحن هنا خارج الأسوار. مع أول خيوط ضوء الفجر بدأ الهجوم. من المرتقى الذي وصلت إليه بوسعي أن أشرف على شبه المربع الذي ترسمه أضلاع المدينة المسورة: إلى الشرق، تمتد ساحة الهيكل القديم، حيث تقع قبة الصخرة، وإلى الشمال الغربي، توجد بوابة هيرودس، وإلى الشمال الشرقي، خارج الأسوار يتراءى بستان أشجار الزيتون، وفي الجنوب الغربي يقوم برج داود.. هنا، فضلا عما للأسوار من مهابة، تجدها تشرف من جهة الشرق على شفا جرف وادي الأرز، أما من جهة المغرب، فيتراءى من ورائها واد آخر. لذلك، لا تستطيع قوات التحالف الصليبي شن هجومها إلا من جهتي الجنوب الغربي والشمال.

الآن وقد أشرقت الشمس، بوسعي أن ألمح جليا الأبراج الخشبية العملاقة وآلات المنجنيق وقاذفات اللهب وهي تحاول اجتياز الخندق الذي يفصلها عن الأسوار. تذكرون جميعا إلى أي مدى مثلت آلات الهجوم مشكلة حرجة. فلقد كانت المدينة محاصرة منذ السابع من يونيو (حزيران)، فلما كان الثاني عشر منه، أصغت جيوشنا لمشورة عراف مشبوب الحماسة، أخذ يبشر بأن النصر بات وشيكا. فكانت محاولة الهجوم الأولى: لكنها ما لبثت أن تحولت إلى كارثة، إذ افتضح مبلغ افتقار الجيش الصليبي للعدة الملائمة لغرض تسلق الأسوار. ولقد كان القادة العسكريون على سابق علم بتلك النقيصة، لكن هذه الحرب تشهد تداخل اعتبارات متباينة. فالنبلاء والفرسان يعرفون أن الحرب قد تُدار أيضا بواسطة المهادنات والمعاهدات المبرمة مع العدو، وأنها - الحرب- منوطة بقدر من السكون والمسالمة. ولكن، في أذيال الجيش، ثمة حشد هائل من الحجاج والفقراء المعدمين الذين غذتهم النزعات الروحية وشغَفهم شوقٌ إلى النهب والتخريب. هؤلاء هم أنفسهم الذين عمدوا، أثناء مرورهم بمحاذاة نهري الراين والدانوب، إلى إشاعة القتل والدمار في جيتوات اليهود. إنهم صنف من البشر جد خطر، والسيطرة عليهم من الصعوبة بمكان.

أحسب أن ذلك هو السبب الرئيس لفشل هجوم الثاني عشر من حزيران. ولذلك أيضا لم يتحرك ساكن طوال الشهر المنصرم. فلقد عم خمول تام، بعد أن قام والي القدس: «افتخار الدولة»، بتسميم الآبار الخارجية (أما المدينة فتنعم بشبكة ممتازة من صهاريج المياه). ولم يسع الصليبيين -لاسيما أولئك المثقلين بدروعهم المعدنية- أن يتحملوا لهيب ذلك الصيف القائظ. وما استطاعوا إلا امتياح بعض المياه الآسنة. قد بلغوها بشق الأنفس. إذ لم تكن المياه العذبة موجودة إلا في الجنوب، على مقربة من أسوار العدو. وطوال تلك الفترة، كان لزاما على جيوشنا إيجاد الأخشاب والأدوات اللازمة لصنع آلات الحصار. لكن هنا، وفي أرياض المكان، بدت التلال جرداء المحاسر. لذا استوجب جلب الأخشاب الذهاب بعيدا. أما الأدوات، فلم تصل إلى ميناء يافا إلا مع انتصاف شهر حزيران، حين أقبلت سفن حربيةٌ من جنوة وأربع بارجات من إنجلترا. محملة بحبال ومسامير وبراغي وكل مستلزمات النجارة الحربية. هكذا، والآن فقط، أضحى بمقدورنا شن هجوم يآزرنا فيه عتاد من صنوف السلاح المتطور تقنيا.

هأنا ألمح الآن ثلاثة أبراج عملاقة. لكل منها ثلاثة طوابق، قد تحركت متجهة صوب أسوار المدينة، وامتلأت عن آخرها برجال مدججين بالسلاح، وضمت بين مزاياها قابلية إنزال جسر متحرك فوق الحوائط. لكن بقيت مشكلة الوصول أمام الأسوار، بما يعني ضرورة اجتياز الخندق...

كم يبلغ عدد الجنود المقاتلين في صفوفنا؟ قد تبدو لكم إجابتي غير معقولة: ولكنني حقا لم أتوصل إلى تحديد عددهم، إذ يتكون التحالف الصليبي من جحافل عدة، قد قدم على رؤوسها قادةٌ عدة، جلُهم قد انخرط في القتال طمعا في إصابة حظ من الحظوة والنفوذ، وهو ما قد يحملهم على اختلاق الأرقام وتزييف البيانات. ثم إن هناك حشود الحجاج. يتحدث البعض عن خمسين ألف نفس في المحصلة. لكنني احسب أن ذلك تقدير فيه مبالغة. فهم على وفق أقصى تقديراتنا اثنا عشر ألفا من المشاة مع ألف وثلاثمائة من الفرسان. أما التقدير الأدنى فيورد ذكر ألف فارس وخمسة آلاف راجل. أما المسلمون، فهم بضعة آلاف من العرب والسودانيين، فضلا عن سكان المدينة، المتأهبين جميعهم للقتال. ولقد واتت افتخار الدولة فكرة عبقرية. إذ أخرج من المدينة كل المسيحيين من أهلها، حتى لقد آل عبء إطعامهم إلى قواتنا، وهو بذلك الإجراء الحصيف لم يتخلص من أفواه عديمة الفائدة فحسب: وإنما هو أيضا قد أمن مكر أناس قد يقترفون - لو بقوا بالمدينة - بعضا من أعمال التخريب. ولقد أبقى افتخار الدولة على اليهود، ربما لقاء فدية عظيمة من المال. فلو أنه كان قد أخرجهم لكان حجاجنا قد مزقوهم إربا.

إن كثيرا منكم - مستمعينا - قد ترسخ لديهم الاعتقاد في أن تلك الحملة قد شنت من أجل إرجاع الشعائر المسيحية إلى الأراضي المقدسة، لذا ستتعجبون من أن أناسا مسيحيين كان قد استقام لهم العيش آمنين مطمئنين في القدس، حتى أنهم قد شيدوا كنائسهم على أرضها: ومن جهة أخرى، تذكرون أن قوات التحالف الصليبي قد احتلت مؤخرا مدينة بيت لحم بناء على طلب الطائفة المسيحية المحلية، وهو ما يعني بالضرورة أن ثمة طائفة مسيحية كانت تحيا هنا. وها نحن في واقع الأمر نكتشف شيئا فشيئا أن دولة الإسلام قد عاملت المسيحيين وشعائرهم بقدر من التسامح، مثلهم في ذلك مثل اليهود. ها نحن إذن نُحكم الطوق على مدينة يحكمها الكفار بهدف إتاحة الفرصة أمام المسيحيين لزيارتها، فتكون العاقبة الأولى لمبادرتنا أن يتعرض للطرد من تلك المدينة قاطنوها من المسيحيين. إن ذلك ليس التناقض الأوحد الذي تنجلي عنه هذه الحرب، فهي بالنسبة للبعض تحقيق لمبدأ احتكار المسيحيين للأراضي المقدسة. وللبعض الآخر هي فرصة لتحصيل المغانم، وهناك آخرون، الله وحده أعلم بهم، يرونها أشبه بمهرجان عظيم لإراقة الدم...

وفقا لمصادري المطلعة، تثير المعركة الدائرة عند بوابة هيرودس، الواقعة جهة الشمال الغربي، قدرا أوفر من الاهتمام. لذا، سأركب بغلتي وأجتهد في بلوغ الطرف الآخر للمدينة المحاصرة. عودة مؤقتة إلى ستوديوهاتنا. آسف لقطع الإرسال.

١٤ يوليو مساء. ألو، ستوديوهاتنا. هل تسمعونني؟ حسنا، أنفقت بضع ساعات للوصول إلى جوار بوابة هيرودس: فقد كان لزاما علي أن أمضي منحرفا عن الأسوار نظرا لأمطار الحجارة التي كانت تنهال فوق الرؤوس بلا هوادة. كنت أمر خلال أدخنة الحرائق. بالمشهد ألسنة النار في جوف الليل! هو السحر والرهبة معا. فقذائف اللهب حيلة حربية بيزنطية يتقنها المسلمون: فجعلوا يرسلون الكرات الملتهبة مدرارا على أبراج الحصار الخشبية. حسنا، علي الآن أن أبتعد، فلقد خرج إلينا جمع غفير من المسلمين الذين يبتغون حرق أسلحتنا.. ها هو أحد الأبراج قد طالته النار، فطفق جنودنا يقفزون من عل طلبا للنجاة، لكن سهام الأعداء سوطتهم بعنف. ها هو النصف الأعلى من البرج ينهار ناشرا حوله سحابة كثيفة من الشرر المتطايرة، لكن لحسن الحظ أن دُفن تحت الركام العسكر المسلمون الذين كانوا يتأهبون للعودة إلى داخل الأسوار، كما طالت النيران مصراعي البوابة. ولكن لماذا لا يأتي جنودنا بكل القاذفات إلى هنا؟ أحدهم أخبرني بأن بقية الآلات قد تضررت هي الأخرى من كرات اللهب. قد أضعنا إذن معركة اليوم، وعلينا أن نمضي الليل في إصلاح أسلحتنا. عودة إلى ستوديوهاتنا. علي أن أقطع البث.

١٥ يوليو، صباحا. عفوا، لا أسمعكم

A Reculons, comme une écrevisse,Guerres chaudes et .populisme médiatique

(على خطو سرطان البحر القهقرى، الحروب الساخنة والشعبوية الإعلامية)

تأليف: أمبرتو إكو

الترجمة الفرنسية: ميريام بوزاهر، ماريو فوسكو بيار لاروش، ديان مينار، روبرتو نجري.

باريس، جراسيه، سبتمبر ٢٠٠٦، ٤٢٢ صفحة، ٢١ يورو.

بيانات الطبعة الإيطالية:

PASSO DI GAMBERO,Guerre calde e populismo mediatico
Umberto ECO
Milan, Bompiani, 2006.

ترجمة: داليا توفيق سعودي

الإنسانية تتقدم إلى الوراء!

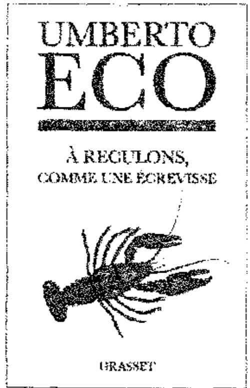
في زمن الحملات الصليبية، لم يكن المسيحيون يحتاجون إلى الحديد العربي لصنع سيوفهم، أما اليوم، فما ننتجه يقوم على النفط، وهم يملكونه

جيدا... هكذا، أسمعكم الآن. يبدو أن جيشنا قد تمكن من ترميم جزء كبير من سلاحه. ها هو يعاود الكر. وها هى أمطار الحجارة تنهال فوق الأسوار، إذ تمكنت آلات المنجنيق التى حشدناها من اجتياز الخندق... ها هى ضرباتنا ترجف تحت وطأتها القدس بأسرها...

من موقعى هذا بوسعى أن أرى بمنتهى الوضوح جودفروا دو بويون وهو يقود الهجوم الأخير من على قمة أحد الأبراج.. أخيرا، بدأت طلائع جنود الرب فى القفز فوق الأسوار. يقولون لى هنا أن هؤلاء هم عسكر ليتولد وجيلبير دو تورنى، تبعهم بعد ذلك جودفروا والآخرون، وها هم المسلمون يتناطرون صرعى تحت ضرباتنا. ومنهم من يسقطون من فوق الأسوار لتتكسر عظامهم على الأرض. وانهارت بوابة هيرودس، كلا - عفوا- بل يبدو أنه قد تم فتحها من الداخل بأيدى الرجال الذين تسوروا الحوائط، والآن ها هم رجال قوات التحالف الصليبى يداهمون المدينة رجالا وركبانا!

علمت إن المعركة ما تزال تدور بضراوة قرب بوابة صهيون.. عفوا، إليكم آخر الأنباء، يبدو أن جنود ريمون دو صنجيل قد تمكنوا من إحداث ثغرة عند بوابة صهيون. ولقد اجتاح ريمون برج داود وأسر افتخار الدولة وحاميته، وأمنه على حياته لقاء فدية من المال، ثم ما لبث أن أرسل معه من يوصله إلى عسقلان التى ما تزال تحت إمرة السراسنة. إنه اندحار العدو! قد انتصرنا! إنها لحظة تاريخية! ويا للعجب، فالساعة الآن الثالثة بعد الظهر، وهو ما يوافق ساعة آلام المسيح!!! يا لها من مصادفة عجيبة!!! أحاول الآن الاندماج مع كتلة الجند المندفعين إلى داخل المدينة، وهو ليس بالأمر الهين، إذ أوشكت أن أقع عدة مرات تحت سنابك الخيول!.. هل تسمعوننى؟ أنا لا أسمعكم، ولكننى سأواصل الحديث...

ها أنا أيضا قد اجتزت أسوار أورشليم، ووجدتنى أتسلق جبالا لا تنتهى من جثث داكنة البشرة، رغم ما قيل عن انعدام المقاومة إثر سقوط المدينة. ووقفت أستجوب رقيبا بدا لى عائدا إلى المعسكر الصليبى، وقد غطت ملابسه الدماء، وحمل على عاتقه كميات من الخز الثمين. سألته فرد قائلا: «مقاومة؟ كلا البتة، فما إن وطئنا المدينة حتى استنفر



هؤلاء الملاعين ثيابهم وفروا، ثم لاذوا بالمسجد الأقصى لكن القائد العظيم تانكرد دو أوتفيل باغتهم قبل أن يتمكنوا من إعادة تنظيم المقاومة، فما كان منهم إلا أن استسلموا. ولقد أمر تانكرد برفع علمه فوق المسجد لكى يضعهم تحت حمايته». فسألته من أين أتت إذن كل تلك الجثث، فأجابنى: «من أين أنت أيها الرجل؟ أما ترى أننا نقتحم مدينة، وأن المدينة فوق ذلك مدينة كفرة؟ فما الغرابة إذن فى أن نثخن فيهم. فنقتلهم أجمعين: شبابا وشيوخا، رجالا ونساء وأطفالا؟ أوليست تلك هى القاعدة؟» فعدت وسألته: «فما كان مصير أولئك الذين منحهم تانكرد حمايته؟» فأجاب الرجل بإشارة لم أفهمها ثم أضاف قائلا: «كما تعلم، للقادة أهواؤهم».

مازلت لا أفلح فى شق طريقى، وقد غشينى الآن جمع مستنفر من العرب من جميع الأعمار، راحوا يفرون فى كل اتجاه، ومن ورائهم جنودنا يحصدونهم حصدا... معذرة، إن صوتى يتهدج وأنا أصف لكم ما أشهده الآن، إذ إن رجال التحالف الصليبى راحوا يذبحون الناس بلا شفقة: آه يا إلهى! هناك من يضربون رؤوس الأطفال فى الحوائط حتى تتهشم... والأمر لا يقتصر على حملة السلاح من الجند، لكننى أرى أيضا عصابات الحجاج الذين راحوا يتكالبون على الجرحى.. لحظة واحدة!.. وصلتنى أنباء من المعبد اليهودى حيث تحصن كل يهود أورشليم. قد تم إضرام النار فيه، وهلكت كل الطائفة اليهوديه فى الحريق. رأيت راهبا إفرنجيا مسنا يقول متباكيا: «هم يهود سفلة لا ريب، ولكن لم نقذف بهم اليوم إلى النار ونيران الجحيم كانت بانتظارهم؟ آه! لقد صار مسيحيونا وحوشا مجنونة، فهم لا ينصاعون حتى لأوامر قادتهم».

ألو! هل تسمعوننى؟ بالتأكيد، ولا ريب أنكم تسمعون طقطقة المبانى وقد باتت فريسة تأكلها النيران، قبل أن تتهاوى فى كل مكان، وهناك أيضا صرخات البشر الذين راح جنودنا يعملون فيهم السيف، يا إلهى، ما عدت أحتمل، فلنواصل حديثنا غدا... فإلى ستوديوهاتنا. سأقطع البث.

١٦ يوليو. ألو! ستوديوهاتنا؟ لم يبق لى إلا القتيل لأذكره، فثمة أحيان يخبر المراسل فيها معنى الخزى وهو يحاول أن يؤدى عمله الصحفى... كان تانكرد قد تعهد بحفظ دماء المسلمين داخل المسجد، لكن جماعة أخرى ممن فلت زمامهم (وهم من الفلمنديين على الأرجح) لم يحترموا أوامره، فكان أن وقعت هناك أيضا مذبحة مروعة. ولقد ذهب بعض الفرسان إلى اتهام ريمون دو صنجيل بالخيانة، لكونه قد حفظ دماء افتخار الدولة ومن معه. لكأن مساً من الجنون قد أصاب الجميع ههنا. وراحت الدماء تغلى فى العروق. أتحدث الآن إلى ريمون داجيلار الذى أفاد قائلا: «فيما حول مسجد الصخرة، وصل الدم المسفوح إلى الركب». وقد استشاط تانكرد غضبا لما ثبت عليه من عجز فى الوفاء بكلمته، لكن الذنب ليس ذنبه. ولا أحسب أن تبقى بالقدس مسلم واحد أو يهودى على قيد الحياة. فسألته عن تقديره لعدد الضحايا ككل؟ فأشار إلى سقوط ما لا يقل عن سبعين ألف قتيل، لكننى أعتقد أنه يبالغ، فهو لا يزال واقعا تحت أثر الصدمة. وتبعا لما نمى إلى علمى من آراء، فبعد أن تم إقصاء المسيحيين من أهل المدينة، تبقى بها بضعة آلاف من العسكر وخمسون ألف مدنى. وقد سرت أخبار عن تمكن بعضهم من النجاة بأنفسهم بالتسلل عبر فتحات فى الأسوار. لذا فأنا أميل إلى القول بأن مجموع من قضوا خلال اليومين الأخيرين يقدر بأربعين ألف قتيل، ولربما جاء يوم يشاع فيه إن حصيلة القتلى كانت أقل، وإنه يتعذر عمليا أن يتم تنفيذ مقتلة بهذا الحجم فى يومين اثنين فقط. لكن الجثث قد تناثرت من حولى على مد البصر، وانتشرت رائحة العفونة تحت أشعة الشمس حتى أضحت تزكم الأنوف.

وكان أحد الرهبان ممن تحدثت إليهم هذا الصباح قد أفاد بأن هذه المجزرة تعدل فى حقيقة الأمر هزيمة، فلو أننا أردنا إقامة مملكة مسيحية على هذه الأراضى، فالأولى أن نعول على تقبل المسلمين هنالك لنا، وعلى تقبلنا نحن للممالك من حولنا. أما تلك المذبحة، فقد خلقت شرخا عميقا من الكراهية مابين مسلميهم ومسيحيينا، شرخ سيستمر لسنوات، أو ربما لقرون، إذ لن يكون استيلاؤنا اليوم على القدس بمثابة نهاية للصراع، بل هو بداية لحرب طويلة جدا...

سيناريو حرب صليبية جديدة؟

لنتخيل مواجهة شاملة بين العالم المسيحى والعالم الإسلامى، تتخذ صورة مجابهة صدامية على غرار ما جرى فى الماضى. ولكن، فى الماضى: كانت أوروبا محصورة داخل حدود شديدة الوضوح، فكان البحر الأبيض المتوسط يفصل بين المسيحيين والكفار، وكانت جبال البرانس تعزل ذلك الامتداد الغربى من القارة الذى كان لا يزال عربيا فى أجزاء منه، إضافة إلى ذلك، كان أن اتخذ الصدام إحدى صورتين: إما الهجوم أو الاحتواء.

ولقد تمثل الهجوم فى الحملات الصليبية، لكننا قد علمنا مآلها ومحصلتها. فالحملة الصليبية الأولى هى الوحيدة التى استتبعت فتحا حقيقيا، وحققت استقرارا للفرنجة فى الشرق الأوسط، وبعد أقل من قرن من الزمان، سقطت القدس مجددا فى أيدى المسلمين، وعلى مدار قرن ونصف القرن، وقعت سبع حملات أخرى لم تحقق أية تسوية.

أما العملية العسكرية الوحيدة التى صادفت نجاحا فلقد كانت عملية استعادة إسبانيا فيما بعد، بيد أنها لم تكن حملة تستهدف ما وراء البحار، وإنما كانت أقرب إلى نضال من أجل استعادة الوحدة القومية، نضال لم يبلغ المواجهة بين العالمين

الإنسانية تتقدم إلى الوراء!

هل نقول - مثلا - لمبارك والقذافي: «هل لكما أن تستقبلا هؤلاء الملايين الثلاثة من الأتراك الـــذين نســـعى لإخـــراجهم مـــن ألمانيـــا؟»

المتصارعين، بل عمل على تغيير أرض الصراع وإزاحة حدوده. أما عن الاحتواء، فلقد تمثل في إيقاف توغل الأتراك على مشارف فيينا، وهزيمتهم في موقعة «ليبانت»، وتشييد الأبراج على السواحل لرصد قراصنة السراسنة. وعليه، لم يفلح الأتراك في حيازة أوروبا، ولكن بقي الصراع واستمرت المواجهة.

ثم كان أن قام الغرب باستعمار الشرق الذي خارت قواه. ولقد توجت هذه العملية على الصعيد العسكري بنجاح طويل الأمد، ولكن ماذا عن نتائجها التي مازلنا نعيشها إلى اليوم؟ لم يتم حل الصراع، ولم تنته المواجهة، بل تم إذكاؤها.

واليوم، إذا ما قررنا العودة إلى المواجهة الصدامية، أي اختلاف ستشهده مجريات الأمور مقارنة بنزاعات الماضي؟ في زمن الحروب الصليبية، لم تكن قدرة المسلمين العسكرية تختلف كثيرا عن قدرة المسيحيين، فقد كان الطرفان على السواء يمتلكان السيوف وآلات الحصار. أما اليوم، فالغرب متفوق في تلك ناحية تكنولوجيا الحرب. صحيح أن باكستان، في حال وقوعها تحت سيطرة الأصوليين، بوسعها استخدام السلاح الذري، ولكنها عندئذ قد تفلح في ضرب باريس على أقصى تقدير، وسرعان ما سينفد احتياطيها النووي. فلو أن طائرة أمريكية سقطت، لن يلبث أن يصنع الأمريكيون طائرة غيرها. لكن لو سقطت طائرة سورية، فسيصعب على السوريين استجلاب غيرها من الغرب. وهكذا، يدك الشرق باريس فيلقي الغرب بقنبلة ذرية على مكة. ويعمد الشرق إلى نشر سم «البوتوليزم» عبر البريد فيسمم الغرب الجزيرة العربية بأكملها، بنفس السهولة التي ترش بها المبيدات الحشرية في حقول الغرب الأوسط الشاسعة. عندئذ، حتى الإبل ستنفق. ممتاز! بل إن ذلك قد لا يستغرق زمنا طويلا، فقد لا يتطلب الأمر أكثر من عام على أقصى تقدير، بعدها سيكمل العالم بأسره التراشق باستخدام الحجارة، ولربما خسر الأعداء.

ولكن، ثمة اختلاف ما بين الحاضر والماضي. ففي زمن الحملات الصليبية، لم يكن المسيحيون يحتاجون إلى الحديد العربي لصنع سيوفهم، وكذا المسلمون ما كانوا بحاجة إلى حديد المسيحيين. أما اليوم، فما ننتجه من تكنولوجيا فائقة التقدم إنما يقوم أساسا على النفط، والنفط إنما هم الذين يملكونه، أو لنقل إنهم يملكون النصيب الأوفر منه. ولو أنهم بقوا وحدهم من دون مساعدة، لاسيما لو قمنا بقصف آبارهم، فلن يتمكنوا من استخراج النفط، ولكننا بدورنا لن نحصل عليه. عندها، سيحتم على الغرب إعادة هيكلة كافة تقنياته بحيث يتمكن من الاستغناء عن النفط. وإذ أننا لم نتوصل بعد لتصنيع سيارة كهربائية تسير بسرعة تفوق ثمانين كيلومترا في الساعة ولا تستلزم ليلة كاملة لإعادة شحن بطارياتها، فلا علم لي كم من الوقت سنحتاج من أجل إتمام عملية إعادة الهيكلة التقنية تلك. ويسري ذلك بالمثل على استخدام الطاقة النووية لتحريك الطائرات والدبابات ولتشغيل محطاتنا الكهربائية - من دون الخوض في حساسية تلك المنشآت - فكل ذلك سيستغرق وقتا طويلا.

كما سيكون من المفيد أن نعلم إن كانت الشقيقات السبع الكبرى سيوافقن على هذا التحول. ولن أندهش لو أن مؤسسات نفطية غربية قد ساقها إلحاح الرغبة في مواصلة تحقيق الأرباح إلى إبداء استعداد لتقبل عالم متأسلم.

ولكن لنشرع في المزيد من المقارنة. في زمن الماضي الجميل، كان السراسنة في جانب يمتد ما وراء البحر، والمسيحيون في جانب مقابل. أما اليوم، فأوروبا تعج بالمسلمين، الذين يتحدثون بألسنتنا ويتعلمون في مدارسنا. وإن كان من بينهم اليوم من ينحازون بالفعل إلى الأصوليين، فلنتخيل مآل الحال لو وقعت مواجهة شاملة. فلسوف تكون هذه هي الحرب الأولى التي يكون فيها العدو ليس فقط بين ظهرانينا وإنما أيضا مستفيدا بغطاء الضمان الاجتماعي.

ولنلحظ أيضا أن المشكلة ذاتها ستتبدى في العالم الإسلامي، الذي تقوم على أراضيه صناعات غربية بل يضم أيضا بؤرا مسيحية، مثلما في إثيوبيا.

ونظرا لكون العدو شريرا بمقتضى التعريف، فلنضع في حسباننا أن كافة مسيحيي ما وراء البحر سيصبحون في خبر كان. فالحرب هي الحرب. وعليه، سيحكم عليهم منذ البداية بأن مصيرهم هو الموت. ولسوف نعمد، في وقت لاحق، إلى إدراجهم جميعاً في عداد القديسين في احتفالية تقام في ساحة كاتدرائية سان بيار.

ولكن ماذا عسانا أن نفعل في المقابل داخل بلداننا؟ لو تفاقم النزاع بصورة محتدمة، وانهارت ناطحتا سحاب أخريان أو ثلاث أو حتى انهارت كاتدرائية سان بيار، عندها ستعلن ملاحقة كل مسلم على أرضنا. ولسوف يكون ذلك أشبه بمقتلة ليلة السانت بارتيليمي أو بمذبحة صلوات الستار الصقلية. فنقوم بالقبض على أي شخص طويل اللحية أو بشرته غير بيضاء، ونقتله. وسيلزم التخلص من ملايين المسلمين بهذه الطريقة. لكن العامة سيتكفلون بهذه المهمة من دون إزعاج القوات المسلحة.

وقد يعلو صوت العقل، فلا نقتل أحدا. ولكن حتى الأمريكيين المتناهين في ليبراليتهم كانوا قد قاموا، في بداية الحرب العالمية الثانية، بإرسال اليابانيين والإيطاليين المقيمين بينهم إلى معسكرات الاعتقال. وإن كان من بين المعتقلين من ولدوا على الأراضي الأمريكية. وإن تم ذلك في ظروف إنسانية. إذن ومن دون الاسترسال في التفاصيل: سنمسك بكل من يبدو من هيئتهم أنهم من المسلمين - ولو كان منهم على سبيل المثال بعض الإثيوبيين المسيحيين فلا يهم - ستمسك بهم ونودعهم في مكان ما. ولكن أين؟ فلكي يتم بناء معسكرات اعتقال تتسع لكل أولئك الدخلاء على مجتمعاتنا الذين يتنقلون في ربوع أوروبا، ثمة حاجة إلى مساحة، وتنظيم، ومراقبة، وتغذية، ورعاية طبية هائلة، بغض النظر عن كون مثيلة تلك المعسكرات ستكون أشبه بقنابل موقوتة.

أو من الممكن أن نأخذهم جميعا (وذلك ليس بالأمر اليسير لأنه يتطلب القبض عليهم كلهم دفعة واحدة)، ونشحنهم على متن أسطول من السفن لننزلهم في مكان ما... ولكن أين؟ هل نقول مثلا: «عفوا، سيادة الرئيس «القذافي»، عفوا سيادة الرئيس «مبارك»، هل لكما - لو تكرمتما - أن تستقبلا في بلديكما، هؤلاء الملايين الثلاثة من الأتراك الذين نسعى لإخراجهم من ألمانيا؟».

أو قد يكون الحل الوحيد هو ذلك الذي يلجأ إليه مهربو العمالة غير القانونية، فنلقي بهم إلى البحر. وهو حل نهائي ذو أصداء هتلرية، لتطفو ملايين الجثث على مياه المتوسط. وددت فقط لو علمت أية حكومة تلك التي ستقدم على مثيل هذا الفعل؛ فحتى هتلر كان يقتل عددا قليلا في المرة الواحدة وكان يفعل فعلاته في الخفاء.

وإذ أننا صالحو الطوية، فالحل البديل هو أن نتركهم آمنين في بلداننا، على أن نسير خلف كل واحد منهم مخبرا من قوات الشرطة الخاصة لمراقبتهم. ولكن.. أين لنا أن نجد هذا الكم من المستخدمين؟ هل نختارهم من بين صفوف المهاجرين الدخلاء على مجتمعاتنا؟ ولكن ماذا لو تبين لنا بعد ذلك أن هؤلاء «العملاء» غير جديرين بالثقة، مثلما حدث في الولايات المتحدة، حين كانت شركات الطيران تسعى لخفض التكاليف بالعهود بمهام التفتيش في المطارات إلى المهاجرين الوافدين من بلدان العالم الثالث.

بطبيعة الحال، من الجائز أن تخالج كل تلك الأفكار رجلا مسلما ذا حكمة ورشاد، وهو قابع في موقعه على الجانب الآخر من المتراس. فالجبهة الأصولية لن يتحقق لها بالطبع النصر الكامل على أرضها، وعليه فسنرى في بلدانهم سلسلة من الحروب الأهلية الدامية، وهو ما سيسفر عن مذابح مروعة. كما ستتقاقم العواقب الاقتصادية الوخيمة لتلك الحروب، وسيزداد افتقارهم إلى الغذاء والدواء عما هو عليه اليوم، وسيتساقطون صرعى كما الذباب. ولكن من مقتضيات المواجهة الصدامية ألا نعبأ بمشكلاتهم هم بل بمشكلاتنا نحن.

وعودة إلى الوضع في المغرب، فستتكون داخل معسكرنا جماعات مؤيدة للإسلاميين، لا لأسباب عقائدية وإنما اعتراضا على الحرب، وسنرى طوائف جديدة ممن يرفضون خيارات الغرب، وأشخاصا ممن ينبذون العنف ويربأون بأنفسهم عن التعاون مع حكوماتهم، وسنرى متطرفين ينهجون على غرار متطرفي حركة «واكو» (WACO)، الذين - وإن لم يكونوا أصوليين مسلمين - سيشرعون في إشاعة الإرهاب من أجل

الإنسانية تتقدم إلى الوراء!

تطهير الغرب الفاسد، وعلى طول طرقات أوروبا، ستنتشر جماعات من المصلين القانتين المستسلمين للدعة في انتظار نهاية العالم.

لكن ينبغي ألا تحصر تفكيرنا في تلك الفئات المهمشة من المعتوهين، فهل سيتقبل العالم فكرة الحصول على نصيب أقل من الطاقة الكهربية إضافة إلى استحالة الاستعانة حتى بلمبات الجاز؟ هل سنتقبل إصابة وسائل الاتصالات بالشلل التام أو سنكتفي بساعة واحدة من البث التليفزيوني كل يوم، هل سنرتضي ركوب الدراجة عوضا عن السيارة، أو نطيق إغلاق دور السينما وصالات الرقص، أو نتحمل الوقوف في الطابور أمام مطاعم «ماكدونالد» ليحصل كل منا على حصته الغذائية اليومية المكونة من شريحة صغيرة من خبز النخالة وورقة خس؟ باختصار هل سنرتضي التخلي عن اقتصاديات الرفاهية والتبذير؟ أي وقع يمكن أن يكون لهذا الحال - حال الحياة تحت وطأة اقتصاد الحرب - على رجل أفغاني أو على لاجئ فلسطيني؟ بالنسبة لمثليهما لن يتغير شيء. ولكن ماذا عنا نحن؟ أي انهيار وإحباط سنهوى إليه؟

وإلى أي مدى سيشعر السود في هارلم، والمعدمون في برونكس، والمهاجرون المكسيكيون في كاليفورنيا، إلى أي مدى سيشعر كل هؤلاء عندئذ بالتجانس مع الغرب!

وأخيرا، كيف ستتصرف دول أمريكا اللاتينية حيث الكثيرون - وإن لم يكونوا مسلمين - قد نمت بداخلهم مشاعر الحقد والكراهية تجاه من يسمونهم الـ «جرينجوز» (Gringos) أو سكان أمريكا الشمالية، إلى الدرجة التي تبدت بعد سقوط مبنى مركز التجارة العالمي، حين تهامس البعض في تلك الدول مدعين أن الـ «جرينجوز» أنفسهم هم الذين سعوا إلى إحداث تلك الكارثة.

إجمالا: من شأن الحرب الشاملة أن تكشف عن إسلام أقل تكتلا وصلابة مما كنا نظن، ولكن الحرب الشاملة ستسفر من دون أدنى شك عن مسيحية متجزئة وعُصابية، مسيحية تفتقر بصورة لافتة إلى أشخاص مؤهلين لأن يكونوا فرسان الرب الجند، أو استشهاديي الغرب.

كان ذلك سيناريو فيلم خيال علمى لا أرجو أن أراه محققا أبدا. لكن وجب تمثله لإثبات أنه في حال تحققه فهو لن يفضي إلى انتصار أي أحد. و بناء عليه، حتى لو عادت الحرب الجديدة (La néoguerre) إلى صورتها القديمة (La paléoguerre)[3] المتمثلة في حرب شاملة فهي لن تسفر عن أية نتيجة، وستستمر بصورة لا نهاية لها في سياق مؤسف يشبه إلى حد كبير سياق فيلم «كونان البربري».

ويعني ذلك أنه في زمن العولمة، صارت الحرب الشاملة مستحيلة لأنها ستفضي إلى هزيمة العالم بأسره. ❊

هوامش أضافتها المترجمة:

---

(١) نشر هذا المقال أول ما نشر في صحيفة «لاريبوبليكا» (La Repubblica) الإيطالية في يوليو ١٩٩٩، بمناسبة ذكرى الغبة استيلاء الصليبيين على مدينة القدس. وهو يظهر في الكتاب في موضع الفصل الثالث من الباب الرابع الذي اختار له الكاتب عنوان «العودة إلى الحروب الصليبية» (Le retour aux croisades).

(٢) كان هذا المقال جزءا من محاضرة ألقاها إكو في جمعية سانت اجيديو بميلانو، في يوليو ٢٠٠٢، وهو يظهر في الكتاب في الفصل الأول من الباب الأول الذي اختار له الكاتب عنوان «عن الحرب والسلام وأشياء أخرى» (De la guerre, de la paix et d'autres choses).

(٣) يطرح إكو مفهوم الحرب الجديدة (La néoguerre) في مقابل مفهوم الحرب التقليدية القديمة (La paléoguerre) ويفصل بينهما زمنيا مفهوم الحرب الباردة، التي انتفت شروط بقائها بسقوط الإمبراطورية السوفيتية. ويضرب الكاتب المثل بحرب الخليج وحرب كوسوفو، والحرب على أفغانستان بوصفها نماذج للحرب الجديدة. وتتلخص خصائصها - وفق إكو - في كون تعيين العدو فيها يشوبه شيء من الإبهام. فهل العدو هو العراقيون كلهم؟ أو الصرب كلهم؟ أو الأفغان كلهم؟ فمن غير الواضح من الذي ينبغي تدميره على وجه التحديد. كما أن الحرب الجديدة ليست مجابهة صدامية بين جيشين في مكان وزمان محددين. وفي هذا النوع من الحروب تلعب الرأسمالية العابرة للقارات دورا رئيسياً في توجيه الطرفين المتحاربين. وعليه يخضع منطق الدول المتنازعة لإملاءات ومصالح الشركات الكبرى، وتتشعب أذرع القوى المتصارعة وتتحكم في سير النزاع توازنات خفية. وفي الحرب الجديدة تجددت ملامح صناعة الإعلام بصورة غير مسبوقة. فلم يعد هناك مجال للتعتيم على أخبار العدو بل صارت وسائل الإعلام تفسح المجال لعرض رأي العدو على شاشاتها. وصار تداول فيض المعلومات عبر وسائل الإعلام يلعب- وفق الكاتب- دوراً كانت تضطلع به فيما مضى أجهزة الاستخبارات العسكرية. فبحسب تعبير إكو «عمدت الحرب الجديدة إلى إضفاء طابع مؤسساتي على دور ماتا هاري بأن عممت فكرة التخابر الإعلامي مع العدو» (ص١٩). وفي الحرب الجديدة صارت فكرة التضحية بأرواح الجند فداء الوطن مرفوضة، ليس ذلك فحسب، بل صار المطلوب أيضا تقليل عدد القتلى إلى حده الأدنى فكان ابتداع ما سمي بالقنابل الذكية. صارت الحرب - كما يقول إكو - منتجا إعلامياً، أو هي بالأحرى- وفق تعبير بودريار الشهير- حرب لم تتم بل كانت تمثيلية بثها التلفاز.

كتاب الزاوية

ابن العماد الأقفهسي

زيادة النيل

قال المسعودي: قالت العرب في النيل: إنه إذا زاد غاضت له البحار، أي نقصت. قال الله تعالى (وغيض الماء) أي نقص وذهب. قال تعالى: (وما تغيض الأرحام). وغاضت له العيون والآبار. وإذا غاض هو زادت هي. فزيادتها من غيضه. وغيضه من زيادتها.

قال: وقالت الهند: زيادته ونقصه بالسيول. ونحن نقول ذلك بتوالي الأنواء، وكثرة الأمطار، وركود السحاب.

وقالت الروم: لم يزد قط ولم ينقص. وإنما زيادته بريح الشمال إذا كثرت واتصلت به.

وقالت القبط: زيادته و(نقصانه) من عيون في شاطئه، يراها من سافر ولحق بأعاليه. وقد تقدم على أبي قبيل أن نيل مصر في زيادته يفور كله، من أوله إلى آخره.

وحكى لي من أقام بالحبشة: أن الغمام والمطر مستمر عندهم في أيام زيادة النيل ليلاً ونهاراً في أعلى النيل، وأن في بعض السنين يكثر المطر جداً. وفي بعضها يقل، فيعرفون كثرة النيل بمصر وقلته بسبب ذلك.

محمد المهدى

أطماع

※ ※ بوتين وكيلن كلاهما عاش فى غير زمانه: الأول فى القرن التاسع عشر، وكانت مهمته إحياء أطماع نابليون وحملته على مصر من موقع آخر هو الجزائر فى زمن كشفت فيه العسوبة المهمة الحضارية الفرنسية فى الشرق. والثانى عاش فى القرن العشرين وكانت مهمته تجديد الأطماع الاستعمارية فى الجزائر باستلاك ثروة ذلك الزمان وهو البترول فى زمن كشفت فيه العسوبة التعاون بين «الشرق» الثروة مع الغفلة، والغرب، العالم مع اليقظة.

ايف بوتين

«إنها تريد تفسير كل شىء والتعمق فيه وتقديره، إنها لا تقبل أى شىء غامض، ولا أى شىء لا يمكن إدراكه، وهى لا تؤمن بوجود شىء ما فى تلك المناطق التى لا تستطيع أن تضيئها بشعلتها».

كتب الشاعر الألمانى شيللر هذه العبارة فى وصف أديبة فرنسية «مدام دى ستايل» أيام الثورة الفرنسية (قامت عام ١٧٨٩) وأيام نابليون.. وصف يكاد ينطبق على فرنسا نفسها، أو نفسية إنسان الثورة الفرنسية، التراوح بين العقل والعاطفة بين فولتير وروسو. تفوق العقل على العاطفة فى الثورة. صنعوا تمثالاً للعقل وقدسوه.. والتقديس فى هذا الموقف يعنى ردة فعل باتجاه العاطفة.. عاطفة اتجهت إلى الشرق تستكمل به عدل الميزان المضطرب.

ولا يمكن أن نفسر اتجاه نابليون إلى الشرق أو عشقه له لأسباب سياسية فقط.. فكتاب «بونابرت فى مصر» يكشف عن عاطفية جامحة فى نفس نابليون، وسلوكه فى أوروبا عن حدة صارخة فى تقديس العقل.

بين العقل والعاطفة خلال هذه المرحلة ظهرت شخصيات تراوحت بين الجد والطرافة والأهم بالنسبة لنا أنها لعبت دوراً خطيراً فى التسلل إلى شعاب حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية باسم التجارة أو عشق الآثار أو البحث عن منابع الحضارة.

أتحدث هنا عن وثيقة حية، عميل نابليون فى الشرق العربى اسمه «ايف بوتين» YVES BOUTIN لم يحظ الدارسون بالاهتمام، كما حظى لورنس، العرب رغم الدور الخطير الذى لعبه فى تاريخنا. أرسله نابليون فى مهمة تجسسية إلى الجزائر عام ١٨٠٨، رسم فيها المعالم التى كانت الأساس فى وضع خطة احتلالها عام ١٨٣٠، وأرسله فى مهمة تجسسية أخرى عام ١٨١٠ إلى مصر والشام. جمع العديد من المعلومات بدءاً من حياة البسطاء إلى حياة القصور إلى إقامة الحصون إلى عتاد الناس النفسى والمادى.. أرسلها فى تقارير متعاقبة إلى سيده الإمبراطور. لم يقدر له الاستفادة منها لتحقيق حلم عودته إلى الشرق. ظلت محفوظة إلى أن أثارت شهية المهندس «ديليسبس» فى نهاية القرن التاسع عشر، أيام نابليون الثالث وفتح قناة السويس عام ١٨٦٩، حين وضع مقعد الغرب الجاثم على صدر المنطقة العربية ودارت لعبة الكراسى الموسيقية حوله إلى أن انفرد الإنجليز به آنذاك.

ولد «ايف بوتين» فى أول يناير عام ١٧٧٢ فى قرية صغيرة بمنطقة اللوار. والده كان طبيباً بيطرياً متواضعاً وأمه كانت ريفية مائة بالمائة. له شقيقان يعملان بالفلاحة وثالث بحار ورابع خباز وخامس خلت حياته من أى عمل خاص سوى مساعدة أمه فى شئون المنزل.

وسط هذه الأسرة المكافحة تميز ايف بموهبة خاصة وحيوية متدفقة. شاء حظه أن يصحبه والده إلى مدرسة القرية، واظب وأحسن الإصغاء والتقط بسهولة مدهشة دروسه. وعندما انتهت مرحلته الأولية فى التعليم توالت النصائح على والده تدفعه لإكمال تعليم ابنه. أرسله إلى كلية «نانت» هناك اتسعت دائرة معرفته فشملت «جوزيف فوشيه» الذى سيقدر له الاقتراب من نابليون ويصير وزيراً للشرطة فى دولته.

أنهى «ايف» دراسته الكلاسيكية فى التاسعة عشرة ووصف فى هذه السن بأنه، صاحب روح حية، يحب خمر المسك ويعشق



الكولونيل ايف بوتين، جاسوس نابليون من الجزائر إلى الشام

عميل نابليون في الشرق كان اسمه بوتين لكنه لم يحظ بالاهتمام مثل البريطاني لورانس العرب

الرياضيات - في هذه المرحلة اتخذ «أيف» قراره.. الانتظام في سلك العسكرية. بدأ بدراسة تمهيدية لمدة ثمانية أشهر أهلته لدخول المدرسة العسكرية ميزيير MEZIERES عام ١٧٩٣. تخرج بعد اثنى عشر شهراً برتبة ملازم ثان وجاء في تقرير تخرجه «مهندس جيد في إقامة الحصون، يحسن تشييد السياجات الضخمة والصغيرة».

هذه المهارة الخاصة هي التي حددت مستقبل «أيف» سواء في حروب أوروبا مع نابليون أو في مهمته الخاصة التي شغلت حياته في شرقنا العربي من الجزائر إلى الشام.

فرنسي يتجسس على «البرابرة»

بدأ بوتين حياته العسكرية على صورة عادية، لم تخل من مهمات تدريبية في البحث وجمع المعلومات أو التجسس. في خريف عام ١٧٩٨ وأوائل ١٨٠٠ قام التحالف الأوروبي الثاني واندلعت الحرب ضد فرنسا في وسط أوروبا. ظهرت مهارة «بوتين» في القيام بمهمات عديدة لدراسة ممرات الأنهار. حدد بها بوتين مواضع نفاذ الخطر من قوات أوروبا إلى داخل فرنسا.. وجرح في معركة مع القوات النمساوية.

في عام ١٨٠١ كان نابليون يفكر جدياً في إرسال حملة مشابهة لحملته السابقة على مصر عام ١٧٩٨.. يرسلها هذه المرة إلى الجزائر وتونس وطرابلس «ليبيا». كان يفكر أيضاً في احتلال مالطة وكريت والبحر اليوناني بكامله. يحلم ببحيرة فرنسية في البحر المتوسط، يحاصر بها الإنجليز ويغرق فيها قوات - الجزائر البحرية أو ما كانوا يسمونها بقوة البرابرة.

في عام ١٨٠٢ عقد صلح «أميان» بين فرنسا وإنجلترا كان بمثابة هدنة مؤقتة بينما ساءت العلاقات مع قوات شمال أفريقيا البحرية. نشطت عمليات ضرب السفن الفرنسية خاصة القريبة من الساحل الأفريقي. تأكدت هدنة نابليون مع إنجلترا بعد عقد صلح آخر عام ١٨٠٧. واعتبرها نابليون فرصته المحكمة الأطراف لتحقيق حلم غزو الجزائر واحتلالها.

في أبريل عام ١٨٠٨ كتب نابليون إلى الأميرال «ديكر» وزير البحرية والمستعمرات - «تصور قيام حملة الجزائر، أن قدماً توضع على هذه الأرض الأفريقية ستعيد الموازين مع إنجلترا.. لن أطلب منك الرد إلا بعد شهور وخلال هذه الفترة عليك بإعداد العدة اللازمة بحيث لا يكون هنالك (لكن).. أو.. (إذا).. أو.. (الآن).. أرسل واحداً من مهندسيك إلى الساحل عليه أن يتجول داخل وخارج الأسوار ويعود إلينا ليكتب ملاحظاته الدقيقة حتى لا نضرب في الوهم».

اختير العميل المطلوب من بين مائة مرشح.. وكان الكومندان «بوتين» تلقى أمر الحضور إلى طولون في ٢ مايو ١٨٠٨ لينفذ الخطة المعدة والتي كان يجهلها إلى هذه اللحظة.

أبلغه الأميرال «جانتيوم» بأوامر الرحيل وسلمه رسالة سرية من وزير البحرية في تفصيلات بمهمته الخاصة. على ظهر السفينة المتجهة إلى الجزائر اختفى الكومندان بوتين. فقد ارتدى «ريدنجوت» أنيقاً واعتمر قبعة لاتينية واسعة الأطراف. وأخذ يتحدث عن هواياته في جمع الآثار. وصل إلى الشاطئ الأفريقي الجزائري ونزل في منزل القنصل الفرنسي «ديبوا تنتشل» بصفته قريباً له جاء إلى الجزائر باحثاً ودارساً للآثار.

إقامة - بوتين - أو مهمته السرية استمرت في الجزائر من ٢٤ مايو إلى ١٧ يوليو ١٨٠٨. مهمة صعبة وسط توتر الجزائريين وعدم ثقتهم في كل من يأتي من أوروبا. وخطره في مواجهة السلطات التركية التي راقبت هذا الزائر الكثير التساؤل عن أحوال المدينة الدفاعية. وكانت قد أصدرت أوامرها بعدم تخطي الأجنبي لعتبات حددتها داخل المدينة ولأبواب معينة خارجها.

لم يمنع ذلك القنصل الفرنسي من تقديم مساعداته لبوتين فأخذ يتجول في جرأة وبوسائل ملتوية داخل المناطق الممنوعة. ظل يزحف إلى أن وصل لمنطقة «سيدي فرج» متجاوزاً أربع مناطق ممنوع ارتيادها على الأوروبيين. وصل للشاطئ بحجة صيد السمك. سجل معالمه مستخدماً مسباراً رصاصياً لقياس عمق الأرض. أحياناً كان يختفي في زي صياد بري يتوقف ليرسم بعض المواقع. يعود في المساء إلى القنصلية الفرنسية ويبدأ في كتابة تقاريره اليومية.

بوتين، كان يحسن التخفي وراء عدة أقنعة. ولكن ذلك لم يمنعه من التهور أحياناً بما يثير الشك في رجل يعتبر عضواً في القنصلية الفرنسية. جولاته الجريئة وصلت أخبارها إلى «الداي» حاكم الجزائر، فهدد بدفنه حياً إن لم يتوقف عن تسريه اليومي في أزقة - سيدي فرج - ولم يرجع بوتين عن خطته فقد استمر في تجسسه لمدة ٢٥ يوماً أخرى.

في ١٧ يوليو ١٨٠٨ أنهى بوتين مهمته ورحل على ظهر سفينة إلى إحدى جزر البحر المتوسط في لحظة تعرضت فيها لهجوم إنجليزي، سارع بوتين إلى التخلص من وثائقه وتقاريره وألقاها في الماء. قبض عليه الإنجليز وظل سجيناً في جزيرة مالطة عدة أيام استطاع بعدها الهروب مع مجموعة من المعتقلين وظل ينتقل في عدة جزر إلى أن انتهى إلى شاطئ مدينة «أزمير» التركي.

من تركيا رحل إلى باريس، دخلها في يوم خروج نابليون منها متوجهاً إلى إسبانيا.. في ٢٩ أغسطس عام ١٨٠٨، عكف بوتين على بقايا أوراقه واعتمد على قوة ذاكرته في كتابة تقرير مفصل لما شاهده أو عايشه. انتهى من تقريره وكتب على غلاف ملفه السري «مشروع نزول واحتلال نهائي لهذه البلاد.. الجزائر».

مصير «بوتين»

تقرير بوتين السري يثير الدهشة. لدقته في تسجيل الأحداث والأرقام والتفاصيل رغم صياغته من الذاكرة. يحدد تحصينات مدينة الجزائر الرئيسية وضواحيها. يحدد الأماكن الصالحة لرسو السفن. القوة الحربية. للماي - في وقت السلم ووقت الحرب. أماكن تجمع هذه القوة عند الحاجة. القوة البحرية والقوة البرية. الذخيرة والمؤن. يحدد أيضاً طرق الوصول إلى تونس ووهران وغيرهما براً وبحراً. يتحدث عن مصادر المياه - وهي مسألة مهمة في هذه المناطق - ودرجة الحرارة والهواء والأمراض المعدية أو المحلية. يحدد أفضل الأوقات لوصول القوات الفرنسية. ولا يترك التقرير تحديد إنتاج البلاد الزراعي والحيواني والعملة والموازين والمقاييس. خرائط وخطط ولوح دقيقة مفصلة للقوات الجزائرية من مدفعية إلى غيرها.

يذكر التقرير أن أفضل الأماكن لنزول القوات الفرنسية هي - سيدي فرج - وجاء هذا الاقتراح الأول من نوعه منذ عدة قرون دار فيها الصراع بين القوات الأوروبية وقوات شمال أفريقيا البحرية. لم يجرؤ أحد خلالها على التفكير في القيام بهجمة برية على الجزائر. كان الصراع دائماً يدور في البحر وينتهي لصالح البحرية الجزائرية أيام الأخوين عروج وخير الدين بربروسا.

لم يطلع نابليون على تقرير بوتين إلا بعد ثلاثة أشهر عندما عاد من إسبانيا. ورغم حماسه السابق لمهمة عميله الخاص في أرض الجزائر، إلا أنه أهمل تقريره، فقد انشغل بقيام التحالف الأوروبي الخامس وحرب إسبانيا. حفظ التقرير في أرشيف وزارة الحربية الفرنسية وظل نائماً هناك مدة عشرين عاماً كاملة. عندما قام بورمونت. وأركان حربه بنبش الشنابير القديمة حول الشاطئ الأفريقي عام ١٨٣٠. عثروا على تقرير بوتين عميل الإمبراطور نابليون. عثروا فيه على ثروة هائلة من المعلومات التفصيلية حددت لهم بشكل أساسي السبيل لاحتلال مدينة الجزائر.

وقد شارك بوتين في حروب نابليون الأوروبية بعد عودته ولمدة عامين.. قاتل في ألمانيا وقام بإنشاء عدة حصون وجسور على نهر الدانوب. وفي عام ١٨٠٩ جرح في إحدى المعارك.. بعد شفائه نقله نابليون إلى مدينة «أوستند» البلجيكية الآن - لإقامة تحصينات جديدة، ثم نقل إلى باريس. هناك تجددت مهمته القديمة. حصل على رتبة كولونيل بقرار إمبراطوري في ٢ أغسطس ١٨١٠، وصدرت له الأوامر بالرحيل إلى الشرق للقيام بمهمة تجسسية جديدة.

المهمة الجديدة للعميل الإمبراطوري

لم ينس نابليون أحلامه الاستعمارية ولكنه انشغل عنها بحروبه الأوروبية، كان موقناً بأن هذه الأحلام جزء مهم في صراعه مع إنجلترا. كان يدرك أيضاً أهمية هذه الأحلام في شغل الجماهير الفرنسية وإثارة حماسهم خاصة لتحويل ثروات المستعمرات إلى جيوب البرجوازية المتطلعة إلى الصعود الأرستقراطي.. وربما الإمبراطوري.

ظل نابليون مأخوذاً بالشرق. يحلم دائماً بعودته إلى مصر، يفكر بحملة جديدة على أسس مختلفة ومن مصر يدخل إلى سوريا ومنها إلى الهند لتحقيق الحلم. إذن لابد من دراسة أرض الواقع الجديد. جمع المعلومات.. وليس هناك أفضل من بوتين للقيام بهذه المهمة.

في نوفمبر ١٨١٠ ترك بوتين باريس يحمل أوامر وتعليمات صريحة من الإمبراطور نقلها إليه وزير الحرب الدوق «فيلتر FELTRE». فأخر بوتين في الرحيل عن فرنسا فثار نابليون وكتب لوزيره: «لقد اعتقدت أن الضابط بوتين قد رحل إلى مصر وسوريا لتغطية مهمته السرية. لابد أن يمضي الشتاء وجزء من الصيف هناك حتى يجمع المعلومات الواجبة التي تحدد الموقف السياسي والعسكري في هذه البلاد. عليك بتجاوز كل العقبات فلا تحدثني بعد ذلك عنها».

وفي ١٥ نوفمبر ١٨١٠ كتب نابليون خطاباً إمبراطورياً من عدة نسخ موجها إلى قناصل فرنسا في الشرق.

من المهم أن تحصل



هستر استنهوب حبيبة بوتين فى صيدا بملابس شامية

الحكومة الفرنسية على معلومات مؤكدة ودقيقة حول علاقاتنا التجارية، بناء على هذه المعلومات يمكن تحديد السبل التى يجب سلوكها لإعطاء دفعة تطور خاصة.. تحتاجها ظروفنا الحالية، لقد كلفت السيد بوتين بمراجعة قنصليتكم بصفته عميلاً تجاريا داخليا.

هكذا تحول أو تخفى بوتين فى هيئة عميل تجارى وبصفة رسمية إمبراطورية حتى يقوم بمهمته الأبعد. والأكثر خطورة التجسس حول المواقع الحربية.. قلعة صلاح الدين فى القاهرة، مدينة دمياط، قلعة عكا، مدينة حلب.. الإسكندرية.. الإجابة على أسئلة حددتها له المهمة حول الأحوال المادية والمعنوية فى مصر والشام.

وصـل عـمـيـل الإمـبـراطـور إلـى الإسكندرية فى نهاية مايو ١٨١٠؛ متخفيا فى زيه التجارى وادعائه الاهتمام بالآثار ودراسة حضارات الشرق العربى القديمة. فى القاهرة أقام فى منزل القنصل الفرنسى - دروفيتى - قنصل عجيب فى مهمته. ليس العجب فى قيامه كغيره من القناصل بالتجسس أو النهب لحساب بلده أو شخصه. ولكن العجب فى أنه دخل فى صراع صريح مع القنصل الإنجليزى لسرقة الآثار المصرية القديمة. كون كل واحد عصابة خاصة، تتلون لتنداح فى شعاب مصر المجهولة لجمع الآثار.

تشتبك العصابتان بالخناجر والعصى والرصاص، وصف قصتيهما فى صورة طريفة المستشرق الفنان الفرنسى - بريس دافين - فى مذكراته، فقد عاصر طرفا منها فى فترة متقدمة.

شخصية القنصل - دروفيتى - ناسبت تماما شخصية بوتين. دبر له القنصل مقابلة مع محمد على وكان إلى هذا التاريخ لا يزال معترفا بحضن الأستانة. فاوضه عميل نابليون بصفته التجارية فى صفقة قمح، ولمهارته حصل على موافقة فورية برغم خبث وذكاء محمد على. أرفق بطلبه التجارى طلبا شخصيا. تصريح يعطيه الحق فى الوصول إلى أقصى الصعيد حتى يستكمل على حد قوله معلوماته وإعجابه بالآثار المصرية القديمة. تصريح محمد على فتح له البر والبحر وكان البحر الأحمر على وجه التحديد هو مثار قلق واهتمام الإنجليز.

روميو وجولييت فى الشرق

استثمر بوتين تصريح محمد على جيدا: صعد إلى أسوان وكتب عنها معلومات وافية، ثم خاض فى صحراء سيناء ووصل لجبل موسى. لم تكن سياحة دينية، فقد درس جيدا موقع الجبل والمناطق المحيطة. كانت محطته القادمة السويس ومنها صحراء سيوة. بقى بوتين فى مصر مدة عامين متنقلا كيفما شاء مواظبا على إرسال تقاريره أولا بأول الى نابليون.

طالت مدة بوتين فى مصر ولم يستكمل مهمته فى سوريا، فقد تأخر رحيله بسبب انتشار مرض الطاعون آنذاك، ومنع السفر برا وبحرا إلى الشام وبرغم ما وصله من أخبار حول التحالف العام للدول الأوروبية ضد نابليون فى يناير عام ١٨١٤ واضطراب موقف سيده، إلا أنه أصر على استكمال مهمته.

فى ٢٨ مارس عام ١٨١٤ وصل لميناء صيدا، أقام كما هو متفق عليه فى منزل القنصل الفرنسى - تيبوت -. وتخفى فى زى وصنعة الباحث عن الآثار، وكانت هذه المهمة تكلفه عادة حمل حقيبة ثقيلة من الأحجار والتماثيل دليلا على عشقه الخاص.

فى صيدا ارتبط بشخصية عجيبة، سيدة اسمها - هيستر استنهوب - HESTER STANHOPE ابنة شقيق (وليم بت) رئيس وزراء إنجلترا الشهير الذى قاد الإنجليز إلى النصر فى حرب الصراع الاستعمارى الإنجليزى الفرنسى فى أمريكا. حرب السنوات السبع ١٧٥٦ - ١٧٦٣.. السيدة استنهوب كانت مساعدة لعمها فى بطولاته الاستعمارية وعندما توفى فجأة قررت اعتزال الحياة، تنقلت فى عدة أماكن وأخيرا استقرت نهائيا فى الشرق.. فى صيدا.

تم اللقاء الأول بين بوتين الفرنسى والسيدة استنهوب الإنجليزية عابرا فى القاهرة، أدركت بخبرتها أن بوتين لا يمكن أن يكون وسيطا تجاريا أو هاويا أثريا. لكن استنتاجها الذكى لم يمنع قلبها من لقاء بوتين على طريقة روميو وجولييت. الأسر تتعارك والأبناء يعبون من كؤوس الحب.

بادرت هى بتوثيق العلاقة، فقد دعت



لورنس الجزائر.. كيلن مع رفيقه الجزائرى (بشير)

بوتين إلى مسكنها فى صيدا. أثارت دعوتها شكوكه. هل هى محاورة خبيثة بين جاسوس وسيدة سياسية؟

قرر بوتين قبول الدعوة وكانت مقدمة سريعة فما لبث أن صارت إقامة بوتين موزعة بين بيت القنصل وبيتها فى صيدا. درس بعض الباحثين علاقة بوتين الفرنسى بسيدة سياسية إنجليزية. قال البعض إنه كان تعاون الخبثاء، واستند آخرون على واحد وعشرين رسالة أرسلتها السيدة استنهوب إلى بوتين تؤكد وجود علاقة حب ساخنة بينهما.

فى ابريل ١٧١٤ قرر بوتين بعناد ترك صيدا نهائيًا بعد أن عاد وباء الطاعون فى الظهور. حاولت استنهوب استبقاءه. أرسلت تطلب مقابلته رفض أرسلت من جديد تبلغه بأنها حصلت على معلومات أكيدة من ترجمان مملوكى تقول إن معركة عنيفة تدور حاليًا فى فرنسا ضد نابليون.

لم يقاوم بوتين فعاد إلى مقر صديقته فى صيدا واحتفظ بهدوئه أمام أخبار سقوط إمبراطوره نابليون. أما استنهوب فكانت سعيدة بعودته وإن كانت مؤقتة بحتمية رحيله.

الاختفاء الغامض

رغم تأكد بوتين من انتهاء قوة نابليون، إلا أنه أصر على إتمام مهمته.. استقر فى دمشق. استمر فى جمع المعلومات. وفجأة يكتب لصديقته استنهوب ـ أن الظروف يا سيدتى تدعونى للرحيل إلى فارس ـ. أجابته بكلمات مختصرة. إذا مت فإن عيونًا طيبة ستبكيك. أينما ذهبت فإن تمنياتى الطيبة تصحبك..

قبل رحيل بوتين عن الشام قرر أن يقوم برحلة انتحار. هل كان اختيارها مؤشرا لحالته النفسية بعد سقوط نابليون؟

رحل بوتين إلى جبل الأنصاريين الواقع بين طرابلس وانطاكية، منطقة شديدة الوعورة جغرافيا وبشريا.. منطقة متمردة دائمًا على الدولة العثمانية. لم يكن لوالى طرابلس أو دمشق سيطرة عليها، ولم تغامر القوات العثمانية ولا أتباعها بالدخول إليها لتحصيل الضرائب.

رحل بوتين مع خادم، كلاهما على ظهر حصان واحد. يحملان زادًا قليلاً. وكأنهما مسوقان إلى قدرهما دون تردد. مرت الأيام واختفت أخبار بوتين تمامًا. ترددت شائعات حول انتحاره وقيل إنه قتل هو وخادمه. لم يترك من أثر سوى ساعته وبعض حاجياته وجدت معروضة للبيع فى محل صغير بأحد أسواق دمشق.

لم تيأس حبيبة بوتين من البحث عنه. أخذت وعدًا من الباشا بأن يرسل جماعة مسلحة للبحث. ولكنه لم يجد من يجرؤ على القيام بالمهمة.. سعت بنفسها لكشف اللغز. استأجرت ثلاثة رجال وأرسلتهم للبحث واستحضار الدليل على مقتله. عاد الرجال حاملين الدليل على مقتله هو وخادمه عند قرية البلاطة. وكان هذا هو آخر ما وصلت إليه تحريات البحث عن بوتين.

نتساءل عن هذه الشخصية العجيبة ماذا أرادت؟

الجاسوسية أم العدمية أم العناد أو بعد النظر؟

تاريخه السابق يثبت لنا شدة طموحه بما يتنافى مع الروح العدمية. وإصراره على الدخول فى أخطار خارج مهمته تضعف من احتمال طموحه. والمعلومات التى جمعها عن الجزائر ومصر والشام وخروجها بعد ذلك من أرشيف الحروب الفرنسية ودورها الرئيسى فى وضع خطة غزو الجزائر عام ١٩٣٠ تثبت بعد نظره فى خدمة الخطط الاستعمارية الفرنسية.

بوتين نتاج الثورة الفرنسية.. نتاج المثالية القومية كما صاغتها البرجوازية الفرنسية. أحلام تتراوح بين الاندفاع وراء البطولة الفردية كرمز للبطولة القومية حتى لو جاءت على حساب القوميات الأخرى.

كونراد كيلن

فى شتاء عام ١٩٤٩.. وفى أحد طرقات باريس ذات الإضاءة الضعيفة كان هناك صديقان يسيران فى هدوء.. وفجأة تقدمت سيارة مسرعة.. اندفعت إلى أحدهما، فلجأ بقفزة سريعة إلى ركن بناء قريب.. لمسته السيارة ثم تراجعت مسرعة وولت هاربة.. الرجل الذى نجا بعمره اسمه كونراد كيلن CONRAD KILIAN.. اقترب منه صديقه ليطمئن.. فقال كونراد:

ـ هل صدقت الآن؟..

كونراد لم يكن رجل نضال، أو رجل سياسة، أو عضوا فى عصابة دولية، أو له عداوات شخصية.. كونراد كان عالمًا فى البترول.. وكان ذلك كافيًا لمطاردته عام ١٩٤٩..

كان يعرف أنه مطارد.. لقد أمضى غالبية حياته العملية فى صحراء الجزائر، وعبر حدودها من الجنوب إلى ليبيا وهناك بئر بالبترول فى منطقة فزان، بمنطق زمانه، وبمنطق مكانه، الجزائر وليبيا والخليج العربى والعالم الثالث كله فرصة لا تعوض لدول العالم الأول.. الشاطر يصل أولا.. الشاطر يضع علمه أولاً.. وقد وصل كونراد الفرنسى إلى فزان قبل غيره، فكان طبيعيًا أن يقضى حياته بشعور وطنى صادق ـ يحث الفرنسيين لإلحاقها بملكية فرنسا قبل أن يصل إليها الإيطاليون أو الإنجليز أو هؤلاء المحدثون البارعون فى سوق الحركة والشراء.. الأمريكيون..

كونراد كيلن كان جيولوجيا اجتذبته الصحراء فدرسها وأحبها وعاش بها لسنوات طويلة.. يلبس ملابسها ويأكل من طعامها، ويمارس عادات أهلها.. كان لورنس الجزائر. لورنس الذى ادعى حبًا صادقًا للعرب، ولكنه بالتأكيد كان هائمًا بالتاج البريطانى

كذلك كان كونراد.. محباً للصحراء، ولكن أيضاً لتلحق بالجمهورية الفرنسية سنيلة الإمبراطورية النابوليونية.

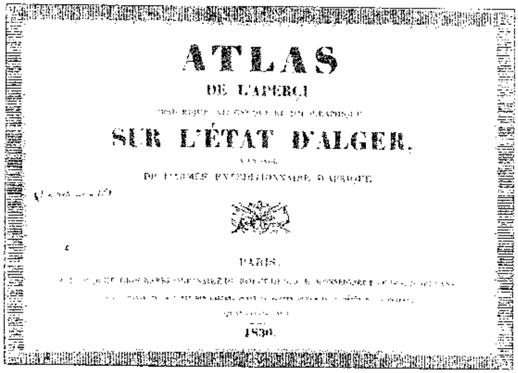
لم يكن ببراعة لورنس الذي كان يهيم كالصوفية، ويرتب أموره كرجال الأعمال.. كان يعيش في غير زمانه فلم يعرف الدعاية، والعلاقات، وأصحاب الكلمة الأخيرة.. عاش دارساً للصحراء متنبئاً بثرولها من خلال نسيج رومانتيكي يلتحم بأحلام نابليون في مصر.

ظل يصرخ معلناً نبوءته دون صدى.. ضاع صوته، ومن سمعه اعتبره مجنوناً وإن أنصفه اعتبره صاحب خيال قصصي لا يليق برجل جغرافي وجيولوجي.. لم ينصفه الفرنسيون، والتقطت أجهزة الخبرة صوته فضاعت «قزان» من فرنسا بمنطق الاستعمار في زمان كان لا يحسب حساب ضياعها بمنطق الاحتلال والاستقلال.

وكونراد كيلن اسم ألماني، جاءه من مسقط رأس عائلته.. الألزاس وعندما سقطت في يد الألمان ١٨٧٠ رحلت العائلة إلى «جرينوبل».. والده كان جيولوجياً معروفاً، ورث كونراد عنه حبه للعلوم الطبيعية، فكتب وهو في التاسعة من عمره بحثاً صغيراً في سبعين صفحة بعنوان «الأرض والكائنات».. كتب في صفحته الأولى: «غداً ستصبح كل القارات - ما تحت الأرض وما فوقها - في خدمة الإنسان.. سيظل هناك سر واحد.. وهو أفريقيا..

في سن العاشرة كان يثير دهشة أساتذته بقدرته على الحفظ والقراءة والاستنتاج.. أصدقاؤه بالمدرسة كانوا يعتبرونه صاحب مزاج خاص، وأيضاً قدرات خاصة.. يجمع بين الشراسة المتناهية، ورهافة الحس الحالم.. يخرج دون افتعال بآراء جديدة وتصرفات غير متوقعة..

حمل ذات يوم فأراً أبيض على كتفه وكان يسيره كحيوان أليف.. عقد صداقة خاصة مع أخيه رغم اختلاف الأمزجة.. كان شغوفاً بقراءة المؤرخ القديم «هيرودوت».. جاء في قصصه أن هناك ثروة هائلة مطمورة في الصحراء.. ثروة تعود لشعب يسمى «الجارامانتيين»، فكان كونراد يعلق: حينما أنهي دراستي سأذهب للبحث عن زمرد الجارامانتيين.. ظل اهتمامه بالعلم ملتهباً.. فنشر عدة مقالات.. وحينما اندلعت الحرب الأولى شارك فيها كمقاتل في سلاح المدفعية. وانتهت الحرب وهو في حالة صحية سيئة، فقضى فترة نقاهة تعرف فيها على الفتاة «كورين» وأعلن خطبته على أن ينتهي من مشروع زواجه بعد انتهاء دراسته..


ATLAS
DE L'APERÇU
SUR L'ÉTAT D'ALGER.
PARIS.
1830.

صفحة عنوان الأطلس العام الذي استهدف احتلال الجزائر ١٨٣٠


كونراد كيلن


كورين خطيبة كيلن

وفي عام ١٩٢٠ بدأ الدراسة ولكن سرعان ما ضاق بها. فأرسل أستاذه إلى والده يخبره بالأمر في وقت وصل إلى الوالد خطاب من صديق سويسري ثري يعيش في الجزائر، يحلم بالحصول على زمرد أو ثروة الجارامانتيين.

صديق والد كونراد سمع بهذه الثروة من سكان الصحراء وسمع أن شخصاً مغامراً استطاع أن يحصل على زمرد بحجم بيضة الحمامة حينما غاص في الصحراء.. أعد حملة يقودها خبير صحراوي يدعى «لاكروا» ولكنه يحتاج إلى خبير جيولوجي فأرسل إلى صديقه وليفرد كيلن والد كونراد يأخذ رأيه.. رشح الوالد ابنه للقيام بالمهمة رغم علمه بمدى خطورتها ومدى ارتفاع نسبة الخيال فيها.. الخيال والمخاطرة شيئان يناسبان كونراد.. رحب على الفور ورحبت بتبعية المشاركة خطيبته..

وفي ٨ يناير عام ١٩٢٢ تحركت القافلة تقصد منطقة الأحجار في جنوب الجزائر يقودها لاكروا.. ضخم بلحية حمراء وملامح عنيفة، ولعنات وشتائم متتابعة من فمه عندما يأمر أتباعه.. أو تجشأ شبه مستمر عندما يلوذ بالصمت.. يصحب معه فتاة يتصور أنها من ملكيته الخاصة.

بدأت الرحلة بحقد دفين لكونراد، فقد حصل من حاكم إقليم الواحات على حق ارتداء الزي العسكري، وتابع أو مساعد من أبناء الصحراء يدعى «محمد بن حمولة».. وفي الليلة الأولى نامت فتاة لاكروا في خيمة كونراد..

كونراد كان يبحث عن شيء آخر غير زمرد صاحب الحملة وفتاة لاكروا.. كان يدرس كل منطقة بعناية.. يجمع الأحجار ويسجل الملاحظات، وينفرد دائماً للدراسة.. زاد هذا التصرف من حقد زميله فرفع ذات ليلة خنجره في وجه كونراد.. استل كونراد مسدسه وسدده في هدوء إلى رقبة لاكروا فاستكان.

وصلت القافلة إلى مرتفعات الأحجار جنوب الصحراء.. إلى ارتفاع ألفي ميل.. هنا حدد صاحب الحملة مكان الزمرد.. دخلت الجماعة إلى كهوف غامضة واستطاعت وسط الدهشة أن تلمح أحجاراً خضراء تلمع في وهج الشمس.. أخيراً الزمرد.. الزمرد.. تناولها كونراد في هدوء.. وضع بعضها على النار، سحق البعض الآخر.. إنه نوع من الأمزونتي الذي يقرب في شكله من الزمرد.

لاكروا كان في عالم آخر.. صرخ وشلل، وتمرغت صاحبته على الأحجار في حالة عصبية من الفرح.. بعد لحظات شرح لهم كونراد الأمر.. ليست هذه الحجارة بالزمرد، ولكن من الصعب كشفها.. زمجر لاكروا، وسخطت صاحبته وقررا التخلص من كونراد.. أدرك الأمر وقرر بدوره الانفصال عنهما بمؤنته وأتباعه وجماله..

الثروة البترولية

قرار الانفصال عن القافلة كان ضربة من ضربات القدر التي وجهت كونراد جهة أخرى وقدرت عليه قدراً آخر.. قرر أن يغوص في الصحراء ليتابع دراسة طبقات الأرض. تردد رفاقه ولكنه أصر.. حذروه من سكان المنطقة ولكنه استمر.. وقع في يد زعيم القبائل، ولكنه استطاع أن يتخلص بظرف ولباقة، وتابع السير فاجتاز منطقة الأحجار وشارف مركز إقامة الملكة «زارا»..

الملكة «زارا» زعيمة المنطقة.. اشتهرت.. بجمالها وسطوتها.. وحينما التقيا دار بينهما ما يحكى من قصص ألف ليلة وليلة أو فيلم من أفلام النظرة، فالكلمة فالحب فالـ.. استقر كونراد عند الملكة، وارتدى زي الصحراء وتفنن في التأنق به فبدا كأنه من سلالة بدوية أصيلة..

صورة كونراد ولورنس في الصحراء كانت تثير خيال شباب أوروبا في العشرينيات.. دخلت المنازل، وفصول الدراسة في المدارس، وقاعات الدرس في الأكاديميات العسكرية.. كانت مثالاً لغزو الغربي العالم الشرقي في مجاهله على حصان أو جمل.. مثال للسطوة.. وعند البعض مثال لرسالة إنسانية في عالم يحتاج إلى وصلة حضارية غربية.. وعند آخرين هروب من عالم مجنون قتل الملايين في حرب عالمية مدمرة.. نعم صار كونراد على جمله مثالاً يحتذى في ذلك الوقت..

كتب كونراد في مذكراته عام ١٩٢٢ لأول مرة عن نبوءته البترولية في الصحراء «إنني أنام على مليارات من براميل النفط في هذا النسيج الرملي بالصحراء».. وبعد تأكده بعدة أسابيع من

كشفه كان عليه الإعلان.. كان عليه ترك الصحراء فكتب يقول: من السخف العودة إلى عالم الحضارة الحديثة.. سأبحث محاولاً ايجاد طعم لحياتي الأوروبية..

وصل فرنسا وحمل والده ابحاثه إلى المؤتمر الجيولوجي الدولي في بروكسل.. أثارت ابحاثه الكثير من الدهشة، وأعادت النظر في كثير من الأحكام على الصحراء جغرافياً وجيولوجياً.. ولكنهم نظروا إليه نظرة شك وربما اتهام بالتهور حول حديثه عن البترول..

حديثه عن البترول كان يأتي في المرتبة الأولى عنده، قبل الاعتراف بعبقريته الجغرافية أو الجيولوجية أو دراسة الشعوب.. لكنه لم يجد إلا الصمت، فقرر العودة إلى الصحراء، ويقال إنه ذكر قبل رحيله عن إمكان وجود «ثلاجات» طبيعية فوق قمم جبال الأحجار.. وقد اثبتت الدراسات والصور الجوية الحديثة صحة هذا الرأي..

حاول قبل الرحيل إغراء خطيبته بالرحيل معه فقد يطول غيابه إلى ثلاث أو أربع سنوات، ولكنها رفضت.. وعندما وصل الجزائر أعد قافلته لاستئناف بحوثه في أقصى جنوب الصحراء الجزائرية.. كان عليه أولاً المرور في منطقة «توجرت» حيث تحكم جماعة الأولاد نائل الملكة عيوشة تنشا.. ويذكر في مذكراته أن سكان هذه المناطق كان بعضهم يستبيح الدعارة المقدسة «لا أدري مدى صحة هذا القول».. المهم ان الملكة وقعت في غرامه وأهدته ثروتها من المجوهرات وزاد هيامها به فارتضت أن تحيك بنفسها على رايتها الخاصة «العبيد يتولون عادة الحياكة عند هذه القبائل» رمزاً خاصاً باسمه، كتبت على رايتها «مع الشجاع دائماً كيلن».. لقد قبلت بهذا التصرف ضمناً أن تكون «أمة» له..

تحـــقيـق الحـلـم

نحن الآن في ٤ ابريل عام ١٩٢٧.. كونراد يستأنف طريقه إلى الجنوب، كان عليه أن يمر ثانية على منطقة الأحجار.. أن يعاود الذكريات مع الملكة «زارا».. رحبت به.. رجته أن يبقى.. ولكنه أصر على استئناف طريقه إلى أقصى الجنوب.. صحب معه دليلاً صحراوياً آخر في منطقة لم يدخلها أحد من قبل..

بدأت مأساة الجماعة.. في النهار ترتفع درجة الحرارة إلى ستين، وفي الليل تنخفض إلى صفر.. انقطعت صلتهم بمظاهر الحياة، لم يبق لهم سوى أمل العثور على آخر بئر يعرفه الدليل حتى يتلمسوا طريق العودة.. بعد ثلاثة أيام عثروا على البئر، وجدوه خالياً فصاح «البئير» إنها النهاية.. أقرب خط حياة أو أقرب بئر على بعد ثمانين كيلو متراً.. أيام وأيام من السير دون ماء.. أصدر كونراد أوامره ببقر بطن اوهن الجمال وتفريغ ما اختزنه من الماء.. أفرغوا من بطن الجمل ما يقرب من ١٢ لتر ماء برائحة لا تطاق.. وحذرهم كونراد من شربه.. لقد قتل كثيرون من قبل بشربهم الماء المخزون في بطون الجمال.. أوقد النار وترك فوقها الماء لطرد السم والرائحة.. وأخيراً شربوا وحملوا الباقي واستأنفوا الرحلة..

دخلت الجماعة إلى «فزان» منطقة جديدة لا يعرف عنها شيئاً.. الحد الفاصل بين النفوذ الفرنسي والنفوذ الإيطالي، وبعد أن سجل ملاحظاته الجغرافية والجيولوجية استأنف توغله.. فجأة عادت إليه أحلام الصبا حية أو قل متحجرة.. آثار حوافر جياد، آثار سير عربات باقية متحجرة وكأنها مرسومة على الحجارة.. ماذا حدث؟.. من سكن هذه المنطقة؟.. إن آثارها تدل على مرور ما يقرب من أربعة الاف سنة على الأقل.. هذه الحوافر وهذه العربات لابد أنها لجماعة الجارامانيين.. ولكن كيف تأتي الجياد وتكون الحياة وسط الصحراء؟..

من قراءة ما تركوه من رسومات حائطية داخل الكهوف وجدت صور مراع.. نعم مراع خضراء، وماء وحياة في وسط هذا الخواء.. إنها إحدى خرافات التاريخ الحي الساخر مسجلة واقعية لا تقبل الشك.. هذه أيضاً زمردة وجدها في أحد الكهوف.. هيرودوت كان على حق فيما روى وجد كونراد أخيراً ثروته التاريخية بعد أن دون ثروته الجغرافية والجيولوجية.. واستأنف الرحلة..

وصل في داخل «فزان» إلى منطقة نفوذ جماعة «مرزوق» الثائرين على الاستعمار الإيطالي.. وعقد معهم صداقة، وطالبه سلطانهم أن يشترك معهم في القتال أو كما ذكر في مذكراته أن يقود قوة من عشرة آلاف مقاتل لقتال الإيطاليين، ولكنه اعتذر لأن دولته فرنسا حذرته من قتال الإيطاليين فليس بينهما حرب.. ويقول إنهم قبلوا منطقه، فهم كبدو يحترمون كلمة «الأم» بقصد الوطن..

الغيـــبـــة والعـــودة

بعد غيبة ثلاث سنوات عاد كونراد إلى الحضارة.. ولكن الحضارة نسيته، فقد أنفق على الرحلة من جيبه وصار مفلساً.. ولم يحصل على التقدير الذي كان يأمله لا أدبياً ولا مادياً، فعثر على وثيقة قديمة تركها نابليون تذكر أن علماءه الذين صحبهم معه في حملتهم على مصر كانوا يحصلون عند نبوغهم على لقب «العاهل المكتشف» وأعجبه اللقب فصار يوقع خطاباته باسم «كونراد كيلن العاهل المكتشف»..

عاش بأحلامه وتصور بهذه الأحلام أنه يستطيع أن يستعيد خطيبته بعد أن تزوجت، وأعلن في جدية أن زواجها مفاح، وذهب إلى زوجها يطالبه بتركها، وترك الزوج في هدوء أمر الاختيار للزوجة الخطيبه.. خذلت كونراد كما خذلته الحضارة وقررت الاستمرار مع زوجها..

قد يكون تصرف كونراد مع خطيبته جنوناً، ولكن ما حاوله مع حكومته لم يكن جنوناً بمنطق المصلحة القومية بمفهوم استعماري أوروبي.. كتب تقارير وتقارير يحاول بها أن يقنع حكومته بالتمسك بمنطقة «فزان» عند عقد معاهدة الحدود مع إيطاليا.. فهي مصدر ثروة بترولية هائلة من حق فرنسا، ألا يكفي كحق أن أول من وصل لهذه الحقيقة مواطن فرنسي.

اندلعت الحرب العالمية الثانية وجعلت كونراد يتمسك أكثر بضرورة البحث عن الثروة حتى يضمن لبلاده النصر والسطوة، ودخل الإنجليز والأمريكيون في اللعبة، وحاولوا إغراءه حتى يعمل لحسابهم، ولكنه رفض واستأنف ابحاثه في منطقته «فالزاسة» معلناً أن بها قدراً هائلاً من المعادن.. وكتب في مذكراته عام ١٩٤٤: لقد حاولوا من قبل الرئيس روزفلت أن أعمل لحساب الولايات المتحدة حتى أضمن لها ثروة هائلة وكتب للجنرال ديجول وكان في ذلك الوقت يتولى رئيس لجنة التحرير.. ولكن دون صدى..

استمرت محاولات كونراد في إثارة القضية من جديد بعد الحرب العالمية الثانية وكاد بنك باريس والأراضي المنخفضة أن يعقد احتكاراً مع البنوك الأمريكية لمنطقة فزان.. ثم تقدمت كندا بمشروع آخر أكثر سخاء، وفجأة عارضه روبرت شومان وزير خارجية فرنسا فتوقف المشروع..

ضاعت آخر آمال كونراد، وجرت بعدها محاولة قتله بالسيارة عام ٤٩ فنصحه الأصدقاء بالانسحاب إلى مسقط رأسه «جرينوبل» متفرغاً لأبحاثه.. هناك عاش حياة متواضعة تعتمد على منحة قليلة، واقتصر في يومه على الخروج في الصباح من فندقه مرتدياً ملابس ممزقة تسترها سترة عسكرية، متوجهاً إلى المكتبة حيث يقضي يومه ويعود في السادسة بعد الظهر..

وفي ٢٩ ابريل عام ١٩٥٠ اقتحمت الخادمة غرفته في الصباح بعد خوفها لطول غيابه، فوجدته معلقاً من رقبته في مصراع النافذة..

هل انتحر كونراد؟.. هل قتل؟..

البوليس وجد شرايين يده ممزقة بسكين وربما بقطعة زجاج من زجاجة عطر وجدت مهشمة وكلمة قصيرة كتبها «زهرة بانسيه لكورين» (خطيبته).. قبل كل شيء عاشت فرنسا بارك الله في كل من أحببت..

اندهش رجل البوليس لأول مرة يجد منتحراً بعيون مفتوحة.. ولأول مرة يجد منتحراً معلقاً في مصراع النافذة الأقصر منه بكثير.. ويقول صديق له شاهد أن كونراد قال له: إذا مت بطريقة عنيفة فاعلم أن ذلك سيكون بيد جماعة بترولية اجنبية.. وقال شاهد آخر أن كونراد قال له «سيتحدثون في المستقبل عن انتحاري.. ولكني لست ممن يفكر بهذه الطريقة المتطرفة.. ليست هناك حالة توصلني إلى هذا الحد»..

كونراد عاش في غير زمانه.. كان استعمارياً بطريقة فيكتوريا ونابليون الثالث في زمان كان الاستعمار فيه بطريقة فورد وجنرال موتورز.. ابتلعته الاحتكارات الدولية لرفضه الثروة على طريقتها.. طريقتها عالمية وطريقته كانت قومية.

كان كونراد مهووساً بالبحث عـــن البتـــرول وحـــاول الانجليـــز والأمريكيـــون إغـــراءه لكنـــه ظـل وفيـــاً لبلاده فرنســا.. وعنــدما ضــاعت أحلامه انتحر عام ١٩٥٠

الحرب على الفساد «الأفريقي»

يواكيم تشيسانو

أود في البداية أن أعبر عن شكري الجزيل والعميق للجنة جائزة مؤسسة مو إبراهيم على منحي أولى جوائز مو إبراهيم للإنجاز في القيادة الأفريقية. وإني أمتدح الدكتور مو إبراهيم لرؤيته الخاصة بتأسيس الجائزة. كما أقبل الجائزة بتواضع وبشرف كبير. فأنا أقبلها باعتبارها تبجيلاً لملايين النساء والرجال في موزمبيق، شباباً وشيوخاً، لالتزامهم الذي لا يكل بالحرية والسلام والديمقراطية والرخاء في بلدنا.

عندما توليت القيادة كرئيس لموزمبيق في عام ١٩٨٦ كانت البلاد تواجه حرب زعزعة للاستقرار دمرت البلاد وشعبها. وإمعاناً في السوء، كان للكوارث الطبيعية أثرها القاسي على البلاد. وكان هناك تفاهم مشترك بين شعبنا والقيادة على أن أهم هدف يجب بلوغه هو إنهاء الحرب. وقد ألزمنا أنفسنا بإنهاء الحرب وإقامة السلام والتحول الاقتصادي.

وفي هذا الصدد، بدأنا العمل ببرنامج لإعادة التأهيل الاقتصادي في عام ١٩٨٧ في مسعى لتشجيع النمو الاقتصادي وتغيير مجتمعنا. وشمل البرنامج خصخصة المشروعات المملوكة للدولة وخلق الأطر القانونية والاقتصادية الكلية الممكنة للاستثمار الخاص، الأجنبي والمحلي.

وفي عام ١٩٨٩ كان هناك جدل على مستوى الأمة بشأن الإصلاحات الدستورية. وكانت غالبية كبيرة من الشعب الموزمبيقي ضد فتح البلاد للنظام السياسي متعدد الأحزاب، ولكن قيادة البلاد شعرت بأن الدستور الجديد ينبغي أن يدخل الديمقراطية متعددة الأحزاب وكذلك اقتصاد السوق، وتوسيع حقوق المواطنين. وأقر الدستور في عام ١٩٩٠ .

على هذه الخلفية، وسعنا اتصالاتنا، وتفاوضنا مع المتمردين، وبدأنا في الوقت نفسه محادثات مع العديد من الجماعات الموزمبيقية، المقيمة داخل البلاد وخارجها. وشمل ذلك هؤلاء الذين كنا نعلم أنهم يدعمون حركة رينامو المتمردة. وكان هدفنا هو جمع الموزمبيقيين جميعاً على المسار نفسه؛ ذلك المسار الذي يصل بالبلاد إلى السلام والاستقرار والتنمية.

نجحت تلك الجهود في أكتوبر من عام ١٩٩٢ عندما وقعت اتفاقية السلام بين الحكومة ورينامو في روما. وقد أتاحت تلك الاتفاقية الفرصة للعمل والأمل للأمة بكاملها.

ولكي يكون للسلام معنى، ولكي نستغل مكاسب السلام ذات القاعدة العريضة، فقد جرى إعادة تأهيل البنية الأساسية وتحسينها وتوسيعها، وإعادة توطين اللاجئين والنازحين، وكذلك إعادة الدمج الاقتصادي والاجتماعي للمقاتلين السابقين باعتبار تلك أموراً ذات الأولوية. كما جرى تعزيز المؤسسات الديمقراطية والمساواة بين الرجل

كلمة ألقاها الرئيس الموزمبيقي السابق في مكتبة الإسكندرية يوم ٢٦ نوفمبر الماضي بمناسبة تسلمه جائزة «مو إبراهيم» للحكم الرشيد في أفريقيا.

مؤشر الحكم الرشيد

في ٢٦ نوفمبر الماضي منحت مؤسسة مو إبراهيم للحكم الرشيد في أفريقيا جائزتها للمرة الأولى للرئيس الموزمبيقي الأسبق جواكيم تشيسانو. ونظراً لجهوده في تحسين أحوال شعبه وتخليه عن الحكم طواعية في سابقة نادرة من الزعماء الأفارقة.

والجائزة، وهي الأعلى قيمة في العالم تمنحها المؤسسة التي أسسها رجل الأعمال السوداني الشهير عام ٢٠٠٦ للقادة في جنوب القارة السمراء، بناء على اختيار لجنة تضم شخصيات رفيعة المستوى تتألف من سكرتير عام الأمم المتحدة السابق كوفي أنان والرئيس الفنلندي السابق مارتي اهتيساري، وماري روبنسون رئيسة أيرلندا السابقة، وسالم أحمد سالم السكرتير العام للاتحاد الأفريقي، وعائشة ديالو المستشار الخاص لليونسكو حول أفريقيا ونوجوزو أيويلا وزير المالية النيجيري السابق.

وقد وضعت مؤسسة مو إبراهيم للحكم الرشيد مؤشراً علمياً بتصنيف الدول الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى وهو يستهدف:

❖ توفير المعايير الموضوعية التي يمكن بها للمواطنين إخضاع حكوماتهم للمحاسبة.

❖ تشجيع مناقشة الحكم الرشيد عبر إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى والعالم.

كما يهدف المؤشر إلى تعزيز الحكم الرشيد في إفريقيا لتحسين حياة الأفارقة في كل مكان، وقد نُشر مؤشر إبراهيم الأول في سبتمبر من عام ٢٠٠٧ وسوف يجري تحديثه بشكل سنوي، ليكون بمثابة سجل التقدم الوطني في إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى.

وقد أعد المؤشر بتوجيه من مدرسة كنيدي للحكم الرشيد في جامعة هارفارد، وبقيادة البروفيسور روبرت روتبرج مدير برنامج الصراع داخل الدول وحل الصراعات، كما شارك في الإعداد المجلس الاستشاري الذي يضم مجموعة من الباحثين والممارسين الأفارقة المميزين.

ويقيس مؤشر إبراهيم مدى توافر المصالح السياسية الأساسية التي يمكن تجميعها في خمس فئات:

❖ الأمن والأمان
❖ حكم القانون، والشفافية والفساد
❖ المشاركة وحقوق الإنسان
❖ الفرصة الاقتصادية المستدامة
❖ التنمية البشرية

وبصورة عامة هناك ٥٨ قياساً منفصلاً تطبق على كل بلد لتوليد نقاط للفئات الخمس، ويولد متوسط مجموع نقاط الفئات الخمس التقدير العام للبلد، الذي يكون بمثابة الأساس للترتيب النهائي.

وقد اعتمد مؤشر ٢٠٠٧ على بيانات من عام ٢٠٠٥ و٢٠٠٦ وطبقاً لهذا المؤشر، فقد جاءت موريشيوس في المركز الأول بـ ٢,٨٦ نقطة تلتها سيشل، ثم بوتسوانا والرأس الأخضر وجنوب أفريقيا والجابون وناميبيا وغانا والسنغال وساوتومي وبرنسيت، بينما جاءت الصومال في المركز الثامن والأربعين وهي الأخير في المؤشر بـ ٢,٢٨ نقطة وسبقتها الكونغو الديمقراطية وتشاد والسودان وغينيا بيساو وليبيريا وأنجولا.



تشيسانو



مو إبراهيم



كوفي أنان

والمرأة. وهو ما تم في إطار المصالحة الوطنية وبناء السلام وترسيخ الإصلاحات السياسية والاجتماعية، وأدى إلى ظهور ثقافة التسامح وسياسة الاحتواء.

بالإضافة إلى ذلك فقد أعطيت الأولوية للزراعة من أجل إنتاج المحاصيل الغذائية والنقدية بواسطة الفلاحين بغرض إنعاش الاقتصاد. وكانت نتيجة ذلك، وبالرغم من الفيضانات الشديدة في عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠١، أن زاد إجمالي الناتج المحلي بمعدل سنوي مقداره ٨,١٪ ومع أن الفقر مازال التحدي الرئيسي الذي يواجه البلاد، فإننا على ثقة من أننا نسير على طريق تحقيق معظم أهداف التنمية الألفية.

لقد تأثر قراري إلى حد كبير بفهم أن البلاد في سلام وأن الاقتصاد ينمو باطراد. كما كانت الديمقراطية تتأصل. إلى جانب أني أدركت أن الوقت قد حان وباتت الظروف مواتية للسماح لقيادة جديدة بتولي الحكم ودفع البلاد إلى الأمام.

ويسعدني أن خلفي الرئيس أرماندو جيبوزا قد عزز مكاسب السلام وأدخل ديناميكيات جديدة خاصة بالتحول الاجتماعي والاقتصادي للبلاد. والواقع أن التقدم مازال في ازدهار في موزمبيق.

ومع أني لم أعد في الحكم، فما زلت أقدم دعمي وتأييدي للتنمية السياسية والاجتماعية والاقتصادية للدولة، من خلال مؤسسة يواكيم تشيسانو التي بدأت عملها في نوفمبر من عام ٢٠٠٥. وأعمدة المؤسسة الثلاثة هي تعزيز السلام، والتنمية الاجتماعية والاقتصادية، وكذلك الثقافة.

ومازلت أشارك في الأمور المحلية والإفريقية لأني أعلم جيدًا مقدار مازلنا بحاجة إلى القيام به للارتقاء ببلدنا وقارتنا. فها هو الفقر لا يزال تحديًا كبيرًا. كما أنه لابد من القضاء على مرض نقص المناعة البشرية المكتسبة/ الإيدز، والملاريا، والسل. ولابد من استكمال عملية بناء الأمة في إفريقيا. ومازال السلام مراوغًا.

لابد لنا من تنمية وتأصيل ثقافة السلام في مجتمعاتنا. ولابد من تعزيز سلامة الأراضي. ولابد من تشجيع الشراكة بين العام والخاص وإعطاء دور أقوى لقطاعنا الخاص. ولابد من محاربة الفساد وتعزيز الأمانة والحكم الرشيد. ولابد من بدء واستدامة عملية الحوار الوطني والمصالحة في البلدان كافة التي خرجت من الصراع. باختصار: لابد لنا من العمل في اتجاه بناء دول تتمتع بالقدرة والكفاءة في إفريقيا.

بالرغم من أن دستور موزمبيق كان يسمح لي بالترشح لفترة ثالثة في الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٤؛ فقد قررت ألا أرشح نفسي، وكانت نتيجة ذلك أن أعلنت قراري بعدم السعي لتولي منصب الرئيس لفترة ثالثة قبل موعد الانتخابات بثلاث سنوات، وذلك من أجل أن تعد البلاد نفسها لانتقال سلمي للسلطة.

لكي يكون للسلام معنى، ولكي نستغل مكاسب السلام ذات القاعدة العريضة، فقد جرى إعادة تأهيل البنية الأساسية وتحديثها وتوسيعها، وإعادة توطين اللاجئين والنازحين

في الختام يسعدني قبول هذه الجائزة من مؤسسة مو إبراهيم، ويشرفني أن أكون أول من يحصل على جائزة مو إبراهيم. إن هدف المؤسسة الخاص بالاعتراف والاحتفاء بالقيادات الأفريقية هدف نبيل. وإنني أتطلع إلى الاستفادة من الجائزة في عمل ما يمكنني لتعزيز الحكم الرشيد في القارة التي تتغير بسرعة للأفضل. وشكرًا للمؤسسة وللجنة الجائزة.



مراجعة "المراجعات"

هذه المراجعات خطوة إيجابية وشجاعة، ولكنها بدائية تحتاج لاستكمال وتطوير وإنضاج كما فعلت «الجماعة الإسلامية» في مراجعاتها في مراحلها الأخيرة.

أبو العلا ماضي

كانت مجموعات الجهاد تؤسس لمشروعية قيامها باستخدام العنف أو «القوة» في تغيير الأنظمة على أساس تكفير هذه الأنظمة وبالتالي استحلال قتلهم ودمائهم

نشرت عدة صحف مصرية وعربية سلسلة أجزاء من دراسة للدكتور سيد إمام عبد العزيز الشريف المعروف باسم د. فضل تحت عنوان ذي دلالة وهو المراجعات الفقهية لـ «الجهاد» وبالطبع يقصدون حركة «الجهاد» المصرية أو بعضا من رموز جهادية، واسم هذه الوثيقة هو «ترشيد الجهاد في مصر والعالم». والحقيقة أن هذا الموضوع بالغ الأهمية سواء على المستوى المحلي (مصر) أو العربي والدولي، وبالتالي الأمر يحتاج لنقاش طويل ومعمق سأحاول أن أساهم فيه مع كثيرين غيري ممن لهم صلة بهذا الشأن. وقد ساهمت بجهد متواضع طوال السنوات الماضية في رصد الظاهرة الإسلامية بكل تكويناتها ودراساتها بشكل نقدي ومحاولاً أن أكون موضوعيا، وكان من ضمن من شملتهم هذه الرؤية «الجماعة الإسلامية الجهادية» في مصر وخاصة بعد مراجعاتهم الشاملة، التي تصلح لأن تكون الآن وبعد أكثر من ٥ سنوات من نشر أولى كتبهم الأربعة والتي نُشرت تحت عنوان «سلسلة تصحيح المفاهيم» في يناير عام ٢٠٠٢ مشروعاً متكاملاً للمراجعات. وقد كتبت كتاباً عن هذا الموضوع «جماعات العنف المصرية وتأويلاتها للإسلام» وكذلك عدة دراسات نُشرت في أماكن مختلفة وآخرها فصل في كتاب سيصدر قريباً بإذن الله مع مجموعة من كبار العلماء والمفكرين والمهتمين بالظاهرة في العالم العربي والإسلامي، ولذلك وجدت من الأهمية بمكان أن أشارك في رصد هذه الظاهرة الهامة وقراءة المشروع الجديد للمراجعات الخاصة بمجموعة أو أكثر من مجموعات «الجهاد». وسأبدأ بملاحظات عامة ومنهجية قبل الدخول في مناقشة المراجعات ذاتها:

أولاً: أول من كتب بشكل حقيقي وعلمي وعميق في هذه المراجعات هو الأخ والصديق الدكتور كمال حبيب في دراسة هامة له نشرتها مجلة «المنار الجديد» في عدد يناير ١٩٩٨م بعنوان «الحركة الإسلامية المعاصرة» وبالطبع هذا المقال سبق نشر مراجعات «الجماعة الإسلامية» بثلاث سنوات ثم بعد ذلك كتابه الهام أيضاً «الحركة الإسلامية من المواجهة إلى المراجعة».

ثانياً: يلي ذلك مراجعات «الجماعة الإسلامية» التي انتهجت العنف بالكتب الأربعة الأولى السابق الإشارة إليها ثم تكرر صدور عدد كبير منها حتى وصل عدد الكتب والكتيبات الصغيرة إلى ما يقرب من ثلاثين إصداراً، ولقد لاحظت تطور ونضج الكتابة والأفكار في الكتب الأخيرة أكثر من الكتب الأربعة الأولى.

ثالثاً: يجب التنبيه إلى المدخل الصحيح لمراجعة أحداث العنف التي تمت من قبل عدد من الجماعات والمجموعات التي مارسته وخاصة في أوطانها وضد مواطنيها أو سلطاتها لم يكن أبداً «جهاداً» بقدر ما كان افتئاتاً على السلطة وعدواناً وبالتالي لا يجب مناقشة هذه الأفعال على أنها من باب «الجهاد» ولكنها من باب «الفتنة».

رابعاً: انه لم يكن هناك جماعة «الجهاد» بالتعريف المنتشر عن «الجماعة» بمعنى الانتشار في معظم أنحاء القطر وتنظيم هرمي... إلخ. ولكنها كانت مجموعات صغيرة منتشرة في مناطقها فقط وليست مرتبطة ببعضها البعض سوى بالمغذيات الفكرية شديدة التقارب والتشبه وبالتالي لا يمكن القول أن شخصا من رموز هذه المجموعات زعيم أو قائد جماعة «الجهاد» ولكن زعيم وقائد مجموعة جهادية محددة.

خامساً: من بعض هذه الرموز الجهادية من حظى بتأييد يتجاوز حدود مجموعته الصغيرة ولعل منهم صاحب هذه المراجعات الأخيرة الدكتور سيد إمام أو (د. فضل)، وكتبه السابقة وخاصة «العمدة في إعداد العدة» ١٩٨٨م، و«الجامع في طلب العلم الشريف» ١٩٩٣م كانت شديدة الانتشار والتأثير على مجموعات جهادية متعددة سواء في مصر أو العالم العربي ولذلك تحمل مراجعاته أهمية خاصة بالرغم من محدودية مجموعته السابقة التي انفصل عنها منذ مدة.

سادساً: بالرغم من الانتقادات التي ستوجهها أحياناً لهذه المراجعات فإن الصبر عليها لتطويرها أمر واجب، ولقد كان الأمر نفسه في مراجعات «الجماعة الإسلامية» حيث بدأت أولى إصداراتهم ضعيفة وغير كافية، لكن مع النقد والتصويب من خارجهم استجابوا مشكورين في الكتابات التالية وأصبحت كتبهم أكثر نضجاً وأكثر استجابة لهذا النقد والتقويم، وبالتالي يجب أن نكرر الأمر نفسه مع مراجعات «الجهاد».

سابعاً: أن ظاهرة العنف لها مستوى محلي ومستوى دولي ويساهم فيها بالإضافة للأفكار والأفهام الخاطئة للنصوص الإسلامية من كل هذه الجماعات والمجموعات أسباب محلية وأسباب خارجية معاً لكنها في العنف المحلي تتعاظم الأسباب المحلية عن الخارجية وفي العنف الدولي تتعاظم الأسباب الخارجية عن المحلية.

ثامناً: من الأسباب المحلية التي تساهم في تغذية ظاهرة العنف غياب الحريات السياسية بكافة أنواعها وانتهاك حقوق الإنسان وغياب العدالة واحترام القانون، والأوضاع الاقتصادية المتردية وغياب العدالة الاجتماعية... إلخ، ومن أهم الأسباب الخارجية هو سيطرة النظرة الغربية الاستعمارية على المنطقة العربية والعالم الإسلامي والكيل بمكيالين في كل القضايا العربية والإسلامية ودعم المشروع الصهيوني في فلسطين، واحتلال العراق وأفغانستان والعدوان على الدول العربية المختلفة، والنظرة فقط للمصالح الغربية دون مصالح المنطقة العربية، والحفاظ على الفجوة الهائلة في كل شيء في العلم والتكنولوجيا والاقتصاد... إلخ مع العالم العربي والإسلامي والعالم الثالث أو (أهل الجنوب).

تاسعاً: حين نقوم هذه المراجعات لابد من معيار أو «مسطرة» نستعملها في تقويم هذه المراجعات لنقول أنها كافية أو غير كافية، مناسبة أو ناقصة، صحيحة أو خاطئة... إلخ، ولقد كتبت في عدة دراسات لي حول هذا الموضوع حوالي ٩ مرتكزات استندت إليها جماعات العنف والتكفير وغيرها في تأسيس أعمالها. وسوف نستعمل هذه المرتكزات التسعة بإذن الله في تقويم المراجعات.

ولقد ثار تساؤل مشروع حول: هل كل استخدام للعنف والقوة غير مشروع؟ والإجابة تتوقف على نوع الاستخدام وليس على أصل الاستخدام. ولقد فرق العقلاء دائماً بين استخدام القوة والعنف في الدفاع عن النفس والمال والعرض والوطن، وكل هذا مشروع شرعاً وعقلاً وكمبدئ قانونية مستقرة سواء في التشريعات المحلية أو الدولية، وهي الفكرة التي تعرف حديثاً «بالمقاومة» تمييزاً لها عن العنف غير المشروع وغير المبرر وهو العنف الذي تستخدمه جماعات أو مجموعات مسلحة أو حتى أفراد وخاصة في الصراع السياسي كأحد أساليب الوصول للسلطة أو التخلص من المخالفين في الرأي، وهو المقصود بالعنف غير المشروع وغير المبرر والذي اصطلح الناس على تسميته «بالإرهاب» ولذلك النزاع دائما حول التفريق بين «المقاومة» و«الإرهاب» وعن تعريف كل منهما

نعود إلى المرتكزات الفكرية السابقة لمجموعات العنف ومنها مجموعات الجهاد التي يعبر عن مراجعاتها الآن د. سيد إمام. لقد كانت مجموعات الجهاد تؤسس لمشروعية قيامها باستخدام العنف أو «القوة» في تغيير الأنظمة على أساس تكفير هذه الأنظمة وبالتالي استحلال قتلهم ودمائهم ومنهم من كفر الأنظمة وكفر أعضاء هذه الحكومات والعاملين فيها من رؤساء ووزراء ونواب بالبرلمان وقضاة ورجال أحزاب... إلخ، كما فعل د. صالح سرية قائد تنظيم «الفنية العسكرية» في رسالته «الإيمان»، وكذلك فعل ذلك أي كفر الحكام محمد عبد السلام فرج في كتابه «الفريضة الغائبة» وهو نفسه صاحب هذه المراجعات أي د. سيد إمام في كتابه «الجامع في طلب العلم الشريف» الذي كفر فيه أيضا من يشارك في مجلس الشعب (البرلمان) واعتبر أن وظيفة هذه المجالس شركية (كما جاء في مقال د. أسامة رشدي في تعليقه على مراجعات د. سيد إمام «بالمصري اليوم»)، والحقيقة أنني قرأت كل الحلقات فلم أجد فيها رداً على هذا المرتكز أي تكفير الحكام ونظم الحكم، ولكن ما جاء في هذه الحلقات كان فقط

على قضية التكفير بشكل عام وحدد فيها أنواع الكفر الأكبر الذى يخرج صاحبه من الملة والكفر الأصغر الذى لا يخرج صاحبه من الملة (الحلقة الأولى) والإشارة الثانية كانت فى الحلقة الخامسة وفرق فيها بين العلم بكفر السلطان وبين وجوب الخروج عليه ومنع الخروج فقط عند العجز أو إذا غلبت المفسدة فى الخروج ثم أضاف فى نفس الحلقة الخامسة مقولة «وسواء كان ترك الحاكم الشريعة كفرا أو كفرا دون كفر أو معصية - فإننا لا نرى أن الصدام مع السلطات الحاكمة فى بلاد المسلمين باسم الجهاد هو الخيار المناسب للسعى لتطبيق الشريعة» وهو قول غير كاف لأنه لم يحسم رأيه فى المسألة، حيث أورد الرأيين فى بداية الفقرة المشار إليها، والحقيقة أن مراجعة هذا المرتكز أمر بالغ الأهمية قبل الحديث عن العجز عن مقاومة السلطات أو غلبة المفسدة فى الخروج عليه، ثم تحدث فى الحلقة التاسعة عن «ضوابط التكفير فى الشريعة» وهو أيضاً يتحدث عن تكفير الأفراد وهى قضية هامة فى فكر «جماعة التكفير والهجرة» وليس فى فكر جماعات الجهاد كلها وإن كان بعضها تأثر بهذه الأفكار، واستكمل الحديث عن ضوابط التكفير فى الحلقة العاشرة بكلام منقول ولكن أيضاً عن تكفير عامة المسلمين وليس نظم الحكم والقائمين عليها وهو أمر أتمنى أن يستوفيه د. سيد إمام فى مراجعاته فالأمر يستدعى خروج دراسات أخرى معمقة كما فعلت رموز الجماعة الإسلامية الجهادية فى مراحل لاحقة من مراجعاتهم وخاصة كتاب «الحاكمية» للدكتور ناجح إبراهيم الصادر عام ٢٠٠٤م.

والمرتكز الثانى الذى تأسست عليه أفكار مجموعات الجهاد هو:

«وجوب استعمال القوة فى تغيير أنظمة الحكم على أنه هو الجهاد الصحيح» وبالطبع كانت كل الوثائق القديمه لكل المجموعات الجهادية ومنهم المجموعة التى كان ينتمى إليها د. فضل وكذلك «الجماعة الإسلامية الجهادية» تتحدث عن تغيير الأنظمة الحاكمة بالقوة على أنه الجهاد الحقيقى والصحيح، وقد تم استدعاء كل النصوص القرآنية التى تتحدث عن الجهاد وتحض عليه وتم استخدامها لتبرير هذا الصدام والقتال مع الحكومات العربية لأنهم كفروها واستحلوا قتالها، وهذا الذى أحدث لبساً مع مفهوم الجهاد الصحيح فى الإسلام الذى هو ذروة سنامه وهو قتال المعتدين على الأنفس والأعراض والمحتلين للعباد والبلاد، وبالتالى ما وقع من هذه الجماعات والمجموعات لم يكن جهاداً ولكنه عدوان. فكيف عالج د. فضل هذا المرتكز فى حلقاته وخاصة أن فى مخيلته ما وقع من صدام مع الحكومات العربية والمسلمة وما وقع من أحداث عنف على مستوى عربى ودولى فى بلاد الغرب: فهو يتحدث عن هذه الوقائع على أنها أخطاء وقعت فى «الجهاد»، وهو أمر تكرر من قبل



الأمر يستدعى خروج دراسات أخرى معمقة كما فعلت رموز الجماعة الإسلامية الجهادية فى مراحل لاحقة من مراجعاتهم وخاصة كتاب «الحاكمية» للدكتور ناجح إبراهيم

فى بداية مراجعات «الجماعة الإسلامية الجهادية» وانتقدناه فى حينه حينما كتبوا كتيباً بعنوان «تسليط الأضواء على ما وقع فى الجهاد من أخطاء» ولكنهم استدركوا الأمر فى الكتابات اللاحقة، والأمر يتكرر بالنسبة لدكتور/ فضل عند بداية المراجعات فهو يعدد الأفكار والجرائم التى ارتكبت سواء على مستوى محلى أو مستوى دولى ويستنكرها (الحلقة الأولى) ثم يناقش الأسباب التى تمنع من الجهاد كعدم القدرة والاستضعاف وعدم القدرة على النفقة (سماها فاقد النفقة) ورفض استحلال المال الحرام بزعم الجهاد (الحلقة الثالثة) وأضاف شروط وجوب الجهاد ومنها إذن الوالدين وإذن الدائن واعتبر أن المحافظة على نفوس المسلمين من مقاصد الشريعة وربط الجهاد بالقدرة وتحقيق المصلحة (الحلقة الرابعة) ورد على من قال بجهاد المنفرد (الحلقة الحادية عشرة) وكذلك نهى عن أن يشتمل الجهاد على عدوان (نفس الحلقة) واشترط فى الجهاد التكافؤ (الحلقة الحادية عشرة) وهى كلها آراء جيدة فى فقه الجهاد الحقيقى. ويبقى أن يقول بشكل صريح أن ما وقع تحت هذا العنوان «الجهاد» كان عدواناً وليس جهاداً، ويجب عليه فى المستقبل أن ينقض تأسيس فكرة استعمال القوة فى التغيير ويرد على من استخدم ما عرفت بـ «آية السيف» وهو قوله تعالى «فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد» آية ٥ سورة التوبة، على أنها نسخت كل آيات الصفح والعفو كما ورد فى كتيب «الفريضة الغائبة» لمحمد عبد السلام فرج فإذا فعل د. فضل ذلك يكون قد أكمل ما بدأ من تقبيح للأفعال التى وقعت باسم الجهاد.

المرتكز الثالث الذى استندت إليه جماعات العنف فى أعمالها ومنها مجموعات الجهاد هو تفسيرهم لمفهوم «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» وهو ما يعرف فى الفقه الإسلامى بالحسبة، وهو مفهوم إسلامى أصيل فالدين جزء كبير منه إما أمر بمعروف أو نهى عن منكر، فالتوحيد معروف والأمر به هو أمر بالمعروف وكذلك الشرك بالله منكر والنهى عنه نهى عن المنكر، والأخلاق الحميدة معروف والأمر بها أمر بالمعروف وكذلك الأخلاق السيئة منكر والنهى عنها نهى عن المنكر، وكل أفعال الخير معروف وكل أفعال الشر منكر وهكذا، لكن المشكلة كانت فى تفسير المجموعات التى انتهجت العنف فى درجات تغيير المنكر ومن يقوم بها، والحديث العمدة فى هذا الشأن هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلكم أضعف الإيمان».

وقد قسم العلماء التغيير بناء على هذا الحديث إلى ثلاثة مستويات (وبعد التأكد من كونه منكراً، لأنه أحياناً يظن البعض فعلاً على أنه منكر وهو أمر مختلف فى تفسيره أى لا جزم بكونه منكراً كالموسيقى مثلاً): والمستوى الأول التغيير بالقلب أو الإنكار بالقلب وهو فى قدرة كل الناس، والمستوى الثانى فى التغيير أو الإنكار باللسان وهى مسئولية من يقدر عليه من العلماء والمفكرين والمثقفين وجمعيات المجتمع المدنى: فهو فى العصر الحديث اتسع الأمر وخاصة فيما يتعلق بالشأن العام سواء السياسى أو الاقتصادى أو الثقافى... الخ، والمستوى الثالث هو التغيير باليد أو بالقوة وهو أمر يتوقف على كل مسئول فى سلطانه كالأب مع أولاده أو القائد مع جنوده أى له سلطان معروف ومقبول أما فيما يتعلق بسلوك الأفراد بين الناس، فهذا واجب السلطان أو الحكومة ولها أن تنيب عنها من يقوم بهذا الواجب بإذنها وهو المكلف بالحسبة، أما من يتطوع من نفسه ويقوم بتغيير المنكر باليد على غير سلطانه فهو المفتئت على السلطة وهو باب كبير للشرور وقعت فيه تلك الجماعات فى ممارساتها السابقة، إذن المطلوب عند المراجعة مراجعة فكرة تغيير المنكر باليد فى خارج سلطانهم الشخصى وأخذ سلطة الدولة أو الحكومة ممن هو مكلف بشكل طبيعى أو رسمى. وهو أمر قامت به «الجماعة الإسلامية» فى مراجعاتها الأخيرة بشكل جيد. ولكن ماذا قال د. فضل فى هذه المراجعات؟ لم يرد فى كل الحلقات التى نشرت ذكر مباشر لتغيير المنكر باليد إلا فى الحلقة الرابعة بذكرها فى معرض «أن الله لم يوجب الجهاد ولا تغيير المنكر باليد على المسلمين حال ضعفهم بمكة قبل الهجرة» وقرر منع ما أسماها هذه الواجبات الشرعية فى حالة الاستضعاف أو فى حالة وقوع ضرر على المسلمين وهى إشارة غير كافية وغير واضحة، كما وردت إشارة كذلك فى الحلقة الخامسة لذات الموضوع ولكن فى موضوع: النهى عن الخروج على الحكام فى بلاد المسلمين وحينما أراد أن يستدل على أن الخروج على الحكام ليس من باب تغيير المنكر باليد وهو أمر جيد، ولكنه أباح فى نفس الوقت تغيير المنكر باليد بين الرعية فقال نصاً حين تحدث عن قوم أن تغيير المنكر باليد هو إجازة للخروج على الحكام «وهذا خطأ لأنه إذا جاز تغيير المنكر باليد عند القدرة بين الرعية فإنه لا يجوز مع السلطان»، وإن كانت جماعات ومجموعات الجهاد لم تكن تقوم بعمليات تغيير المنكر باليد بين الناس بشكل واسع كما كانت تفعل «الجماعة الإسلامية الجهادية».

كذلك من المرتكزات الهامة فى فكر مجموعات العنف والجهاد فكرة «الحاكمية» (المرتكز الرابع)، وكذلك نموذج الدولة التى يسعون

لتطبيقها(المرتكز الخامس): فكرة الحاكمية أي الاحتكام لله ولحكمه توسعت فيها كل المجموعات التى استعملت هذا المصطلح بدءاً من الأستاذ أبو الأعلى المودودى فى باكستان إلى الأستاذ/ سيد قطب، فجماعات القطبيين ومن سار على دربهم من مجموعات الجهاد المختلفة :فكل هؤلاء اعتبروا أن أى حكم لم يأت من كتاب الله أو تشريع كان مصدره لم يرد فى المصادر الإلهية فهو احتكام لغير الله وللطاغوت، واعتبروه كفراً يوجب مقاتلة من قام به، وخالفوا بذلك أهل العلم الصحيح الذين يرون أن هناك أحكاماً كثيرة لم يأت بها نص لا فى كتاب ولا سنة صحيحة وبالتالى متروك للناس الاجتهاد فيها بما شاءوا بشرط عدم اصطدامها بقاعدة إسلامية صحيحة. وكذلك مازال عند كثير من الجماعات الإسلامية وفى القلب منها مجموعات الجهاد أن هناك شكلا واحداً للدولة الإسلامية القديمة والحديثة هو تنصيب خليفة واحد لكل المسلمين فى العالم فى دولة واحدة تحكم بالشريعة الإسلامية وتطبق الحاكمية وفق مفهومهم الخاص. وهو أمر ليس صحيحاً عند أكثر أهل العلم من العلماء الوسطيين الذين يرون أن شكل الدولة لم يرد به نص محدد فى القرآن الكريم أو السنة الصحيحة، وأن الذى ورد هى القيم التى تحكم هذه الدولة من الشورى والعدل والمساواة... إلخ، وأن كلمة خليفة كانت اجتهاداً من المسلمين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فلقد اختاروا الصديق أبا بكر رضى الله عنه وأسموه خليفة رسول الله (أى من خلفه)، ثم اختاروا الفاروق عمر وتحيروا فى تسميته: هل يسمونه خليفة خليفة رسول الله؟ فوجدوا أن هذا الأمر سيطول كلما مات رئيس وقائد وحاكم للمسلمين فى ذلك الوقت فأسموه «أمير المؤمنين». وبالتالى تطورت الدولة إلى أشكال عدة حديثة منها ما هو ملكى أو جمهورى أو إمارة.. إلخ، فلا يوجد شكل واحد كما يعلن هؤلاء للدولة الإسلامية، والمفكرون العدول أسموا الشكلين القديم والحديث بالدولة الإسلامية فقالوا عن الدولة القديمة الدولة الإسلامية القديمة وعن الموجودة الآن الدولة الإسلامية الحديثة، ونظراً لهذين المفهومين الحاكمية وشكل الدولة عملت جماعات العنف والجهاد على ممارسة العنف لتغيير هذه الدولة لشكل الدولة الإسلامية فى مفهومهم ولتطبيق الحاكمية كما فهموها أيضاً، ولقد قامت أيضاً «الجماعة الإسلامية» فى مراجعاتها بمراجعة هذين المفهومين بشكل معقول وخاصة مفهوم الحاكمية وأصدروا كما سبق ذكره كتاب «الحاكمية» وهو أفضل من عالج فكرة الحاكمية عند تلك الجماعات، فماذا فعل د. فضل فى هذه المراجعات؟

الحقيقة أن د. فضل مازال يتحدث عن الأشكال الفقهية القديمة لتصنيف الدول والبلاد فهو يتكلم فى الحلقة السادسة عن دار الإسلام ودار الحرب، ويتحدث عن عدم القدرة على إلزام الكفار فى بلاد الإسلام بالتمييز فى المظهر ويبرر ذلك بقوله «بسبب العجز أصلاً عن إقامة الحكم الإسلامى» وهو مفهوم مبطن عن الشكل القديم للدولة الإسلامية، كما ورد كذلك فى الحلقة الأخيرة من هذه المراجعات (الحلقة الخامسة عشرة) إشارة إلى أن الخلافة قد تنقطع من الدنيا بعض الأزمنة، واستدل على ذلك بسؤال حذيفة رضى الله عنه للنبى صلى الله عليه وسلم بقوله: «فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام». والحقيقة أن العلماء أجمعوا على وجوب تنصيب الأمير أو الحاكم لدى الجماعة وهى الأمة أو الدولة، أما اسم هذا الأمير أو الحاكم فيكون يسمى خليفة أو أمير المؤمنين أو رئيس أو ملك أو حتى أمير فقط فكلها تحقق المراد من الشريعة بتنظيم شئون الناس وجماعتهم أى دولتهم، وهو أمر يحتاج لمراجعة حقيقية من الدكتور فضل ومن معه، كما أنه لم يرد لفظ «الحاكمية» فى هذه المراجعات من قريب أو بعيد وبالتالى تظل هذه المسألة فى انتظار المراجعة.

يقوم المرتكز السادس الذى استندت إليه جماعات العنف فى تأسيس فكرها على أساس أن غير المسلمين(كالأقباط المسيحيين فى مصر) فى بلاد المسلمين نقضوا عهد الذمة الذى بموجبه فى مفهومهم يدفعون الجزية وعليه فدمهم مباح وكذلك أموالهم ولذلك استحلوا دماءهم وكذلك استحلوا أموالهم. ولقد كانت «الجماعة الإسلامية الجهادية» أكبر المجموعات التى قامت بهذا الاستحلال للدماء فى صراعها مع السلطة وكذلك استحلال الأموال ومثالها سرقة محلات الذهب الخاصة بالمسيحيين فى بعض المناطق، وكذلك مجموعة «الناجون من النار» قاموا بسرقة محلات ذهب مملوكة لمسيحيين. وحينما قامت «الجماعة الإسلامية» بمراجعاتها راجعت فكرة الاستحلال تلك وغيرتها واعتبرتهم أهل ذمة حتى لو لم يدفعوا الجزية سواء بسبب عدم مطالبة الحكام بها أو إسقاطهم عنها فى بعض العصور مثل الخديو إسماعيل، ولكنهم لم يصلوا بعد إلى مفهوم المواطنة الذى استقر عليه الفقه الحديث للعلماء والمفكرين الإسلاميين الوسطيين الذى يسوى بين المواطنين مسلمين ومسيحيين فى الحقوق والواجبات، فماذا قال د. فضل فى مراجعاته تلك بهذا الخصوص؟ لقد كان أول ذكر لهذا الموضوع فى حلقاته التى نُشرت فى الحلقة الثامنة، وجدير بالذكر فإن جماعات العنف مارست عدوانها على الأقباط المسيحيين فى مصر بسببين: السبب الأول يتعلق بالفهم الخاطئ للنصوص وتأويلها فيما يتعلق بأهل الكتاب وأهل الذمة وغيرها، والسبب الثانى: كنوع من الضغط على السلطة وإظهارها فى مظهر الضعيف



ينهى فضل عن الغدر لمن دخل بلاد الأجانب بإذنهم واعتبر أن العمليات التى تتم من هذه المجموعات فى بلاد الأجانب غدر لا يجوز شرعا

عن حماية أبناء الوطن من غير المسلمين أى هدفاً سياسياً، ولذلك فى إشارة د. فضل عن هذا الموضوع فى الحلقة الثامنة أشار تحت عنوان: النهى عن قتل المدنيين فى بلاد المسلمين، وهى إشارة يمكن فهمها على أنه يقصد العدوان على المسيحيين لأنه يقول: «وقد عجز البعض عن الصدام مع هذه السلطات فلجأ إلى إزعاجها بارتكاب ما لا يحل له من قتل عامة الناس (المدنيين) لأنهم أهداف سهلة لا حراسة لهم ولا هم مسلحون»، وبالطبع لم تستهدف هذه الجماعات مدنيين مسلمين لإزعاج السلطات بل كانت تستهدف رموز الدولة وأجهزة الشرطة والمتعاونين معها من المسلمين ومن قُتل من المدنيين المسلمين كان بسبب الخطأ فى الاستهداف، أما استهداف المدنيين لإزعاج السلطات فكان للأقباط المسيحيين وكذلك السياح الأجانب وهو تكلم عن السياحة والاعتداء على السياح بشكل مفصل وواضح فى أماكن عدة من هذه المراجعات وبالطبع رفضها وهو أمر جيد.

والموضع الآخر الذى ورد فيه كلام مباشر عن هذا الموضوع كان فى الحلقة العاشرة وكان بعنوان: فى معاملة أهل الكتاب المقيمين ببلاد المسلمين: فهو مازال يتردد فى اعتبارهم أهل ذمة أم أنهم مواطنون بنص الدستور فهو يقول: «وقال البعض (إن النصارى مازالوا أهل ذمة)، والقول بأنهم أهل ذمة يتعارض تماماً مع مبدأ المواطنة المعمول به فى هذه الدول، وذلك لأن المواطنة تساوى بين المواطنين سكان البلد الواحد فى الحقوق والواجبات، وهذا بخلاف عقد الذمة الذى يلزم أهل الكتاب المقيمين فى دار الإسلام بشروط تميزهم عن المسلمين وتفرق بينهم وبين المسلمين»، وهو قول غير دقيق فيما يتعلق بفهمه لأهل الذمة فى الزمن القديم فهو لم يفرق بين المسلمين وغير المسلمين ولكنه فقط استثناهم من المشاركة فى القتال إذا دفعوا ضريبة صغيرة فرضت على القادر فقط وسميت «الجزية» ومن شارك فى القتال سقطت عنهم «الجزية»، وكان إعفاؤهم من المشاركة فى القتال فى ذلك الوقت لأن معظم الحروب كانت بدوافع دينية إسلامية فلم يفرض عليهم المشاركة فيها إلا من رغب فأسقط عنهم الجزية. وكانت «الجزية» كما قال الدكتور العوا «عقد» وليست «وضع» أى عقد بين طرفين يخضع لشروط العقد وبإرادة الطرفين الموافقين على العقد. فلما تغيرت الأوضاع وسقط هذا العقد اتفق أهل البلاد من مسلمين ومسيحيين على عقد جديد أسموه «الدستور» قائم على المواطنة وليس أهل الذمة، وهو يساوى كما ذكرنا فى الحقوق والواجبات بين المواطنين أياً كانت دياناتهم. وهو عقد شرعى ولا يخالف الإسلام.ومع هذا فقد انتهى د. فضل بهذا الشأن فى نفس الحلقة العاشرة

كتاب الزاوية

ابن العماد الأقفهسى

مصب النيل

قالت الحكماء: إن النيل إذا صب فى بحر الملح انتهى فيه إلى مواضع، ثم يرتفع بخارًا ويجتمع فى الجو، فتحمله الغمام والريح إلى الأماكن التى يريد الله تعالى بالمطر فيها من سائر البلاد. ولهذا تجد الأماكن القريبة من البحر أكثر مطرًا من غيرها، ويشاهد الغمام قريبًا من بحر الملح، عند دمياط وغيرها مما (جاور) البحر.

قالوا: وإذا وقع المطر فى البلاد اتصل بالبحر من عيون وغيرها، حتى ينتهى إلى البحر أيضًا، ثم يصير مطرًا. وهذا قد أشار إليه الزمخشرى فى قوله تعالى: (والسماء ذات الرجع) والمراد بالسماء: الغمام، والرجع: المطر.

قال: سمى رجعًا على عادة العرب فى معتقدهم، أن الغمام يحمل ماء المطر من البحر، ثم يرجع إليها، فهو رجع إلى الأرض بعدما أخذ منها مرة بعد مرة.

وذكر الواحدى: أنها إنما سميت رجعًا لأنها ترجع إلى الأرض مرة بعد أخرى. وما ذكره الحكماء وجهوه بأن (كل ما) على الأرض من خشب، وحجر، ونحاس، ورصاص، وحيوان، يصير ترابًا ثم يعود خلقًا جديدًا، وهكذا إلى يوم (القيامة) قالوا: والفلك دوار.

وذكر المفسرون فى قوله سبحانه وتعالى: (وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه): أن الله تعالى يرسل الرياح فتلقح السحاب بالماء كما تلقح البقرة باللبن.

إلى «وجوب معاملتهم (أهل الكتاب المقيمين ببلاد المسلمين) بالحسنى وعدم التعرض لهم بأذى ونصح جميع المسلمين بذلك لأسباب عددها، ونصح كذلك نصارى مصر بمعاملة المسلمين بالحسنى وأكد على أن نصارى مصر لهم وضع خاص فقد أوصى بهم الرسول صلى الله عليه وسلم وانتهى كذلك فى نفس الحلقة إلى عدم وجوب قتل كل اليهود والنصارى بالجملة الذين يسميهم البعض بالصليبيين وانتهى إلى أن القتال الصحيح هو على من اعتدى منهم فيما سمى «جهاد الدفع».

كذلك من المرتكزات التى أسست للعنف فى تلك الجماعات استخدام فتاوى قديمة فى ظروف مختلفة وإسقاطها على واقع حدث وظروف مختلفة أيضا، مثل فتوى الإمام ابن تيمية فى قتال التتار، فيما عرف فى كتابات محمد عبد السلام فرج فى «الفريضة الغائبة» وكذلك «الجماعة الإسلامية» بحث «وجوب قتال الطائفة الممتنعة عن تطبيق شريعة من شرائع المسلمين».

فالدكتور فضل أفرد حلقة كاملة عن هذا الموضوع (الحلقة الثانية) فهو يشرح فيها أهمية العلم بالشرع وكذلك أنه لا يجوز لغير المؤهلين شرعيا من أفراد الجماعات الجهادية تنزيل ما فى بطون كتب السلف من أحكام مطلقة على واقعنا الحاضر، وكذلك لا يجوز الفتوى إلا للمؤهل لذلك، ويؤكد على أن الفتوى تتغير بتغير الأزمان والأحوال، ولا يجوز نقل الأحكام وفتاوى من غير المؤهلين عن طريق شبكة المعلومات الدولية (internet) لأنها جلبت صداماً فى غير موضعه وأطلقت أحكاماً على الأنفس والأموال غير صحيحة، وهى مراجعة معقولة فى هذا الجانب وإن لم تكن مفصلة تفصيلاً كبيراً كما ورد فى كتاب صدر عن «الجماعة الإسلامية» مؤخراً بعنوان «فتوى الإمام ابن تيمية عن التتار دراسة وتحليل» ولعل ذلك يحدث فى استكمال هذه المراجعات فى المستقبل بإذن الله.

بقى أن نقول أن مجموعات الجهاد التى انتشرت وتأثرت بأفكار مثل أفكار د. سيد إمام (د. فضل) كانت منتشرة فى بلاد عربية وإسلامية عديدة وفى بلاد غربية كذلك، ولهذا مارست ما عُرف «بالإرهاب الدولى» أو ما أسموه هم «الجهاد الدولى»، ولذلك أفرد د. فضل مساحة كبيرة فى مراجعاته لهذا النوع من «الجهاد» وفند كل مزاعمه وهو أمر محمود (فهى الحلقة السابعة كلها يتحدث فيها عن هذا الموضوع وجزء من الحلقة الثامنة) وفيها ينهى فضل عن الغدر لمن دخل بلاد الأجانب بإذنهم واعتبر أن العمليات التى تتم من هذه المجموعات فى بلاد الأجانب غدر لا يجوز شرعاً، وأقر بخطأ الجرائم التى ارتكبها بعض المسلمين فى بلاد المهجر من تفجيرات وقتل وإتلاف الممتلكات العامة والخاصة والاحتيال للاستيلاء على الأموال والاحتيال على شركات التأمين والهروب من المساكن قبل دفع الإيجار وتسديد فواتير التليفونات وغيره بحجة أنهم كفار وقال: «نعلم أن هذا كله حرام لا يجوز شرعا وهو غدر والغدر نفاق ومن الكبائر».

ونهى كذلك عن قتل المدنيين فى تلك البلاد وإن كان مازال يسميها «بلاد الكفار» وهى تسمية تحتاج لمراجعة أيضاً.

ويؤكد على نفس المعنى فى الحلقة الثامنة بقوله «إنه ليس من المروءة أن تنزل بقوم ولو كانوا كافرين غير معاهدين يأذنون لك فى دخول دارهم والإقامة بها ويؤمنونك على نفسك ومالك ويمنحونك فرصة العمل أو التعليم لديهم أو يمنحونك حق اللجوء السياسى مع الحياة الكريمة لديهم ونحو ذلك من أعمال المعروف ثم تغدر بهم تقتيلاً وتخريباً».

كما أفرد كما سبق أن أشرنا إلى حرمة قتل السياح الأجانب فى بلادنا بتأويل من التأويلات وهو أمر محمود أيضاً فى هذه المراجعات.

ملاحظة ختامية:

أود التأكيد على ما أشرنا إليه من أن هذه المراجعات خطوة إيجابية وشجاعة، ولكنها بدائية تحتاج لاستكمال وتطوير وإنضاج كما فعلت «الجماعة الإسلامية» فى مراجعاتها فى مراحلها الأخيرة، ولست من المشككين فى هذه المراجعات، ولكن مع الترحيب بها وتشجيع الاستمرار فيها مع نقد ما فيها من قصور ونقص حتى تستكمل لوجه الله ولصالح الوطن والبشرية كلها.

والله من وراء القصد ■


رحلات أكثر .. بمواعيد أنسب
فى جدول الشتاء .. إلى مدن الشرق الأقصى
حالياً ٢٦ رحلة اسبوعيا بدلاً من ١٩ رحلة
بانجكوك يوميــاً
بكين الأحد / الثلاثاء / الخميس / الجمعة
اوزاكا السبت / الأثنين / الخميس
طوكيو الأحد / الثلاثاء / الجمعة
جوانزو السبت / الأثنين / الأربعاء
كوالالمبور السبت / الأثنين / الأربعاء
بومباى السبت / الأثنين / الأربعاء
للحجز والأستعلام رجاء الأتصال بمركز الخدمة التليفونية
من اى محمول ١٧١٧ / ٠٩٠٠٧٠٠٠٠٠ من اى خط ارضى
نسعد بضيافتكم بأحدث طائرات مصر للطيران
مصر للطيران
EGYPTAIR
www.egyptair.com
اول شركة طيران فى الشرق الأوسط و أفريقيا و سابع شركة عالمياً
75
1932 - 2007

«كتب 2007»

يعرف المهتمون بالفكر والثقافة، كما يعرف الناشرون، أن الكتب الأكثر مبيعا ليست بالضرورة الأكثر أهمية أو تأثيرا: فكتاب بوب وودوارد State of Denial أو كتاب «ميرشيمر» الذي أقام الدنيا ولم يقعدها The Israel Lobby & US Foreign Policy لم يحتل أيهما أبدا مكانه الملائم على قائمة الكتب الأكثر مبيعا في الولايات المتحدة على رغم التأثير الذي أحدثه كل منهما. وإن كان هذا صحيحا «إلى حد ما» في دول استقرت فيها «ثقافة القراءة»، فإنه يبقى صحيحا «بالمطلق» في مجتمعات تحكمها للأسف «ثقافة الأرصفة» وشاشات التلفاز. ويتحدث البعض عن انتشار «مفهوم» لكتب التنجيم والتراث والمداواة بالأعشاب. كما يشيرون إلى المكانة التي احتلتها قنوات الفيديو كليب «العارية» والقنوات «الدينية» على حساب قنوات مثل «الجزيرة» أو «العربية».

عندما قررت «وجهات نظر» - كعادتها السنوية - أن تخصص هذه الصفحات «لأهم» الكتب التي صدرت في العام المنقضي ٢٠٠٧ وأكثرها تأثيرا لم نشأ أن نترك الأمر رهن اختيارات لنا قد لاتحيط - واقعيا - بكل ما صدر من عناوين هنا أو هناك. كما لم نطمئن إلى فكرة أن نوكل الأمر إلى من قد يلحق خياراتهم حيف مجاملة اعتدناها في وسطنا الثقافي العربي، أو على الأقل «يتهم» بتلك المجاملة.

■ وهو اتهام أيضا صار من «توابع» أي جائزة عربية أو أي اختيار.

كيف تختار الصحف العريقة «الرصينة» قوائمها؟

في هذا العدد اخترنا قائمتين أحدهما للأمريكية «نيويورك تايمز» والتي أفردت ملفا كاملا لعشرة نقاد محترمين كتب فيه كل منهم عن الكتاب الذي يرى أنه الأفضل أو الذي كان الأكثر تأثيرا في عام ٢٠٠٧. والقائمة الأخرى لمجلة «لير» الفرنسية، والتي اعتمدت أسلوبا مختلفا حين شكلت لجنة من ٢٧ كاتبا ليختاروا الكتاب «الأول» في كل مجال من المجالات العشرين التي حددوها لاختياراتهم. كما نشرت المجلة أيضا أسماء الكتب التي كان لها شرف المنافسة على المراكز الأولى.

الطريف أن رئيس تحرير لير «فرانسوا بوسنيل» حكى في تقديمه للملف أجواء الحماسة التى رافقت عملية الاختيار والتي شهدت كثيرا من الخلاف وكثيرا من الضحك. قبل الاتفاق «أخيرا» على قائمة.

هل يستدعي الأمر كل هذا العناء؟!

لا أحد يعلم. ففي نهاية المطاف ومهما كان أمر القوائم، ومهما كانت القيمة الفكرية للذين سهروا على اختيارها سيبقى لكل قارئ ذوقه الخاص.. وستبقى حقيقة أنه في كل اختيار «وجهات نظر»

كل عام أنتم بخير...

المحـــرر

الترجمات:
من الإنجليزية: بثينة الناصري وهالة صلاح الدين حسين
من الفرنسية: داليا سعودى

The New York Times

وجها لوجه مع قضاة المحكمة العليا

ديفيـــــد مارجـوليك



THE NINE
Inside the Secret World of the Supreme Court
(التسعة: داخل العالم السري للمحكمة العليا)

Jeffrey Toobin
Illustrated. 369 pp. Doubleday
$27.95

** احتمال توديع رئيس القضاة وليام رينكويست في المحكمة الأمريكية العليا، في سبتمبر ٢٠٠٥، يقدم لنا نوع اللقطة التاريخية التي يعشقها المؤلفون. كان القضاة يصطفون بترتيب مناسب في ذلك اليوم على السلم المرمري الذي يفضي إلى المبنى. وكما حمل بعض الموظفين القانونيين السابقين (ومن بينهم خليفته المنتظر جون روبرتس)، تابوت الفقيد مارين بزملائه القدامى. يتقفى جيفري توبن في كتابه أثر الجنازة، متوقفا عند كل قاض، يقدمهم لنا واحدا إثر آخر.

ولكن سرد توبن يقدم لنا شيئا آخر كثر إمتاعا وهو فرصة تخمين من من هؤلاء القضاء باح له بما أورده في كتابه ومن لم يفعل.

هناك طبعا خرافة أن القضاة يجلسون على ذرى الأولمب صامتين صمت الأبي. ولكن واقع الحال أن بعضهم يتكلم حين يناسبه ذلك. يتكلمون بانتقائية شديدة حسب شهرة وانتشار الصحفي أو صحيفته. وعادة يمكن للمتابع أن يخمن من الذي يثرثر. دعونا اذن، مع أخذ هذا بنظر الاعتبار - نرافق توبن صعودا على ذلك السلم المرمري.

أولا: هناك ستيفن بريير المتعسف بما يسميه توبن «طبيعته العشريه السمحاء» وأكثر الاحتمال أنه تكلم كثيرا. ثم هناك روث بادر غينسبرغ، يصفها توبن بأنها «هشة، وخجولة» ولها تأثير هامشي على زملائها. احتمال. ولكن مثلها لن يتحدث إلا بالنزر القليل. كلارينس توماس، كما يقول لنا الكتاب، ازداد شيخوخة وسمنة منذ معركة تنصيبه الدموية الشهيرة - مستحيل. ديفد سوتر يكرد واشنطن. ولايهمه ما يظنه الآخرون فيه. ربما لم يفعل. ولكنه - بسبب نزقه. قد يكون طوح بكلمة هنا وكلمة هنالك. وهنالك انطونى كندى. وهو أكثر تجربة وتأثيرا من الشخص التقليدي بل الممل. الذي كنا نحسبه في أول ظهوره، هو على أكثر احتمال.

في ذلك اليوم، كان أنطونين سكاليا يبدو «تائها ووحيدا»: ليس هو على الإطلاق. وهناك ساندرا داي أوكونر التي ستعهد بمقعدها للرئيس جورج بوش الذي كانت تعتبره «متكبرا، مارقا، عاجزا، ومتطرفا». وطبعات أصابعها - أو بالأحرى طبعات صوتها - تكاد تتقافز من صفحات الكتاب. ولولاها لما كان يمكن لتوبن أن يكتب شيئا بهذا الاضطرام والتفاصيل السرية. وأخيرا هناك جون بول ستيفنز «المحترم من زملائه وإن كان مجهولا لديهم». احتمال ضعيف جدا.

لدى قراءة كتاب توبن البارع والممتع، تتأكد مؤشرات الحدس هذه. فعبر صفحات الكتاب تتناثر الاقتباسات والوقائع والحقائق والرؤى والحوارات الداخلية التي لا يمكن أن تأتي إلا من قضاة محددين - والأكثر احتمالا: أوكونر وبراير وكندي - الذين يهيل المؤلف كلمات الإطراء على كل منهم.

المحكمة العليا تغطي أخبارها مثل أي مؤسسة حكومية مثل البيت الأبيض أو وزارة الخارجية، عبر مؤتمرات صحفية أو تصريحات مطبوعة بدون الإشارة إلى المجريات الداخلية. فالصحفيون المنتدبون إلى المحكمة نادرا ما يجازفون بالتطرق إلى ما وراء القرارات المنطوقة، والتصريحات الصحفية. وتفسير أكواد من هذه الآراء في وقت واحد ومحدد، أمر صعب جدا (صعوبة مقصودة غالبا). ومن يجيد إنجاز ذلك هم فئة نادرة وعادة لايملكون وقتا يضيعونه.

ولكن هذا ليس السبب الوحيد للالتزام بما توزعه أو تعلنه المحكمة من أخبارها. إذ إن نقد القضاة، وتقييم نوعية أوصوات أو نزاهة أعمالهم، مسألة خطرة. فأنت تخاطر بفقدان أية فرصة ضئيلة تملكها لانتزاع نتفة حديث من أحدهم، أو فتافيت كلمات يرميها إليك بين حين وآخر. أما تفاصيل الدراما والعاطفة والتفاهات التي يعج بها المكان - بكلمات أخرى: الطريقة التي تعمل بها المحكمة، فذلك لايخرج إلى العلن إلا بعد سنوات من الواقعة، وفي حالة واحدة هي حين ترفع عنها السرية لاطلاع الجمهور عليها.

وفي حين يتغير رؤساء مكاتب صحفنا في بغداد ومراسلو البيت الأبيض كل بضع سنوات لسبب هو أنه مع مرور الوقت يتخندق هؤلاء المراسلون أو يتمنقون أو يحـترقون. ولكن لأن تغطية المحكمة مسألة عسيرة، أو لأن الجميع يحبون إبقاء الأشياء دون تغيير، لهذا فالمراسلون هنالك يتمتعون بحالة أشبه بالإقطاعية. بعضهم - بسبب عملهم هناك منذ عشرات السنين - يصبحون جزءا لا يتجزأ من المحكمة: متطبعين بطباعها وممثلين لقراراتها - بل يصبح بعضهم أشباه قضاة يناقشون قرارات المحكمة بأنفسهم دون أن يتجشموا عناء رفع سماعة الهاتف.

وهذا التجمع الاحتكاري مغلق تقريبا على أصحابه وآخذ في الانكماش.

ولهذا، يأتي، كل بضع سنوات أو ما شابه، شخص من خارج الدائرة، مقدام وذكي مثل توبن ليلقي ضوءا نحتاجه على المحكمة - إنه لا يجلس في كشك الصحفيين في المحكمة، ويتميز عنهم بأنه يمالك استقلالية ورؤية. وهو لا يرهب المكان، ولا يميل إلى تغطيته بنبرات هامسة أو الاستطراد إلى ما لا نهاية في وصف الستائر المخملية الحمراء أو الأرواب السوداء.

ولهذا لا ندهش أن كتاب «التسعة» يتميز بالجاذبية وسعة الاطلاع والصدق ويسر القراءة، وغالبا لايستطيع القارئ تركه جانبا. توبن راوي قصة بالفطرة، والقصص التي يسردها تأسر الألباب.

من الواضح أن أوكونور كانت أفضل مصادر توبن وأيضا - يمكن للقارئ أن يقرر إذا كان هذا صدفة. كانت بطلته: استطاعت القاضية بشكل متفرد - كما يقول - من خلال اجتهاداتها البراغماتية أن تبقي على المحكمة أقرب إلى التيار العام الأمريكي خاصة في قضايا مثل الحرية المنتجة وإتاحة الفرص المتساوية للجميع. ولكن كان لها أخطاؤها.

بصفتها جمهورية متحمسة. فقد كانت اتخذت قرارها مبكرا في دعوى إيقاف إعادة حساب أصوات فلوريدا (عند انتخاب بوش للمرة الأولى)، وفي قرار خمسة إلى أربعة الذي تبع ذلك كان صوتها حاسما.

ووسط عاصفة النقد، من الواضح أن أوكونور - في محاولة لتبرير موقفها - سمحت بالكثير من الأحاديث الجانبية مع الصحفيين. توبن لا يذكر هذا، ولا يذكر القضية الأعم لعلاقات القضاة الخفية مع الصحافة.

الكتاب يحوي مقالات مكتوبة بأسلوب جميل عن كل قاض من هؤلاء القضاة التسعة، محبوكة بسرد فني، والكتاب حافل بالجمل البليغة والنـدرات البلورية والمقتطفات البديعة. ولكن هنالك فراغات مهمة. توبن يصف العلاقات بين القضاة على أنها «ودية» ولكنه، لسوء الحظ لا يتوسع في هذا كثيرا.

يكرس الكاتب الكثير من المساحة لمواضيع بالية أكل الدهر عليها وشرب. إن تصفح (التسعة) يشبه قليلا قراءة إحدى مقالات روجر أنجل في سلسلة ظهرت حديثا بعنوان «العالم». الكتابة بديعة ولكن اللعبة انتهت منذ فترة.

وباعتبار السرية التي تغلف المكان، فإن خيار توبن الوحيد الحقيقي كان أن يقتفي أثر الصحفيين بوب وودوارد وسكوت أرمستورنج في كتاب «الإخوة» الذي صدر قبل جيل: أن يلجأ إلى الموظفين القانونيين السابقين.

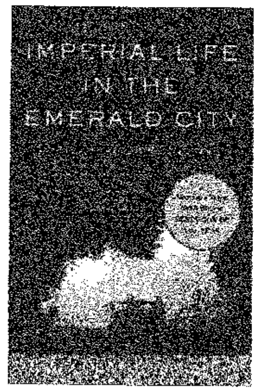
ولكنه لم يتحدث إلى الكثير منهم، ولو كان توبن قد فعل ذلك، لقدم لنا كتابا أفضل. ومع هذا فيما يتعلق الأمر بتغطية المحكمة الأمريكية العليا كمؤسسة إنسانية حية تتنفس بدلا من تقديمها كمجموعة من الأيقونات، فإن كتاب (التسعة) هو قطعة فنية، ولكننا في بحاجة إلى رينيسانس.

* رينيسانس - أبقيت على الكلمة بدلا من ترجمتها (النهضة) لأن الكاتب يتلاعب على الكلمة للإشارة إلى (عهد النهضة) في تاريخ الفن والأدب والسياسة - المترجمة. **

* ديفيد مارجوليك رئيس تحرير مشارك في مجلة فانتي فير ومؤلف كتاب «ما بعد المجد: جو لويس ضد ماكس شميلنج وعالم على الحافة». وفي وقت من الأوقات كان يغطي شئونا قانونية لصحيفة التايمز.

كيف انهار العراق؟!

مايكل جولدفارب



IMPERIAL LIFE IN THE EMERALD CITY
Inside Iraq's Green Zone
(الحياة الامبراطورية في مدينة الزمرد داخل المنطقة الخضراء في بغداد)
Rajiv Chandrasekaran
Alfred A. Knopf 320pp , $25.95

* بغض النظر عن نهاية الحرب، العراق ليس فيتنام. يصح هذا عسكريا وسياسيا وينطبق كذلك على التغطية الصحفية للحربين. بالنسبة لكثير من الصحفيين الذين غطوا فيتنام ومن بعد ذلك، نشروا كتبا عن الحرب، لم يكن من الممكن استيعاب تلك التجربة إلا باعتبارها كابوسا من الهلاوس، وكانوا يصفونه بأسلوب غرائبي يناسبه. واقع حرب العراق اكثر رعبا من مجرد مغامرة فاشلة، ولكن اسلوب وصف هذا الفشل المستمر كان اكثر صفاء وجدية. وكتاب راجيف تشاندراسكاران «الحياة الامبراطورية في مدينة الزمرد: داخل المنطقة الخضراء في بغداد» مثال جيد على ذلك.

يسرد هذا الكتاب قصة إدارة السنة الأولى للحرب، بعد عام من الغزو، حين أصبحت الولايات المتحدة - حسب القانون الدولي - القوة المحتلة والمسئولة عن إدارة البلاد. وكانت الآلية الرئيسية لتلك المهمة هي سلطة الائتلاف المؤقتة ومقرها المنطقة الخضراء: مجمع مسوّر بجدران ضد الانفجار يقع في نطاق القصر الرئاسي العراقي على الضفة الغربية لنهر دجلة وكان تشاندراسكاران آنذاك مدير مكتب واشنطن بوست في بغداد، وفي كتابه، يصف مزيجا قاتلا من العنجهية وانعدام الكفاءة المهنية خلف تلك الجدران التي ساهمت - مثل نقص العدد الكافي من القوات - في كتابة مصير العراق الدموي.

بدءا كانت سياسة التوظيف لدى سلطة الائتلاف المؤقتة مخجلة، كان الولاء لجورج بوش والحزب الجمهوري هو المعيار الأساسي للعمل في سلطة الائتلاف المؤقتة. ومن اجل تقرير تأهلهم للوظيفة في العراق كان الاختبار عبارة عن اسئلة للبعض حول آرائهم في قضايا تافهة. وآخرون سئلوا لمن صوتوا في انتخابات ٢٠٠٠. وكان منسق البيت الأبيض لدى البنتاجون جيمس أوبيرن قد طلب من اعضاء كونجرس جمهوريين ومن مفكرين محافظين ومن ناشطي الحزب ترشيح موظفين للعراق.

قبل أن تبدأ الحرب، كان فردريك ام بركل جونيور قد اسند إليه مهمة الإشراف على نظام الرعاية الصحية في العراق. وكانت سيرته الذاتية حافلة: طبيب بشهادة ماجستير في الصحة العامة، وشهادات بكالوريوس من جامعات هارفارد وييل وداروتموث وبيركلي. وكان يحمل نجمتي برونز للخدمة العسكرية في البحرية إضافة إلى تجربة ميدانية مع أكراد شمال العراق بعد حرب الخليج في ١٩٩١. بعد اسبوع من (التحرير) قيل له إنه سوف يستبدل وكما كتب تشاندراسكاران، فقد أخبره موظف كبير في وكالة التنمية الأمريكية الدولية USAID أن البيت الأبيض يريد «أحد الموالين» في هذه الوظيفة.

الموالي كان جيمس كي هافمان جونيور الذي رشحه حاكم ميشيغان السابق جون انجلر. وتضمنت سيرته الذاتية إدارة هيئة تبني أطفال مسيحية وكانت تقدم الاستشارات للفتيات ضد الإجهاض. وقد قضى معظم وقته في العراق يهيئ لخصخصة شركة الأدوية الحكومية - مع أن ذلك لم يكن أولوية قصوى طالما أن كل مستشفى تقريبا في البلاد قد نهب تماما بعد الغزو.

في صفحة بعد أخرى، يسرد تشاندراسكاران بالتفاصيل، مشاريع سلطة الائتلاف الأخرى التي يقوم بها شباب الجمهوريين - مثل تحديث بورصة بغداد، أو الخصخصة السريعة لكل خدمة كانت تقدمها الدولة للشعب. وبعض تلك الأفكار كان يمكن الإعجاب بها، لو كانت قد خططت لدولة فيها كهرباء وماء، دولة لا تتأرجح على حافة الفوضى.

ولكن كيف يمكن لهؤلاء الشباب أن يعرفوا كيف هو شكل حياة العراقيين العاديين طالما أنهم لا يغادرون المنطقة الخضراء أبدا ؟ بدلا من ذلك فقد حولوا المكان إلى ما يشبه نزلا جامعيا، بعد يوم شاق من الحلم بمشاريع مستحيلة. كان الصبية يفعلون ما يفعله الصبية - يتجهون إلى البار باحثين عن الرفقة. ولم يكن للعراقيين وجود في أذهانهم.

ويرأس قمة هذا العالم غير الواقعي، المندوب الأمريكي بول بريمر الثالث الذي يشار إليه في هذا الكتاب على أنه رجل يعرف ما يريد ولا يسمح بتغيير قراراته لتلائم الواقع التعيس الذي يعيشه العراقيون خارج مصد الحواجز. وكان يمكن اعتبار هذا فصلا هزليا على طريقة جوزف هيلر، لولا مأساة موت عشرات الألوف من العراقيين وآلاف من الجنود الأمريكيين، بسبب قرارات سلطة الائتلاف المؤقتة والبنتاجون والبيت الأبيض.

في كتاب تشاندراسكاران، تبلورت كل هذه العنجهية والعناد والرغبة في الترقية في عمله في نهاية مارس ٢٠٠٤، حين قرر بريمر أن يغلق الصحيفة التي كان يصدرها رجل الدين الشيعي المتشدد مقتدى الصدر. ففي نهج صار نمطيا، اتخذ بريمر القرار بدون التفكير بما قد ينتج عنه. لم تكن لديه خطة دعم عسكري في حالة أن قرر الصدر القتال، وفعلا قاتل جيش المهدي دفاعا عن النفس. وفي اثناء ذلك، وقع اربعة مرتزقة أمنيين امريكيين في كمين وقتلوا في الفلوجة، وعلقت جثثهم المشوهة على جسر على نهر الفرات. فجأة بعد سنة من الاحتلال، كانت الولايات المتحدة تحارب المتمردين الشيعة في جبهة والمتمردين السنة في جبهة أخرى. كانت هذه أول إشارة للجيش الأمريكي في كتاب تشاندراسكاران الذي يتناول التاريخ المدني للاحتلال في العراق، وكان وصفه للمناوشات بين فصيل من فرقة الفرسان الأولى في الجيش الأمريكي ومقاتلي جيش المهدي، شديد البراعة. إنها شهادة عيان تاريخية من الطراز الأول.

إذا كان هناك شيء ناقص في الكتاب فهو المؤلف نفسه، فآراء تشاندراسكاران غائبة حتى نهاية الكتاب تقريبا.

إنه يلتزم بالمضمون المهني للصحافة: ينقل الوقائع بحيادية وموضوعية موسوسة. ولكن علينا نحن الصحفيين - وباعتبارنا مواطنين أيضا - من الذين اتيح لهم رصد أحداث تؤرخ لفترة تاريخية، واجب الشهادة المتفاعلة والدقيقة والنابعة من القلب، وليس مهمة جمع الحقائق فحسب.

الكتاب مكتوب بأسلوب واضح وغير دعائي لحسن الحظ. وينبغي ان يقرأه كل من يريد أن يفهم كيف انحدرت الأمور إلى هذا المستوى في العراق. ※

● مايكل جولدفارب مؤلف كتاب «حرب أحمد، سلام أحمد: النجاة من صدام حسين والموت في العراق الجديد».

البيت مكاننا

اليزابيث جلبرت



Hard Times and High Spirits on an Iowa Farm During the Great Depression

(الوثنيون الصغار .. أوقات عصيبة وأرواح طليقة في مزرعة أيوا خلال زمن الكساد العظيم)

Mildred Armstrong Kalish
Bantam Books. 292 pp. $22.00

■ حين كانت ملدريد أرمسترونج كاليش في حوالى الخامسة من عمرها، اختفى أبوها من حياتها إلى الأبد. بتعبير آخر أكثر فجاجة، طرد أبوها، أجبر على مغادرة المدينة من قبل جد ملدريد المتشدد، وكان مزارعا، بسبب بعض التجاوزات التي أخفيت عنا نحن الأطفال، مع أننا سمعنا همس تلميحات لافلاس وعمليات نصب وحكم بالسجن سابقا.. ولا يثير الدهشة أن اسم والدها لم يذكر ثانية في المنزل: اذا اخذنا بنظر الاعتبار الزمان والمكان. لم يكن أهل ولاية أيوا الريفيون الذين يتمتعون بالمذهب الإصلاحي المتزمت (meth odism) خلال فترة الكساد العظيم، لبنى العريكة، في ذلك الوقت حين يفعل البعض شيئا لا يغتفر، يفقدون الغفران إلى الأبد. ولكن ما يثير الدهشة هو أن والد ملدريد المشين - بعد ذكره السريع في الفصل الأول من مذكراتها الجميلة «الوثنيون الصغار» - لم يذكر مرة أخرى حتى نهاية الكتاب.

ويجب أن أقول إن هذا يخالف كل التقاليد الأدبية الراهنة. فليس ثمة كاتب مذكرات حديث يحترم نفسه (بضمنهم أنا) يمكن أن يغفل مثل هذه اللحظة المثيرة عن معاناة أب مطرود. فمن مثل هذه المحنة، يستطيع الواحد منا أن يحلب مجلدات من الألم (وصفحات الكتب)! ولكن كاليش - التي تنشر في ٢٠٠٧ - مازالت تعيش قيم ١٩٣٥، حين كان الناس يتكيفون مع الأحزان بشكل مختلف. بعد أن اختفى والدها، انتقلت مع أمها وأخواتها - عاطفيا وحرفيا - للعيش مع جديها المتشددين (شخصان جامدان لم يصلهما القرن العشرون تماما)، ومن هنا كانت البداية الحقيقية لقصة ملدريد الشابة - في مزرعة حيث أصبحت عائلة من خمسة أفراد مسئولية عجوزين. شرعا فورا بعملية تشكيل شخصية الصغار.

ما يتبع بعد ذلك ليس مفاجئا. ولكنك لن تستطيع تخمينه أبدا فقد انخرط هؤلاء الصغار في العمل الشاق، كانوا يزرعون البطاطس ويرعون الماشية ويحصدون الحقول وكانوا يضربون على أقل هفوة في سلوكهم، عاشوا بدون رفاهيات (كهرباء، راحة، تدفئة) وبدون بادرة حنان (وتتذكر كاليش أن الطفولة كانت تعتبر نوعا من المرض، أو بأفضل حالاتها، إعاقة، يجب تجاهلها معظم الوقت وينبغي علاجها بأسرع وقت ممكن).

يفهم هذا جيدا كل من لديه خلفية فلاحية على الطريقة القديمة، علمونا أنه اذا اشترينا شيئا فيجب أن يعيش إلى الأبد، أو أقرب إلى الأبد على قدر استطاعتنا. أو حين كان يخدش أي طفل منا أو يجرح لم نكن نهرع إلى البيت ليعتني بنا الأهل.

إذا كانت هذه هي كل معاناة الوثنيين الصغار، فهي لا شيء يذكر قياسا لما تقاسيه الكثير من العائلات في الأوقات العصيبة. ولكن ثراء المذكرات كان في شيء آخر، فهي حافلة بالتوهج والحيوية وشيء مدهش فاجأني إلى درجة أن ندت عني شهقة سرور مسموعة: ملدريد أرمسترونج كاليش عشقت طفولتها البائسة!!

صحيح أنها تحترم القيم التي خلقها الكساد العظيم في نفوس الناس، وصحيح أنها تشعر وهي في هذه السن المتقدمة أن عليها أن تحفظ ذكريات زمن ولى. ولكن المسألة أبعد من ذلك، فهي تكتب بشكل ساحر معبرة عن حبها الشديد لذكريات الطفولة تلك، مغرقة القارئ في مشاعر غير متوقعة من الفرح، والولع، والدهشة، وحتى الحسد.

ولكن كيف تأتى للصبية ملدريد - وهي الخالية من الجمال والمتألقة، وفاقدة الأب، والتي قام على تنشئتها بشظف، في مزرعة بولاية أيوا خلال فترة الكساد العظيم، أم كئيبة وجدان مثل العسكر في شدتهما، وكانا يطلقان على أطفال ابنتهما الذين تسبب لهم والدهم بالعار، أوصافا محتقرة. كيف تأتى أن يكون لها كل هذا الشغف والاعتزاز بحياتها السابقة؟ أعتقد أن السبب يكمن في تلك السماوات المفتوحة، فقد عاشت فترة طويلة من طفولتها في الحقول تحت السماء الزرقاء العالية، في ولاية أيوا، وكل ذلك الأوكسجين الأزرق وكل تلك السقوف المعقودة المحلقة في السماء، كان ذلك مثل خمرة مسكرة. وكذلك تلك الجولات عارية القدمين على العشب الأخضر الكثيف المدهش الذي يغطي غابات أيوا. كانت تنتشي وهي تتذكر مشهد ورائحة باقة الزهر الوردية العملاقة، شجرة التفاح البري التي تزهر كل ربيع. وتؤكد كاليش بأن استنشاق العطر العذب الذي يشع بدفء الشمس وندى الحشائش من الأجساد النظيفة للمهر والعجل والحمل والكلب الصغير والقطيطة، هي إحدى أعظم مسرات الوثني في الحياة. فيما بعد من حياتها أصبحت كاليش أستاذة. وفي حين أن أساس كتاباتها مازال إنجليزيا (مرتبا ومتماسكا) يليق بمدرسة لغة إنجليزية، ولكن إيقاعاتها الوثنية تنز من خلال كل فقرة منضبطة. كتبت تقول «كان هذا عالمنا» ولكن إحساسا يتخلق لدى المرء بأن جاريسون في ولاية أيوا كان عالمها الحقيقي الذي خبرته برهبة الصوفي. في الغسق الأرجواني لحقول ذرة، في الصباحات الباردة وهي في طريقها إلى مهماتها الشاقة. في مشوارها الطويل المنفلت إلى المدرسة. في ابتذال التهام الشحم المتقطر من اللحم المقدد المقلي. والقشطة الدسمة وثمرات الكرز، كانت حياة كاليش البسيطة تثير غرائزها باستمرار إلى حد الانتشاء، ولكنها كانت أيضا تثير حواسها بطرق أخرى. ومن المشاهد المكررة المبهجة مشهد استحمامها مع شقيقتها - الملطخة بالطين من يوم شاق في المزرعة - تدعكهما أمهما على الشرفة (بالتصبين من الرأس حتى أصابع القدم)، وبعدها تهرول الصبيتان عاريتين مثل طير أبي زريق عبر الحديقة الأمامية المغطاة بالحشائش إلى بيت الطاحونة. وبعد أن نصل إلى هناك، كنا نملأ الدلاء بماء بارد منعش نسحبه من المضخة، وتغمر إحدانا جسد الأخرى حتى نشعر بوخز الاهتياج.

وكاليش تعرف بحكمتها أن اللغة هي صلتنا الأخيرة بالماضي، وبدلا من النواح على ما فقدته، تظل مربوطة بعالمها القديم باستخدام لغته الجذلى، وإن بطلت. ■

● أحدث كتاب لاليزابيث جلبرت هو مذكراتها «كل وصل واعشق» eat, pray, love.

قائمة بأفضل الكتب مبيعا على موقع AMAZON.COM

1. Harry Potter and the Deathly Hallows
(هاري بوتر والتقديس المميت)
Rowling .K.J
Arthur A. Levine Books, 2007, 784 pp., $19.24

※

2. A Thousand Splendid Suns
(ألف شمس ساطعة)
Khaled Hosseini
Riverhead. 2007, 384 pp., $14.27

※

3. The Dangerous Book for Boys
(الكتاب الخطير للفتيان)
Conn Iggulden
Collins, 2007, 288 pp., $14.97

※

4. Deceptively Delicious: Simple Secrets to Get Your Kids Eating Good Food
(لجعل طفلك يتناول طعاما صحيا)
Jessica SeinfeldCollins, 2007, 208 pp., $14.97

※

5. God Is Not Great: How Religion Poisons Everything
(كيف يسمم الدين كل شيء)
Christopher Hitchens
Twelve Books, 2007, 307 pp., $14.99

※

6. Eclipse
(كسوف الشمس)
Stephenie Meyer
Little, Brown Young Readers, 2007, 640 pp., $10.44

※

7. The Children of Hurin
(أطفال هورين)
Tolkien R.R.J
Houghton Mifflin, 2007, 320 pp., $15.60

※

8. A Long Way Gone: Memoirs of a Boy Soldier
(مذكرات صبي جندي)
Ishmael Beah
Farrar, Straus and Giroux, $13.20

※

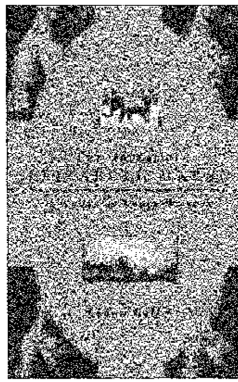
9. The 4-Hour Workweek: Escape 9-5, Live Anywhere, and Join the New Rich
(عش واتضم إلى محدثي النعمة)
Timothy Ferriss
Crown, 2007, 320 pp., $11.97

※

10. The Best Life Diet
(أفضل حمية في الحياة)
Bob Greene
Simon & Schuster, 2007, 304 pp., $15.60

حيـــاة غيـــر عـــادية

مـــيـــجـــان مـــارشـــال



THE ORDEAL OF ELIZABETH MARSH
A Woman in World History
(محنة اليزابث مارش.. امرأة في تاريخ العالم)
Linda Colley
Pantheon Books, 363 pp
$27.50

* معظم كتاب السير يعملون من الداخل للخارج. اليوميات والرسائل الخاصة والحوارات (إذا أمكن) تقدم مادة لوحة شخصية تبث فيها الحياة عبر سرد الأحداث التي أثرت بالتحضر موضوع البحث وتأثر بها. ويتاح للقارئ التعرف على صاحب السيرة الذي يستعرض من خلال عينيه أو عينيها تاريخ زمان ومكان محددين. وهكذا فإن كتابة السيرة مع تفضيلها للحياة الداخلية تقف على الضد من السرد التاريخي. وحسب تعبير كاتب السير المحارب القديم كنيث سلفرمان «التاريخ هو مافعله نابليون. سيرة حياته هي معنى التاريخ بالنسبة له. ولكن هل الأمر بهذه البساطة حقا؟

في كتاب «محنة اليزابث مارش» كتبت لندا كولي سيرة تعارض كل الأفكار الشائعة حول هذا النوع من الأدب. كأن تمر حوالي ٤٠ صفحة قبل أن تقدم لنا الكاتبة كلمة واحدة عن صاحبة السيرة. وهي كاتبة رحلات مغمورة من القرن الثامن عشر. تحتفظ المكتبة البريطانية بنسخة يتيمة من كتابها المطبوع الوحيد. وحتى حين تظهر اليزابث مارش أخيرا على المسرح، تكرر كولي تذكيرنا بضآلة معرفتنا حول «حياتها المنسية».

ولدت مارش في ١٧٣٥ لأب بريطاني يعمل في صناعة السفن وأم من جامايكا لا يمكن التأكد من هويتها ولكن اسمها يشابه اسم امرأتين تعقبتهما كولي من خلال سجلات الجزيرة، إحداهما كانت على وجه اليقين بذرة علاقة عبدة وسيدها. هل كانت اليزابث مارش خلاسية النتاج؟ وحيث لم نر لها صورة أو وصفا جسديا: لا يمكن أن نقطع الشك باليقين. حين تركت مارش زوجها لتسافر لمدة ١٨ شهرا في الهند الشرقية والجنوبية، هل كانت قد انفصلت عن زوجها. أم كانت مارش ببساطة تشبع شهوتها للترحال؟ ليست هناك إشارة لذلك في يوميات الرحلة. لا رسالة إلى زوج مهجور قد تدلنا على الحقيقة. مرة أخرى لن نعرف أبدا.

ولكن بدلا من الإحباط، ملأت كولي الفراغات بالناس والأماكن التي زارتها مارش والقوى الكونية التي أثرت على قصتها. إحدى النواحي الغامضة الكثيرة في حكاية مارش هي أن «الاتجاه المستقل الخاطئ» الذي اتبعته في رحلة الهند الشرقية انتهى في يوليو ١٧٧٦: في نفس الوقت الذي أعلنت فيه المستعمرات الأمريكية التابعة لبريطانيا استقلالها. وقد أدت الثورة الأمريكية التي تصورها كولي بإقناع على أنها «حرب عالمية»، تقريبا إلى خسارة زوج مارش لعمله في دكا البعيدة.

في مقدمة الكتاب تعكس كولي الأولويات البيوغرافية الاعتيادية فتكتب «هذا الكتاب يرسم عالما في حياة وحياة في عالم».

«محنة اليزابث مارش» أداء باهر في البحث التاريخي الذي يكشف ما تصفه كولي «محنة تقصي سيرة اليزابث مارش» لتسمح للقراء بإحساس المشاركين في تتبع هذه المرأة الجوالة. تزوج والداها في جامايكا وولدت في بورتسموث بإنجلترا، كانت مارش كما وصفتها كولي «في حركة دائبة معظم حياتها». لقد قضت وقتا طويلا في نصف دزينة مدن، من لندن إلى مدراس، تتبع نزوات والديها وزوجها وأحيانا نزواتها الخاصة، مما أدى، في كثير من الأحيان، إلى حظ عاثر وبؤس. وقد قضت ثلاثة شهور رهينة في المغرب، وكان هذا موضوع مذكرات رحلتها لعام ١٧٦٩ والتي عنونتها «الأسيرة الأنثى». وقد قدمت كولي المعادل التاريخي لخرائط قوقل لكل موقع، مع اشتمالها على تفاصيل مثل عدد وطرز المباني، السكان حسب الجنس والعرق والاثنية والمهنة، ولمحات عن أحداث مهمة مثل الأمراض المعدية والزلازل والحروب.

تمتاز كولي بموهبة المؤرخ الماهر في وصف مشاهد المعارك ولكنها تفعل الشيء ذاته وبتفوق في وصف دخول مارش تحت الحراسة المشددة إلى مراكش، بدون قبعة، راكبة على حمار، يخترق بها «مشاهد من المنائر المتناثرة المضلعة» مارة بحشود هازئة، إلى اجتماعها بسيدي محمد، السلطان البالغ من العمر أكثر من ٣٠ عاما والذي سوف يحتفظ بها رهينة «حتى توافق بريطانيا على إقامة قنصلية حقيقية في المغرب». تروي لنا كولي أن سبب اضطراب مارش وخوفها، حتى قبل أن يضغط عليها محمد لمرتين أن تنضم إلى حريمه، كانت معرفتها لـ «مسيرة الموسيقى الخشنة» والتي مازالت شائعة في مدن الريف الأوروبي، حيث يركب الزناة بدون قبعات وسط حشود من «القرويين الغاضبين»: كوسيلة إلحاق العار العلني. إنها واحدة من لحظات كثيرة، تنجح فيها كولي، حين تأتي بالشرق والغرب في صورة واحدة، في رسم «العالم» داخل حياة مارش.

هل يمكن لاليزابث مارش وهي في نظر كولي «شخصية صعلوكية إلى حد لا يصدق»، في نفس الوقت جاهلة ومغامرة، فضولية ومتحيزة، متزعزعة اجتماعيا وأنانية، أن تحمل ثقل العالم على كتفيها؟ كان ذلك بفضل دعم مجموعة من أصدقاء وأفراد العائلة وحتى عشاقها. وقد بحثت كولي حياتهم بنفس المثابرة والاهتمام الواسع اللذين منحتهما لمارش.

حين فقد زوج مارش عمله كوكيل للملح مع شركة الهند الشرقية في أبريل ١٧٧٧، لم يكن لدى كولي دليل مباشر على رد فعله. ومن أجل ملء الفراغ، قامت بذكاء بإضافة تعليق مسئول كبير في الشركة كتبه في نفس السنة وحفظ في (أرشيف مكتب الهند في لندن) ويقول فيه أن أكون بدون وظيفة كأوروبي أبيض في شبه القارة الهندية كان «محنة مأساوية. مجرد التفكير فيها يدفع الرعشة إلى جسدي.. أن ينحدر الرجل إلى هذا المستوى». إن التفكير في قدرة كولي على وضع يدها على هذه الوثيقة تدفع بالرعشة إلى جسدي.

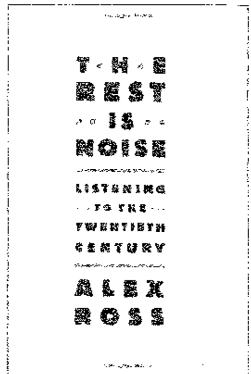
من أجل تعقب مارش: سعت كولي إلى قارات أكثر من التي زارتها مارش. فمذكرات مارش حول رحلتها إلى الهند الشرقية ارتحلت هي الأخرى إلى مكتبة كاليفورنيا وتتبعت كولي صلات عائلة مارش إلى إسبانيا وإيطاليا وأمريكا الوسطى والصين ونيوساوث ويلز وجاوا والفلبين. وهي تشيد بفضل الإنترنت في تقديم شكل جديد من البحث ولكن الشبكة العنكبوتية العالمية جيدة إذا كان الباحث جيدا. مثل أفضل المؤرخين في أي عصر، طرحت كولي أسئلة جديدة، وإجاباتها قدمت لنا عالما في كتاب. *

● ميجان مارشال مؤلفة كتاب «الأخوات بيبودي: ثلاث نساء أضرمن الرومانسية الأمريكية».

2007

مسألة الموسيقى .. معزوفات القرن

جـــــــــــوف دايــــــــــر



THE REST IS NOISE
Listening to the Twentieth Century
(البقية ضوضاء: الاستماع للقرن العشرين)

Alex Ross
Farrar, Stratsand giroux

■ ■ هل الشيء الذي يؤهل امرءا ما لكتابة نقد، كونه نوع القارئ الذي يتوجه إليه الكتاب «خصيصا» - هو ذات الشيء الذي يجرده من أهليته للقيام بذلك؟ لا أتكلم كشخص «ضليع بالموسيقى الكلاسيكية» ولكن كممثل «لأولئك الذين يشعرون بفضول لمعرفة هذا الفردوس المفقود الغامض على أطراف الثقافة». وربما يمكن لأولئك الذين أفضل مني اطلاعا الانقضاض على اليكس روس، الناقد الموسيقي لصحيفة النيويوركر، إذا اختلطت عليه الأمور، أو أخطأ في حركة السلم الموسيقي، أو ما إلى ذلك.

«البقية ضوضاء» عمل واسع الأفق والطموح. الفكرة ليست مجرد القيام بمسح للتأليف الموسيقي الكلاسيكي في القرن العشرين ولكن لقراءة تاريخ ذلك القرن من خلال موسيقاه. نبدأ مع غوستاف ماهلر وريتشارد شتراوس «عمالقة الموسيقى النمساوية الألمانية» في مدينة غراز يوم ١٦ مايو ١٩٠٦. شتراوس كان هناك لقيادة أداء أوبراه (سالومي). فإذا بها ليلة استثنائية - ليس بسبب زعيق ونشاز وولولة الموسيقى ولكن لأن الجمهور، لدهشة ماهلر، أحب كل ذلك.

قد لا تعدو تلك الليلة أن تكون «حدثا واحدا في موسم حافل». ولكن مثل ومضة برق، أضاءت عالما موسيقيا على حافة تغير مؤثر. كان الماضي والمستقبل يتصادمان. كانت ثمة قرون تمضي عبر الليل، يصور بجلاء ويحلل بعمق، واقعة تصلح أيضا نمطا للكتاب برمته. حيث يجد روس، مرارا، حدثا يعبر عن حركة أكبر، شخصا أو مشهدا تتشابك داخله الأهواء والمعاني.

من سترافنسكي إلى سبيليوس إلى شوينبرغ (الذي «تعلم الاشكال الموسيقية بالاشتراك في موسوعة والانتظار أن يصل مجلد حرف (س) قبل أن يؤلف سوناتة») كانت المقطوعات ثقيلة الوزن من الموسيقى الجديدة التي بدأت في البزوغ تؤلف بإيجاز وثقة هما نتاج انغماس ودراسة عميقين.

وعلى أية حال، بعد ١٥٠ صفحة، يبدأ المرء في التخوف من أن (البقية) قد تنحدر إلى سلسلة متصلة من اللمحات القصيرة عن الشخصيات التي اشتهرت بتأليفها ببراعة صحيفة نيويوركر. ولكن لحسن الحظ، ما إن تبدأ الأمور في الارتخاء والانحراف، حتى تهرع التمولية بعملية إنقاذ. فحين يفحص روس مصير المؤلفين الموسيقيين تحت حكم ستالين وهتلر، يعود الكتاب مرة أخرى لمتابعة هدفه الأعمق.

وفي هذه الأثناء، في ألمانيا ما بعد فاغنر، هل نسمع شيئا ينذر بالخطر في كل هذه «السيمفونيات التيوتونية الهائلة»؟

مع إيمان روس منذ البداية أنه لم يحدث «أن عرض أي مؤلف موسيقي الانهيار الأخلاقي للفن الألماني، بشكل أكثر إيلاما من ريتشارد شتراوس» يبحث روس ببراعة شديدة في عقدة الموسيقار، وعلاقته المتناقضة غالبا مع النظام النازي.

والتركيز الأهم في هذا الكتاب يتلخص في بؤرة فكرة روس: هل تاريخ الموسيقى خاص بذاته، أم هل يمكن استخلاص تاريخ أوسع وخارج الموسيقى منه؟

يوضح لنا روس أن البدائل متضمنة ومتداخلة: «بسبب طبيعة الموسيقى الغامضة، صار من السهل «دمغها» بالأيديولوجيات واستخدامها للأغراض السياسية». وباستمرار تكرار ظهور الشخصيات الرئيسية مثل موتيفات في سيمفونية فإن «البقية ضوضاء» باتت مثل توزيع موسيقي باهر. حتى إنه في بعض الأحايين، يبدو التاريخ ذاته وكأنه يميل للعزف بين يدي روس. فمن كان يتصور أن تكون النتيجة «السريالية» لصعود الفاشية، هي أن يجد الكثير من أساطين الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية أمثال شوينبرغ وسترافنسكي وراخمانينوف وأوتو كليمبرير (ناهيك عن مان وادورنو) - أنفسهم على عتبات بعضهم البعض في لوس انجيلوس؟

وقد بذل شوينبرغ وسترافنسكي أقصى جهودهما لاعتصار أجور ضخمة من ستوديوهات هوليوود المتعاطفة. وبعد ذلك، أصبح تأليف موسيقى الأفلام احد أهم الوسائل التي حافظت فيها الموسيقى الأوركسترالية على وضعها الجيد في السوق الثقافية. وفي حين أن امريكا كانت تنتج نوعين من الموسيقيين: محللين «للموسيقى الصرفة» (وهو التعبير المفضل لدى أهل الجاز) ومؤلفي الموسيقى الشعبية الذين يمكن إطلاق صفة كلاسيكيين عليهم مثل النجتون وجرشوين وبيرنشتاين. ولكن كثيرا من أهم الأفكار الرائدة كانت تنتشر عبر الجاز والذي يعتبر غالبا «الموسيقى الكلاسيكية السوداء».

هذا يعني، في سنوات ما بعد الحرب، كان على بؤرة بحث روس أن تتوسع بالضرورة إلى نطاق أكبر، وهكذا كلما اقتربنا من الزمن الحاضر، زاد ما ينبغي إضافته من كمية مادة حتى فقد الكتاب التركيز السابق الذي تحقق عند الحديث عن الموسيقى في منتصف القرن. إن تشظي المركز الموسيقي يعني تناثر القصة، مما يدفعنا بدون مقاومة إلى أطراف الثقافة. وبالتزام الكتاب بذكر الجميع يصبح الكتاب أشبه بموسوعة ترتدي قناعا سرديا. ولا أعرف إذا كان يمكن معالجة الأمر بصورة مختلفة، ولكن قوة الطرد المتولدة من مثل هذا الالتزام الشامل تفقد التركيز فاعليته.

ولكن يظل كتاب «البقية ضوضاء» إنجازا مهما. ومثلما ذكر ريلكه ذات مرة كيف تعلم الوقوف أمام لوحات فنية معينة متسلحا بقدرة على «نظر أوسع»، فقد علمنا روس «استماعا أوسع». ■

■ من بين كتب جوف داير العديدة، ولكن جميلة، وأحدث كتبه «الحركة المستمرة».

قائمة أفضل الكتب مبيعا
على موقع AMAZON.CO.UK

1. Harry Potter and the Deathly Hallows
(هاري بوتر والتقديس الميت)
Rowling, K.J
Bloomsbury: Children's edition, 2007, 608 pp., L9.99

■

2. Harry Potter and the Deathly Hallows
(هاري بوتر والتقديس الميت)
Rowling, K.J
Bloomsbury: Adult edition, 2007, 608 pp., L9.92

■

3. Nigella Express
(وجبات نايجيلا السريعة)
Nigella Lawson
Chatto and Windus, 2007, 400 pp., L12.00

■

4. The Secret
(السر)
Rhonda Byrne
Simon & Schuster Ltd, 2007, 160 pp., L6.91

■

5. Half of a Yellow Sun
(نصف شمس صفراء)
Chimamanda Ngozi Adichie
HarperPerennial, 2007, 448 pp., L3.94

■

6. The God Delusion
(وهم الرب)
Richard Dawkins
Black Swan, 2007, 464 pp., L4.44

■

7. Gordon Ramsay's Fast Food: Recipes from "The F Word"
(طعام جوردون رامزي السريع، وصفات من «كلمة إف»)
Gordon Ramsay
Quadrille Publishing Ltd, 2007, 256 pp., L7.99

■

8. Jamie at Home: Cook Your Way to the Good Life
(اطبخ حتى تنال الحياة الصحية)
Jamie Oliver
Michael Joseph Ltd, 2007, 408 pp., L12.50

■

9. Suite Francaise
(الجناح الفرنسي)
Irene Nemirovsky (Author), Sandra Smith (Translator)
Vintage, 2007, 416 pp., L3.94

■

10. I Can Make You Thin
(أستطيع أن أجعلك نحيفا)
Paul McKenna
Bantam Press, 2007, 144 pp., L6.59

فـي مكـان موحـش

تـومـاس مـاكـجـويـن



OUT STEALING HORSES
(سرقة الخيول)
Per Petterson
Translated to English: Anne Born
Graywolf Press, 2006, 258 pp., $22.00

■ ■ لنتصور أننا قد شهدنا مثيله: تروند ساندر، مهني يعيش في أوسلو فقد زوجته وأخته مؤخراً، يأمل أن يداوي وحدته عن طريق الغرق في العزلة: بلا أية دراما، ما يود إلا أن يتقاعد ويجيء بعدة تغييرات. لا شك أن الاسكندنافيين يفرقون بين الوحدة والعزلة. بيد أن تروند يلمح إلى القارئ في أحيان ويباغته بالعاصفة مقتربا من أذنه في أحيان أخرى وهو ينبئه بقصة صريحة والقمية الأسلوب حتى إن القارئ لا بد أن يعيشها حتى النهاية: «لقد حالفني الحظ»، يقول عن حياته فيما يعترف بأنه تاق دائما إلى الوحدة. هل أطلقت وفاة زوجته من عقاله؟ لكنه لا ينبس سوى بـ «لقد فقدت الرغبة في الحديث مع الناس». سوف يتعلم بحق أن يتحدث بمفرده وسط قطار أفكاره حين يتلاشى الفرق بين الكلام والصمت تلاشياً بطيئاً. يتأمل انتقاله إلى الريف فيصرح قائلا: «لقد وضعت نفسي في موقف مستحيل». ينام نوما مضطربا لأن الماضي يضغط عليه في الصمت فلا يسلم من الانزعاج. تدنو بداية الألفية الثانية لكنه يتوقع ألا تعني شيئاً. وبينما تنتشر الألعاب النارية في أماكن أخرى، سوف يسكر ويستمع إلى بيلي هوليداي من التسجيل. إن تروند أشبه بالأبطال الأمريكيين: فهو لا يقترب من الشخصيات الاسكندنافية بمن فيهم شخصية كنوت هامسون Knut Hamsun «الملازم جلان» أو شخصية هالدور لاكتيس Halldor Laxness «بجارتور». إلا أن جيوده تتطلب طمأنينة وهدوءاً.

وكما هو الحال مع الكثير من العجائز لما ينتهون إلى نقطة لا يدرون فيها ماذا يفعلون، يقحم تروند نفسه في خضم عدة خطط ينهض بها بنفسه غير أن طبيعتها اليومية المبتذلة لا تفلح في إخفاء ما يخالج حياته وذكرياته من غرابة. تضم إحدى ذكرياته «ضجة الجزء المتناغمة شأنها شأن فرقعة السوط، الصادرة عن القوات الألمانية إبان تقدمها باتجاه أوسلو، وهدير الطائرات الألمانية وهي تطير في تشكيلات من البحر المفتوح ومن أثاتيا، فوق الخلجان لتقترب من أسقف المدينة». بات أخواه التوأمان معروفين بالأخ الذي قتله الجستابو والآخر الذي لم يقتله الجستابو. ثمة توأم آخر قتل صدفة بظروف مختلفة لكن الاختلاف في بداية سلسلة حوادث ضيقت الخناق حول حياة تروند الراشدة بأسرها. إن هذا التأثير وألوانا أخرى من الانعكاسات لجزء من براعة السرد، سرد يتنقل زمنيا إلى الخلف وإلى الأمام بثقة إنشائية وإحكام متناسق حتى إن التتابع لا ينقطع البتة. حتى العنوان «سرقة الخيول» يخدم كإعلان على مزحة يقوم بها مراهقون وكلمة سر تدل على النشاط الخطر للمقاومة. إنها رواية قصيرة إلى حد ما لكنها تمتد زهاء نصف قرن دون أن تخلف على ما يلوح أية حادثة مهمة. إنها معجزة. لا يسعني أن أدرك كيف للمفسرين - في انفعالهم بنتائج الرواية التفكيكية المشحونة - تحليل هذه الرواية. فكما أشار دوستويفسكي Dostoyevsky: «إن معادلة اثنان واثنان يساويان أربعة، تبدو بالنسبة لي ببساطة إهانة ليس إلا».

ثمة نوع من الثقة الدنيوية تساور سير تروند لشذوته الراهنة، سير جاء في أواخر حياته وامتزج بحيرة لا تقبل الراحة. يصرح تروند عن الموت القريب الوشيك بأنه «أمر لا يكترث له قطء» ونحن نصدقه وإن كان تصديقا لا يخلو من تحفظ: فتأمله الملزم لماضيه يمكن تفسيره على أنه كشف حساب أخيرء. «إن ذلك الجزء من حياتي حين استطعت أن أستغل الأحلام انقضى الآن. لن أحدث أي تغيير بعد الآن». لكنه يود أن يعلم قبل كل شيء لماذا اختفى أبوه الذي عشقه والذي على ما يبدو بادله العشق - إنها ولا شك فوضى الحرب. لماذا اختفى وجعل تروند يتيماً في حين حمل أمه إلى الانجراف نحو شيء خطير لا يقف عليه حتى الآن. إن كون أبيه رسولاً للمقاومة، ينقل الوثائق ثم أجساد البشر من النرويج المحتلة، يسبغ عظيم الغموض على الهجران. إنها موجة بعيدة من موجات النازية، موجة توحي إيحاء لا فكاك منه بأن الألمان نازيون إلى الأبد. أو على ما جاهر به كونراد صحيح: إن كل البشر نازيون.

على الجانب الآخر، يقدم المؤلف في البداية «فعلة لا مبرر لها»: حكاية يستحوذ عليها الدمار. يمسك جون، صديق تروند في الصبا، عشاً مثالياً من أعشاش طائر الوصيع فلا يند عنه إلا سحقه في التراب ليهشم البيض على الأرض. ويشعر أشعث وسيماء من عنف قلما يجد كبتاً وحباً للصيد لغرض واحد وحيد هو متعة القتل، يعمم جون مشكلة لم تحلها حرية يُحسد عليها وإن شابها الغموض. يتحلى جون بعينين سوداوين لا سبيل إلى سبر غوريهما ووجه أبيض كما الطباشير يستعصي عليه التعبير. يكاد وجهه وعيناه يتحولان إلى أسطورة عندما يقوم بما أتاه من تدنيس: إنه يحتل موقعا بالقصة باعتباره مصدرا للشر المساوي للألمان في معاطفهم الطويلة: ألمان يحرسون جسر القرية بالدراجات البخارية والرشاشات. إنهما زوجان يتحديان قدرتنا على الاحتمال: ثمة لمحات ناظرة بعين العطف إلى الجنود الألمان بصفتهم شبانا بعيدين عن بيوتهم، يهرعون بغرابة إلى عمليات الاغتيال، في حين تنزع بنا فعلة جون الصغيرة بل العنيفة عنفاً لن يمحى من الذاكرة باتجاه مشهد عالمي شرير يمتنع فيه الغفران.

يشمل الشخصيات الحية والميتة قدر مساو من الجلاء: إنها أعجوبة أخرى صغيرة من أعاجيب رواية «سرقة الخيول». إن ما يداخل مكان تروند من بُعد مجرد من المشاعر يُنتج سكوناً حيويا يسمح له بالتذكر واستيعاب ما بعث أبيه على الرحيل. وسواء جون مرتاد البحر أو أبو تروند المتيم، يتحلل الذكر الضاري بهدوء فيما تتعرى المعاناة الناتجة عن إهماله أمام القراء. إن هذا الكتاب يستمد الكثير من سوداويته من الظل الطويل للرجال حاملي الأسلحة، ظل لا يقل عن النوة الشهوانية التي تقف عائقاً أمام الترتيبات المتحضرة.

إن ذلك الكتاب القصير الرحب القوي يُذكرنا - في تناقض واضح مع الثرثرة المنمقة للرواية الأمريكية المتفخة - بالكتابات الدقيقة لجيه. إم. كوتزي ودابليو. جي. سيبولد. كما أن صلة بيترسون بكنوت هامسون - تلك الصلة التي لا ينكرها - بينة في رواية هامسون «فيكتوريا» بل وروايته المرحة «الحالمون». غير أنه لا يوجد ما قد يوحي بأن رواية بيترسون الرائعة استغرقت في مصادرها استغراقاً حال دون أن تصبح سرداً أصيلاً يوسع من تجربة القارئ الحياتية. ■

تأجيل الحلم الأمريكي

كياما إل. جلسوفر



MAN GONE DOWN

(الإطاحة برجل)

Michael Thomas

Grove Press, Black Cat, 2006,

431 pp., $14.00

«سمه إشميل». عبارة من بين عدة عبارات رمزية تقدمها شخصية رواية مايكل توماس الأولى، «الإطاحة برجل»، كمفتاح لحل لغز هويته. ومع ذلك لا يهم إذا كان هذا هو اسمه الحقيقي أم لا: فهذا الرجل لا يتوقع أن يمكث على قيد الحياة حتى انتهاء رحلته كما هو الحال مع بطل ميلفيل Melville المتنور المفتقد لكل سمات البطولة، لطالما علم أنه ضائع تائه في هذا العالم.

إن توماس يهبه قصته ليسردها بصوت الراوي وقد سمح لبطله بما يربو على ٤٠٠ صفحة كي يحكي أحداث أربعة أيام وعمر مشحون بالاضطراب أفضى إليها. إنه رجل أسود تربى في بوسطن ويقطن في بروكلين؛ يكافح ليكتب فيما يعيل زوجة بيضاء أرستقراطية وثلاثة أطفال. يكاد يخسر راوي توماس كل ما يمتلكه. فهو مفلس تماماً ويقيم بصورة مؤقتة في غرفة ابن أحد أصدقائه. لا بد أن يتوصل إلى ما يزيد على ١٢٠٠٠ في غضون أربعة أيام - ما يكفي من نقود لتأجير شقة ودفع مصاريف التعليم لمدرسة أطفاله الخاصة. إن «الإطاحة برجل» تروي قصة هذه المحاولة المستحيلة ومحاولات أخرى لا تقل استحالة.

على الرغم من أن الرواية تسرد في ظاهرها وقائع أربعة أيام تترع باليأس في نيويورك، فهي تمتد إلى ما وراء هذه الحدود الزمانية والمكانية. إذ يحاول الراوي استدعاء ذكريات ماضية تندمج اندماجا لا انصلاح فيه؛ فهو يستحضر صدمة طفولته في ثمانينيات القرن الماضي باعتبارها «تجربة اجتماعية»، وذلك حين نقلته الحافلة من المدينة إلى ضواحي بوسطن الغنية. يستخدم عندئذ البطل هذه الغزوات الماضية كنقطة انطلاق يسير من خلالها التواريخ المهشمة لأم اعتادت الإساءة إليه وأب غائب بلا سبيل إلى عودته - إنه أشبه بالذي غير مباشر ناجم عن الشتات». ومن هنالك يتقدم صوب مأسى تاريخه الحديث: إدمان للكحوليات نال من عافيته وانفجارات من العنف خلال أيامه بهارفارد وأحلام مؤجلة إن لم تكن منهارة.

إن أكبر الأسئلة المطروحة في هذه الرواية هي كيفية متابعة الحلم الأمريكي وأحلام أخرى غيرها على حين تعرقلها حقائق العرق عرقلة لا هوادة فيها. كيف للمرء أن يتغلب على لون يسري مباشرة في دماء عائلته؟ يكرر الراوي لازمة لا تبرأ من السحرية استعارها من لورين هانزبيري Lorraine Hansberry: «انظر ماذا جلب العالم الجديد». إن تأثير تلك اللازمة قد نبت ولكن ما انخرط فيه الراوي من تأملات حول ما يسمى بقضية العرق - في تأثيرها على أطفاله - لا تنقصه القوة ولا العاطفة. وبعيداً عن الافتتان الأبوي المألوف بجينات الأطفال المتوارثة وملامحهم الجسدية، يقر باهتمامه المتعاظم بأصل ملامح معينة: فابنه الصغير «يشبهه تماماً، عدا أنه «أبيض»».

لا شك أن توماس في نقده للمجتمع الأمريكي يتكل على رواية «الرجل الخفي» لكنه يعتمد أيضاً على أعمال إليوت Eliot في جوانب اعترف بها وأخرى لم يعترف بها. ثمة مسحة واضحة من عدمية بروفروك Prufrock: الاغتراب الحاد لروح سامية لا يلائمها انحطاط العالم الأرحب؛ يأس حصان أعرج مرغم على العدو في سباق لا حد لإنهاكه. يصارع قدراً قضت به جيناته بقدر ما قضت به بلده. إن راوي توماس رجل لا يفارقه الخطر على الإطلاق. تكشف نسبيته المعذبه بحدة أن ما يداخل التسليات الأمريكية كالبيسبول والجولف من براءة ظاهرية قد يتحول إلى ستائر شريرة تخفي وراءها خيبة أمل للمهمشين؛ وإن الطيبة قد تنقلب سما في تفرض عليهم فرضا - لدرجة أن رفض الهدايا المقدمة بيد مهملة يغدو وكأنه حفظ للذات من الهلاك. وسواء كانت الرأسمالية مفضية إلى السعادة أم لا، يصر توماس على أن الأغنياء أفضل حالا من الفقراء - ليس لأنهم يملكون من المتاع ما يفوق الفقراء، لكن لأن الحياة قد أعفتهم مما يخامر التسول والسؤال الدائم من إهانة.

يجازف توماس في اختياره لبطل يؤدي دور الراوي. إن كلمة «أنا» تنتمي بالضرورة إلى مذهب الوحدة الذاتية، وكلمة «أنا» هذه توحي بما يبدر منه من مواقف عدائية. له الحق في تكرارها، كما أن له الحق في تحمل عبء ما يبدو بلا رابط أو وازع. لكنه ينخرط أحيانا في رثاء للنفس لا تعوزه العجرفة. رثاء بوسعه أن يقلل ما ينتاب القراء من شفقة تجاه ورطته. إنه الخجلان من البهجة يسير كما المهرج على الحبل ما بين سكران ذات يتلون بالجلال وقدر من الماسوشية - فهو يرفض الطعام المجاني على الرغم من أنه يموت جوعا. يلقى متعة ما بعدها متعة في رفض متع بسيطة. يستولي عليه فخر غاضب لأن القادرين على معاونته يكنون له كرها. ولهذا فإن كلمة «أنا» هذه تجعله أيضا هشاً كل الهشاشة. إنه بطل - كاتب - في حوار متواصل مع نفسه، يقر بخوفه من الآلة في حين يغذيها. وبينما يبدي في الغالب احتقارا للعالم المادي الذي يتجاهل قيمته، لا ينفك يضع نفسه في وضعية يصدر فيها هذا العالم الأحكام عليه - مما يعري حقارته وعجزه كأب وزوج وابن وصديق ورجل.

كان من الممكن أن تشغل رواية «الإطاحة برجل» عدد صفحات أقل. ومع ذلك فإن مدى مشروع توماس متكامل كلية والنتيجة النهائية ناجحة نجاحاً مبهراً. يتمتع توماس بحس استثنائي لالتقاط التفاصيل؛ أما شعر استطراداته الوصفية فيملأ القلوب إثارة وجموحاً. وباعتباره كاتبا أمريكيا نشأ في بوسطن ويقيم في بروكلين مع زوجته وأطفاله الثلاثة، يلوح أن توماس يعتنق بشدة شعار «اكتب ما تعرف عنه». وما يعرفه هو كيف يتم تقدير احتمالات النجاح سلفا في أمريكا. يدرك أنه من غير المحتمل لأب أسود أن يحرز فلاحا مع أولاده. يدرك أن الأوضاع مرتبة لكي يبقى الآخر فقيرا والفقراء في أماكنهم بلا حراك. وقبل كل شيء يدرك كيف أن التخيل بمقدوره الإطاحة برجل. ▽

قائمة أفضل الكتب مبيعا على موقع Amazon.fr

1. Harry Potter, tome 7: Harry Potter et les reliques de la mort

(هاري بوتر، الجزء السابع: هاري بوتر والتقديس المميت)

J. K. Rowling
Gallimard jeunesse, 2007, 809 pp., EUR 25,18

*

2. Un secret

(السر)

Philippe Grimbert
LGF, 2007, 184 pp., EUR 5,23

*

3. L'élégance du hérisson

(أناقة القنفذ)

Muriel Barbery
Editions Gallimard, 2007, 359 pp., EUR 19,00

*

4. Cahier de gribouillages pour adultes qui s'ennuient au bureau
Claire Fay

(كراسة شخابيط للكبار)

Editions du Panama, 2007, 59 pp., EUR 7,13

*

5. Une vie

(حياة)

Simone Veil
Stock, 2007, 395 pp., EUR 21,38

*

6. Miscellanées Culinaires de Mr. Schott Boris Donné (adapté), Ben Schott (Auteur)

(وصفات منوعة)

ALLIA, 2007, 160 pp., EUR 14,25

*

7. Les Miscellanées de Mr Schott Boris Donné (Adapté), Ben Schott (Auteur)

(مهام مطبخية صغيرة للأستاذ شوت)

Allia, 2007, 158 pp., EUR 14,25

*

8. XIII Tome 18: La version irlandaise Jean Van Hamme (Auteur), Jean Giraud (Illustrations)

(الجزء الثامن عشر: النسخة الأيرلندية)

Dargaud, 2007, 48 pp., EUR 9,88

*

9. XIII Tome 19: Le dernier round Jean Van Hamme (Auteur), William Vance (Illustrations)

(الجزء التاسع عشر: الجولة الأخيرة)

Dargaud, 2007, 48 pp., EUR 9,88

*

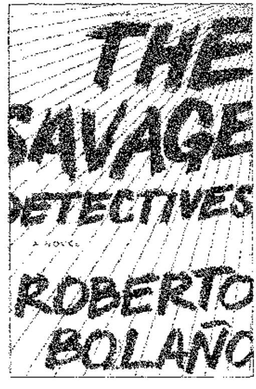
10. Le Chirurgien

(الجراح)

Tess Gerritsen
Pocket, 2007, 470 pp., EUR 6,65

الواقعي العميق

جيمز وود



THE SAVAGE DETECTIVES
(المخبرون المتوحشون)
Roberto Bolano
Translated to English: Natasha Wimmer
Farrar, Straus & Giroux, 2006.
577 pp., $27.00

※※ لقد انتشرت سمعة روبرتو بولانو انتشاراً سريعاً هادئاً - بين المتحدثين باللغة الإنجليزية على الأقل - خلال السنوات القليلة الماضية. وسوف تضمن رواية «المخبرون المتوحشون» أن تتناهى سمعة بولانو إلى أسماع الجميع. فحتى مؤخراً كان القراء بهذا البلد (الولايات المتحدة) يتناقلون اسم بولانو بقدر من السرية: أدين بإدراكي له لصديق أعارني بكل حماسة نسخة لن أردها مطلقاً من أقصوصة بولانو الرائعة «ليلاً في شيلي». كان هذا الشيلي الخيالي الغريب غرابة مدهشة واقعياً راسخاً وشاعراً غنائياً في يوم ما. توفي عام ٢٠٠٣ عن عمر بلغ الخمسين، وقد تم الاعتراف به منذ عدة سنوات في العالم المتحدث بالأسبانية كواحد من أعظم الكتاب الحداثيين وأكثرهم تأثيراً. إن هؤلاء من غير المتحدثين بالأسبانية سوف يضطرون إلى الاعتماد على النقل الأمين للترجمة بدءاً من «ليلاً في شيلي» (٢٠٠٣) وروايتين قصيرتين - «نجم بعيد» (٢٠٠٤) و«التعويذة» (٢٠٠٧) - ومجموعة قصصية تحت عنوان «آخر الأمسيات على الأرض» كلها من ترجمة كريس أندروز ونشر دار نيو دايريكشنز.

الحق أن اندهاشاً لن يساورك حين تعلم أن روبرتو بولانو كتب الشعر قبل كتابة النثر. حتى في رواية طويلة كرواية «المخبرون المتوحشون» سوف تجد أن وحدته الأثيرة هي المونولوج المتحفظ الأشبه بكتابات براونينج Browning وليس المشهد المطول. ولد بولانو في شيلي عام ١٩٥٣ لكنه نضج في مدينة ميكسيكو سيتي حيث انتقلت أسرته عام ١٩٦٨ - عاد إلى شيلي عام ١٩٧٣ كي يدعم الثورة الاشتراكية كما رآها هو فتم القبض عليه لفترة وجيزة في انقلاب بينوشيه. رجع إلى المكسيك حيث نشر ديوانين للشعر ثم كابد فترة طويلة من الاغتراب والترحال والمخدرات ووظائف شديدة الغرابة في فرنسا وأسبانيا. وافته المنية ببرشلونة من جراء قصور في الكبد: فكان كالكمان النائي وسط آلات البالالايكا (على حد قول نابوكوف Nabokov عن أحد الكتاب المنفيين). كان يعلم أن أجله قريب: فثمة المزيد من الأقاصيص في الطريق ورواية ضخمة «٢٦٦٦» ستظهر باللغة الإنجليزية في العام القادم. إن الأدب الذي يترجم في الوقت الحاضر كُتب في فورة من الإبداع أثناء سنوات عمره الأخيرة.

نشرت «المخبرون المتوحشون» عام ١٩٩٨ غير أن روحها تنتمي إلى مدينة ميكسيكو سيتي في منتصف العقد الثامن من القرن العشرين حين كان بولانو شاعراً طليعياً يزخر عقله بجداول أعمال مجنونة. وكما هو الحال مع الكثير من أعماله، تلوح الرواية سيرة ذاتية مدهشة لحياته. يروي الراوي الجزء الأول منها في صورة مذكرات كتبها خوان جارسيا ماديرو، شاعر في السابعة عشرة يسعى إلى بلوغ غاياته الشهوانية والشعرية. سئل خوان عن الانضمام إلى جماعة أدبية أطلقت على نفسها اسم «الواقعيون». يقود الجماعة شاعران في ريعان الشباب: أرتورو بيلانو وبوليسيز ليما، اثنان لا ينقصهما الجموح يظهران في حكاوي أخرى من كتابات بولانو (في «التعويذة» على سبيل المثال). تعتمد شخصية ليما على أحد أصدقاء بولانو، ألا وهو ماريو سانتياجو، فيما تستند شخصية بيلانو إلى ... بولانو.

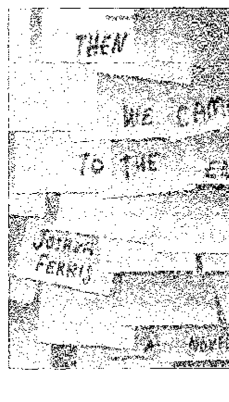
إنها رواية لا تتمحور سوى حول الشعر والشعراء، أحدهم ما هو إلا نسخة متوارية من المؤلف ذاته: كان من الممكن أن تنزلق تلك الرواية بسهولة لتصير نافذة متكلفة تطل على نرجسية لعوب ومغامرات «أدبية» تستعصي على الاحتمال! بيد أن بولانو ينجو من الخطر ليسرع بعيداً عنه في طرب. يستمتع القارئ أيما استمتاع بتلك الرواية (وإن تفيض في النهاية بمشاعر الفجيعة) لأن بولانو على الرغم من كل ألاعيبه يتمتع بحساسية دنيوية لا تعدم الواقعية. تتراءى أجواؤه في خيالاتها راسخة الأقدام إلا أن نبرته مبتهجة عامية لا تغرق في المصطلحات الأدبية على ما في ذلك من عظيم الدهشة، وهنا نستحضر رواية أندريه جيد André Gide «المزيفون» أو بالأحرى أحد أعمال ستيندال Stendhal الذي امتهنت شخصياته مهنة الكتابة (كثيراً ما يستشهد بولانو بستيندال). إنه يضع أعيننا هناك، في ميكسيكو سيتي، ويذكرنا بالإثارة والملل، الادعاء الأدبي والجهل، الطموح الشهواني والقلق اللازم لكاتب شاب أو قارئ يرافق أصدقاء يتسلحون بنفس الأفكار والاهتمامات. بوسع كاتب المفكرات اليافع أن يخط أحداثاً قد تجعل القارئ - على الأقل - يجفل في تسليم موجع: «تتوالى الكآبة طيلة النهار غير أني أكتب وأقرأ شأني شأن المحرك البخاري» أو: «ثم أطالع ويليام بوروز حتى بزوغ الفجر» أو: «لم يقع شيء اليوم. ولو حدث وطرأ شيء، أفضل ألا أنبس عنه بكلمة لأني لم أفهمه». وبكل فخر وعبثية صنف واحد من أصدقائه - شاعر شاذ جنسياً - صنوف الأدب إلى: المستقيم جنسياً والشاذ جنسياً والثنائي الجنس: «الروايات بوجه عام مستقيمة جنسياً بينما الشعر شاذ تمام الشذوذ: أخال أن القصص القصيرة ثنائية الجنس على الرغم من أنه لم يصرح بذلك!» أعلن نفس الشاعر أن الشعر يكفيه في الوقت الحالي «وإن من المحتوم أن أساق عاجلاً أو آجلاً إلى سوقية كتابة القصص».

نتوغل في الرواية مسافة ١٢٠ صفحة ثم ما نرى إلا وصيغة الكتاب تتبدل. إذ تصور ٤٠٠ صفحة تالية حوارات على لسان الراوي تضم عدداً لا حصر له من شهود ليما وبيلانو وأصدقائهما وأحبائهما ومعارفهما وأعدائهما. إنهم أناس تقاطعت حيواتهم، وإن على نحو وجيز، مع «الواقعيين» منذ عام ١٩٧٦ وحتى عام ١٩٩٦. وكأن الروائي تناول تسجيلاً وطاف به عبر أنحاء العالم، من مكسيكو سيتي إلى سان دييجو وبرشلونة وتل أبيب. طاف وقلبه تراوده اللهفة على اكتشاف ما جرى لشاعرين شابين يرين عليهما التفاؤل وإن شاب مصيرهما الآن الهلاك. إلى أين ذهبا بعد صحراء سونورا؟ ماذا امتهنا؟ ماذا كتبا؟ ماذا حل بكل ذلك الطموح؟ يبدأ الظلام يخيم على الرواية الصفحة تلو الأخرى. جاهر محرر التقى بليما وبيلانو قبيل توجههما إلى الصحراء بأنهما «كانا حاضرين وغائبين في نفس الوقت»، فتقلد الرواية بأسلوب دقيق الحضور الحاد ثم الغياب القاطع.

ثمة صديق لبوليسيز ليما يفضي بأن أهمية حياتي الشاعرين لا تتصل بحال بالواقعية العميقة: «إنها ترتبط بالحياة، بما نفقده دون أن نعي وما نقدر على استرجاعه». يواصل قائلاً إن ما فقدناه يمكن استعادته، «بمقدورنا استرجاعه دون نقصان». هل نستطيع؟ تمضي عدة دقائق عقب إلقاء تلك الحكمة ثم يفارق هذا الرجل الحياة بفعل حادثة سيارة. حوت نهاية الرواية مقابلة مع أكاديمي مكسيكي باح بأن أحداً لم يعد يتذكر الواقعيين. فالكثير منهم موتى. ينهي إلينا بأن ليما يعيش في ميكسيكو سيتي. «أما أرتورو بيلانو فلا أفقه عنه شيئاً». هكذا تختم الرواية أخيراً نبضاتها العابثة ما بعد الحداثية. إن حياة أرتورو بيلانو - ذات روبرتو بولانو الثانية - تظلل حياة بولانو (حارس ليلي وغاسل صحون، حياة في باريس وبرشلونة... إلخ). يختفي أرتورو بيلانو من القصة كي يعاود بالتأكيد الظهور بوصفه رجلاً على استعداد لأن «يساق إلى سوقية كتابة القصص»، رجلاً كتب كالمنتصر هذه الرواية الرائعة الحزينة. كأنه بالفعل حاضر وغائب في نفس الوقت. ※

اكتئاب المهن المكتبية

جيمز بونيوزيك



THEN WE CAME TO THE END
(ثم بلغنا النهاية)
Joshua Ferris
Little, Brown & Company, 2006,
387 pp., $23.99

إنه لمؤلف شجاع من يطمر أسباب كتابة روايته في غضون الرواية نفسها. بعد ٧٠ صفحة من رواية جوشوا فيريس الأولى - التي تدور بأحد المكاتب المهنية - نلتقي بهانك نيرى. يعمل نيرى كاتب إعلانات فيما يخطط أولى رواياته التي تجرى بأحد المكاتب المهنية. أصاب فيريس فاضفى شيئاً من السخافة على مشروع نيرى الجاد. يصف نيرى كتابه بأنه «صغير الحجم غاضب اللهجة». يقترح زملاؤه بلباقة موضوعات تفوق موضوعه تشويقاً، فيرفضها. «إن قضاءنا معظم حياتنا في العمل مسألة مثيرة لاهتمامي». أفضى إليهم، «كتاب صغير الحجم غاضب اللهجة عن العمل»، يتفكر زملاؤه، «سوف يتمتع القراء على الشاطئ».

لكن يتضح في النهاية أن روايه «ثم بلغنا النهاية» ليست صغيرة ولا غاضبة بل منفتحة تحفل بالمرح ولا تنقصها الفكاهة اللاذعة. تقع أحداثها في بدايه القرن الحالي عندما كان انفجار شركات الإنترنت يحصد ضحاياه في أروقة تصطف بها أنوار الفلورسنت بشركات شيكاغو الإعلانية. يهرب العملاء عربا وتنضب المشاريع وتتخلص الإدارة من الموارد البشرية من قائمة الاتحادات المشتركة. يأتى تسريح الموظفين على مراحل لكن بدون إنذار، وتماشياً مع التطبيق القانوني الوحشي الفاضح يرحل الموظفون بدون أية تبريرات تجاهر بأسباب تسريحهم.

وفي وسط هذه الأزمة تتلقى الوكالة مهمة خيرية من عميل يلفه الغموض: جماعة للتوعية بمرض سرطان الثدى لم يجدوا لها أثراً على الإنترنت أو أي مكان آخر. طلبت طلباً صعباً كل الصعوبة: تروم الجماعة إعلاناً سوف يحمل مكابدات مرضى سرطان الثدي على الضحك على مرضهن. (تستحيل المهمة مشحونة بالتوتر والشكوك عندما تسرى إشاعة بأن لين ميسون: مشرفة الموظفين الرئيسية متحفظة الطباع، ابتليت بسرطان الثدى.) ترتفع شكاوى الموظفين من الحملة الإعلانية وكذا سخرياتهم بيد أنهم يعملون بهمم يائسة على أمل أن يصير أحدهم هو القائم على إتمامها بسهولة ويسر. «ندت عنا جميعاً نفس الدعوة: يا رب أكون أنا».

أما عن كلمة «عنا»: فإن فيريس يكتب الرواية على لسان عدة أشخاص؛ إذ يشكل موظفو الوكالة المضطربون الثرثارون القلقون راوياً واحداً جمعياً. كثيراً ما جعل ذلك الأسلوب الغريب من رواية جيفرى يوجينايدس Jeffrey Eugenides «عمليات انتحار عذرية» مخدرة للحواس بعيدة عن الأذهان.

غير أن الصوت الجمعي يتماشى تماماً مع موظفي الشركات الكبرى: فهم يتدربون على العمل في وحدات متعاونة ويشحذون تفكيرهم الجماعي في ملايين الاجتماعات. إن تأثير ذلك الأسلوب يبث الرجفة في القلوب عندما يبدأ تسريح العاملين وتضعف بحق سلطة الراوي الجمعي.

يدس فيريس أيضاً عدداً لا بأس به من الرواة المنفردين. وهنا يلفى القارئ أن الرواية منقولة بالأساس من خلال قصص متفرقة عشوائية - فرجال فيريس العاملين بالإعلانات لا يمسكون عن الكلام بدءاً من حديثهم عن الأعصاب والضجر حتى التدريبات المهنية - وعن طريقهم ننصرف «نحن» إلى الأصوات المفردة. ها هي كارين وو، مديرة القسم الفني، مصدر القيل والقال بالمكتب وينبوع الذكاء الخادع. تعمل في حملة لترويج ماركة كعك تراعي المقتضيات الصحية، لذا تردف متباهية أن الكعك لا يحتوى على مادة «حمض اللاستيك» مادة خطرة لا وجود لها على الإطلاق. («كنت أحاول أن أبدع وأبتكر، فسرت تصرفها») وها هو كريس يوب، كاتب إعلانات عجوز لا يسلم من اليأس. يتسلل إلى المكتب ليشتغل في مشروع سرطان الثدى حتى بعد فصله من وظيفته. وجوى يوب: البديل للين ميسون. «نحن» نبغضه لما يبديه من تباعد دال على كراهيته للمجتمع. وهناك العاجزة العزباء الحامل كاثوليكية الديانة: حبيبها المتزوج يدعو الرب أن تجهض نفسها ويرنو إليها بعين الاحتقار؛ والأم الثكلى يخالجها الأسى كل يوم لمرأى إعلان عن «فتاة مفقودة» يشير إلى ابنتها؛ لم يمر به صاحب لوحة الإعلانات حتى يزيله عقب شهور من العثور على الفتاة الصغيرة مقتولة.

وفوق كل شيء، يتمتع فيريس بحاسة سادسة تجاه جنون الارتياب. يتلهف مهنيو المعلومات إلى المعلومات، وحينما يحرمون منها - من سيرحل، كم عددهم وما هو السبب - ينسجون نظريات وهمية ويتخذون أوثاناً لا تفتقر إلى الغرابة. إذ يكتشف الموظفون أن منسق المكتب يعرف حق المعرفة أي قطع الأثاث تنتمي إلى أي المكاتب. فيدب الخوف في قلوبهم أن تتسبب كراسيهم في طردهم - تلك التي التقطوها خلسة من أقران مفصولين ذوي أثاث أفضل في سلسلة معقدة من التغييرات حتى إن أحداً لم يعد يتذكر مصادر الكراسي. يغدو هنا الكرسي رمزاً لكل ما هو مكروه في العمل ومرغوب فيه. إنه سجن ورمز للمكانة، تذكرة بأن «مكاتبهم» ليست بحق ملكهم، وسيلة لممارسة طغيان ثانوي، مكافأة، عرش، حافظ للحياة.

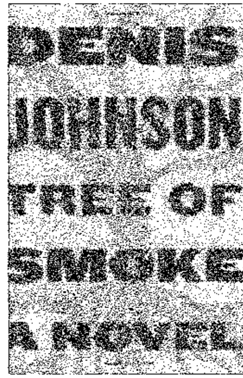
لا تحمل الخطوط الأساسية لرواية «ثم بلغنا النهاية» كثيراً من المفاجآت. فهي عذر لاختراق ما ينطوي عليه اليوم من أفراح حقيقية، أفراح تتسرب من ملاحظات فيريس النافهة: جاذبية الفوز بالكعك المجاني، حزن لا متناه يساور بيضة مقلية يأكلها أحدهم على مكتبه وهنالك فقدان ذاكرة وقائي يباعد ما بين وقت تقول به الساعة ومجموعة ساعات العمل التي نطلق عليها «حياتنا»: «لا يسعنا أغلب الوقت أن نتذكر ما وقع منذ ثلاث ساعات. إن ذاكرتنا في ذلك المكان لا تختلف عن ذاكرة سمكة ذهبية، سمكة ذهبية تقطع رحلتها كل ليلة داخل كيس صغير شفاف من الماء ثم تعود إلى الحوض في الصباح».

ومع ذلك لن تعثر برواية فيريس على ما تتوقعه من هجاء. فبدءاً من رواية «الرجل ذو البدلة الصوفية الرمادية» إلى الرسوم الهزلية «ديلبيرت» قام الموقف الأساسي للقصة الأمريكية عن عالم الأعمال مقام السخرية ولا سيما هدف في مثل سهولة عالم الإعلانات. إن المهن المكتبية مؤذية لا تهدف إلا لقتل الروح. ولا مراء أن فيريس يكتنف النقاب عن وجهة النظر تلك في تصويره لتوم موتا. موظف مكتبي مطلق تنطق نفسه بالمرارة. يولع بالأسلحة وإيمرسون ويبعث عدة رسائل إلكترونية بليغة حول كيفية تعارض حياة المكتب التي تتطلب جلوساً طويلاً مع طبيعة البشر. (وهنا مجدداً، يتحلى فيريس بذكاء كاف فيطبع لومه وتقريعه المقنع على لسان شخصية يركبها جنون محفوف بالخطر).

إنها مشاعر سخيفة لا حد لسخافتها. تتعارض مع كل الحقائق البديهية المحرضة على الاستمتاع باليوم الحاضر - من مات متمنياً العمل ساعات أطول؟ تلك فكرة مفهومة لكل الأذهان، يتلقاها العقل في صور معبرة جميلة. لكن حتى بعد متابعة المسيرة وإعادة بناء حيواتهم، يشتاق الموظفون الخارجون من شركة فيريس المجردة من الاسم إليها، إلى الكدح والحنق وساعات أمضوها مع «هذا الشخص أو ذاك الذي يبث في ملائكة السماء غضباً وإزعاجاً وإهانة». وعندما يبلغ القارئ نهاية هذا المشهد وتلك الرواية الممتعة السوداء، سوف يتمكن من التعاطف مع شخصياتها. البادي أن رواية «ثم بلغنا النهاية» سوف تغدو رواية ممتعة تليق بالشاطئ، وبخاصة لو كنت لا تزال تحتفظ بوظيفة تحصل منها على إجازة.

الكاشف

جيم لويس



TREE OF SMOKE
(شجرة من الدخان)
Denis Johnson
Farrar, Straus & Giroux, 2006, 614 pp., $27.00

** صباح الخير، استمع إليَّ من فضلك: دينيس جونسون فنان أمريكي حقيقي، وروايته «شجرة من الدخان» كتاب بحق هائل، متعة ترين عليها الغرابة، كتاب طويل للغاية وإن تتسارع مجرياته بسرعة هائلة، فهو أشبه بركوبة ملاه لا تنفك عن الدوران، يبدأ بنبرة حزينة ليتطور إلى حزن ما بعده حزن، يدور بلا توقع في كل اتجاه ثم يتمايل بغتة ليسقط في النهاية سقطة تنزل بمعدلك اضطرابا. تجابه الرواية القارئ بدرع الروايات العظمى وعتادها: موضوع تاريخي كبير (فيتنام) ومؤسسة معرفية كما الأسطورة (الاستخبارات العسكرية) وفترة زمنية طويلة (١٩٦٣-٧٠، مع مقطع ختامي يدور في ١٩٨٣) وطول يتعسر على العقل (٦١٤ صفحة). ربما أخمدت كل هذه العوامل رغبة القارئ لو لم تكن الرواية بالفعل عظيمة ولو لم تكن «ابن يسوع» (١٩٩٢)، تلك المجموعة القصصية العجيبة الباعثة على الإدمان، هي كتاب جونسون الأخير. إن «شجرة من الدخان» لكتاب مفعم بالعاطفة بل والقدسية (أهداه مؤلفه إلى «مرة أخرى إلى ق. ع». أراهن بعمري أنه إهداء إلى «العوى العظمى»). ينبغي لهذا الكتاب أن يضمن مكانة جونسون ككاشف لهذا القرن الجديد توقيع أعلنه بثقة إنما بعزوف، وبشيء من الإحباط والفزع.

أعلنه بعزوف لأن جونسون يتراءى دوما شخصية محيرة، هو واحد من آخر الأساتذة الهامشيين. لا ينعزل عن العالم لكنه أيضاً لا يواجهه محملاً بالغرور. لم يسبق لي قط أن قرأت له حواراً (رغم أني لم أنقب ملياً) أو أبصرت صورة له ليست على غلاف أحد كتبه. والأهم أن الكتب نفسها ست روايات ومجموعة قصصية وأخرى مسرحية وثلاثة مجلدات ومجموعة مقالات صحفية - غالباً ما تبرز على نحو عفوي من شقوق سرية تتقاطع مع الحياة والثقافة الأمريكية: زنزانات السجون، الأحياء الرديئة، مواقف الحافلات، منازل خشبية رخيصة تقبع في الحقول وراء آخر عامود كهربائي. تحفل كتاباته بأرواح محرومة في مواقف رهيبة، رحالة سيئي الحظ في سبيلهم إلى كارثة تالية. لكن على العكس من أغلب كتب المنبوذين، نجدها أصيلة مبتكرة (يا لغرابة استخدام تلك الكلمة في هذه الأيام لكنها تنطبق عليها). ليست مبتكرة فحسب بل وجميلة كما النشوة - تستلب الألباب وتوجع القلوب: في مثل بؤس ديستوفسكي وتوقد عاطفة إدجار آلان بو ورعبه.

يشوب موقف جونسون إذن مثالية كاتب اليوم: احترام جم من زملائه وأقرانه، دعم طفيف من المؤسسات، مجموعة أتباع ضخمة خلفته مع ذلك خارج الأضواء على نحو غامض. سوف نلقى رواية «شجرة من الدخان» كتاباً لا يستهان به، لا يقل عن التحفة الأدبية: فهو نتاج كاتب استثنائي في أوج مسيرته المهنية. لكنني لا أملك إلا أن أتمنى ألا يمد الكتاب يد التغيير إلى منزلته. فلا حاجة لنا إلى المزيد من الروائيين-المؤدين أو الروائيين-الخبراء أو الروائيين-النرجسيين بيد أننا في حاجة ماسة إلى روائيين بإمكانهم الإبداع على هذا المستوى.

أما عن هذه الرواية تحديداً، فهي مغايرة لما قد تتوقعه بديهة القارئ. إذ تحكي مثلاً عن حرب فيتنام، ومن كان ليظن أننا في حاجة إلى كتاب آخر عن ذلك الإخفاق المروع؟ كما أن أحد أبطالها هو بيل هيوستون، رجل تصدر رواية جونسون الأولى «ملائكة» (١٩٨٣) وانتهى نهاية بائسة. إن قراءة تاريخه الأول في البحرية تجربة مزعجة لمن قرأ الكتاب الأول وإن كانت لا تعني شيئاً لمن لم يقرءوه.

الأغرب من ذلك أن القارئ لا يشعر بأن «شجرة من الدخان» رواية من روايات دينيس جونسون، ليس في مستهلها على الأقل. يمتلك جونسون ولعاً بالصيغ النبوئية وغالباً ما يطرح أساليبه البلاغية في إطار لا يحظى به معظم الكتاب المعاصرين. إنه أسلوبه الطبيعي في الخطاب غير أنه أحياناً ما يتراءى منهكاً للأعصاب. تبدأ إحدى رواياته السابقة «ميت بالفعل» (١٩٩٧) بنبرة جامحة ثم يختتمها بعد ٤٣٥ صفحة في حال من التشوش. تتلون «شجرة من الدخان» بالمزيد من المكر: إذ تبدأ كأي رواية ممتازة كتبها مؤلف آخر وبحلول الوقت الذي تدرك فيه ما تتطلبه من صبر وجهد، يكون الأوان قد فات.

تبدأ مثل تلك الجمل في المرور بعجلة أمام عيني القارئ: «ليس لديها في هذا العالم سوى يديها وحبها المجنون ليسوع، يسوع الذي من جانبه لم يسمع عنها قط من قبل». يا لها من جمل! إلا أن صفحات الكتاب تتوالى. يظهر جنديان نال منهما السكر، أحدهما مبتور القدم يتكلم طويلاً بلا ثمرة ليعلن العاجز أن «الألم حل بقدمي المختفية». بعدئذ ينوح الجندي الآخر «مثله مثل كلب ينبح». تمتد السطور ككرات البلياردو فيما ترافقها لغة إنجليزية لا تنقصها الغرابة. تدور السطور وتنزلق بعد الفاصلة الأخيرة بالضبط ثم تهبط في جيوب طاولة البلياردو ليعلو صوتها المفاجئ الحاد.

لكنني لم أنبتك بعد بقصة الرواية. تدور في الأساس حول رجل يدعى سكيب ساندس، مبتدئ في وكالة الاستخبارات المركزية. يبدأ الكتاب وهو شاب عام ١٩٦٥ ليقطع صفحات الكتاب تقريباً حتى النهاية لكن تقبل إليه سنة ١٩٨٣ وهو عجوز عتيق: يبدأ عمه عملية محدودة من عملياته ثم يفارق الحياة بطريقة عبثية عبثاً لم يصدق معه الناس أنه مات بحق: وهناك الأخوان هيوستون، بيل وجيمز، اللذان يخدمان بلادهما ثم يطوفان طواف الغضب والحرية رجوعاً إلى ولاية أريزونا، إلى الفراغ والوحشة: وثمة عسكريان من فيتنام، واحد من الجنوب والآخر من الشمال، يتصرف الاثنان بمسحة من اللاعقلانية: وضابط استخبارات اسمه ستورم، يتبدى بالكتاب وكأنه آخر رجل في سباق للجري، يتم السباق عند خط النهاية ليقابل امرأة كندية تدعى كاثي. تنتمي كاثي إلى مذهب يقول بأن مجيء المسيح ثانية ونهاية العالم قريبان. وهنا تحوي كاثي القصة بأكملها وينتهي بها الأمر إلى تحمل عبء أكثرية مآسي الكتاب والحصول - كما تستحق - على مساحة من النحيب في آخر صفحاته.

يلخص جونسون العديد من موضوعات كتبه السابقة: أمريكي ينطلق نحو العالم وعالم يلوح مبهماً عويصاً في أعين الأمريكي: الرقة كمشاعر غير متوقعة والفظاظة كعاطفة طاغية لا خلاص منها. لقد أنفقت ساعات طوالاً في قراءة «شجرة من الدخان» وبينما اقتربت من النهاية، ألفيت نفسي متمنيا ألا تنتهي. هناك حفنة من الكُتّاب يستطيعون اليوم توصيل ذلك الأسى الذي ذكرته من قبل، وأدبنا فاتر ممل من دونهم. لا يخلو كتاب من كشف ملهم غير أن الرؤى النبوئية تتعذر على الوجود. إن مشاعر الندم الضئيلة بالفصول الأخيرة شائعة كل الشيوع حتى إنها تتمنع على ملاحظة القارئ: لكن كم كتاب يسعه بالفعل توصيل معنى أن تكون ضائعاً وحيداً كما يفعل هذا الكتاب. فضلاً عن توصيل معنى أن يجدك أحدهم؟ **

كتب 2007

قائمة «لير»

LIRE

١ - أفضل كتاب لهذا العام: «المفقودون»

(Les Disparus)

للكاتب الأمريكي دانييل مندلسون.

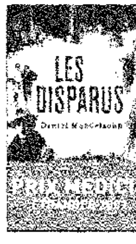
(Daniel Mendelsohn)

ترجمة من الإنجليزية إلى الفرنسية بيار جوجليلمينا

العنوان الأصلي:

The Lost: A Search for Six of Six Million

دار نشر فلاماريون، ٦٥٠ صفحة، ٢٤ يورو.



ترى أي مصير ذلك الذي آل إليه «شميال» و«إستر» وبناتهما الأربع، بعد غزو الألمان لبولندا في سبتمبر ١٩٣٩؟ لا يعرف الكاتب من تلك القصة سوى النهاية التي تكرر ذكرها على سمعه: «قتلهم النازيون». ولكن متى وفي أية ظروف؟ وهل كانوا ضحية حملة داهمتهم أم وشاية تقصدتهم؟ وهل كان ذلك ثمرة لحالة معاداة السامية التي كانت تملأ الأجواء؟ أم ثمرة الحقد أم الجشع؟ وكيف كان رد فعل الإخوة والأخوات في أمريكا وفي فلسطين على نداءات الاستغاثة التي أطلقها صوبهم أخوهم «شميال»؟ ومن أين أتى ذلك الشعور المبهم بالذنب الذي يملأ نفوس الأحياء، أو ذلك الندم الذي ظل يساورهم لإخفاقهم في استنقاذ أخيهم الأكبر؟ يروي كاتب «المفقودين» خبايا وخفايا ذلك التقصي على طريقة الرسام الذي يظهر ضربات فرشاته فرادى، من شائعة شاردة، إلى اقتفاء آثار كاذبة، إلى إساءة فهم أو تكذيب حدس، وفي الوقت ذاته، ينغلق الكاتب على نفسه، فيعترف بتلك العلاقة السادية التي فرضها في طفولته على أحد إخوته، فيزيد بفعل تلك النبرة الذاتية الصادقة من مصداقية الشهود الأحياء الذين استجوبهم (السيدة «بيجلي» بنيو يورك، وجاك جرين أو ميج جروسبارد في سيدني، وكلارا فرايليش في ستوكهولم). ويردف مندلسون إلى سرديته قراءة جديدة لمقاطع كبيرة من التوراة، وهو الأمر الذي يتيح له فرصة غير عادية للتأمل والتفكر في بواعث الغيرة والقتل، وتجليات الجبن أو الشجاعة. وهنا، ثمة ثلاث قناعات راسخات: أولاها أنه يجدر البحث عن القصة الأخرى التي تتخفى وراءها الحكاية التي يقصها الكاتب، وثانيها أن العنف لا يتجلى فقط في مواجهة الغريب، وإنما قد يبيته القريب للقريب، وأخيرا، إن أحدا لا يسعه أن يجزم بأنه كان سيختار جانب الخير أو البطولة لو عاد به الزمان.

وينتمي كتاب «المفقودين» إلى عائلة الكتب التي تترك في النفس أثرا لا يمحى. ففي البداية، يلوح مندلسون بالليلة التي ابتلعت أولئك الستة المفقودين من على مسافة قاصية، لكن تلك المسافة تقصر شيئا فشيئا من صفحة إلى أخرى، حتى أننا كلما اقتربنا من نقطة النهاية، راحت تلك الليلة تقتحمنا وتغزونا ببرودتها وقدرتها على إصابة النظار بالدوار. فهل كان القص يعمق الانتظار؟ فالنهاية أشبه ما تكون بالمواجهة. وعلى كل حال، لا تقتصر جدارة دانييل مندلسون في هذا الكتاب على نجاحه في حثنا على مساءلة التوراة واستدعاء ارث بروست، ومكاشفة إخوتنا من البشر.

٢ - أفضل رواية فرنسية: «في مقهى الصبا الضائع»

(Dans le café de la jeunesse perdue)

للروائي باتريك موديانو

Patrick Modiano

دار نشر جاليمار، ١٥٠ صفحة، ١٥ يورو.



يعد باتريك موديانو، الذي أتم الثانية والستين، أكبر روائي فرنسي معاصر، تلك حقيقة دامغة، كما تعد روايته الجديدة «في مقهى الصبا الضائع» دليل تلك المكانة وبرهانها، حتى وإن كان الأمر يتعلق بكتاب رصين حزين، تعزف نهايته لحن أسى وكآبة يجود بنا ذلك المقهى الباريسي القائم في حي الأوديون إلى الستينيات من القرن الماضي، ومن بين رواده، ثمة امرأة شابة تدعى لوكي، في الثانية والعشرين من عمرها، جميلة هي، وغامضة، قد تطبعت بطبع من اليقظة والاحتراس تلك هي الفاتنة. أما المغمون، فهو طالب في المدرسة العسكرية، لم يعد ينشغله سوى ترقب مجيئها. أما كيسلي، فهو ينتحل صفة ناقد فني، بينما هو في الواقع مخبر سري خاص يعمل لحساب زوج لوكي الذي هجرته فجأة، وأما رولان، الكاتب المبتدئ، فهو الرجل الذي سيصبح عشيق الفاتنة الشابة. وهكذا تمضي تلك التوليفة السردية المكونة من أربعة أصوات. هذا ولا تعد رواية «في مقهى الصبا الضائع» مجرد تعبير آخر عن وساوس باتريك موديانو وهواجسه، فهذه رواية جذابة، تدور أحداثها في باريس ساحرة، حيث تتجاوب أصداء فكرة الفقد، هنا حجر كريم جديد يضاف إلى ذلك البناء الذي لا يضاهى، والذي كان قد بدأه موديانو عام ١٩٦٨ برواية «ميدان ليتوال»، والذي ما فتئ يقويه ويدعمه بخصيب الإلهام وعذب الأسلوب، وتلك هي شيم الكتاب الكبار.

المرشحون الآخرون لهذه الجائزة:

- رواية «مصاص دماء روبران» للكاتب جاك شيسكس، دار نشر جراسيه.
- رواية «في حمى لا شيء» للكاتبة أوليفييه آدم، دار نشر لوليفييه.

٣ - أفضل رواية أجنبية: «رجل»

(Un homme)

للروائي الأمريكي فيليب رُث

Philip Roth

ترجمتها من الإنجليزية إلى الفرنسية جوزيه كامون

العنوان الأصلي للرواية:

Everyman

دار نشر جاليمار، ١٥٤ صفحة، ١٦،٩٠ يورو.



تعد كل رواية جديدة لفيليب رُث بمثابة إنجاز حقيقي، وفي رواية «رجل» يوقع عملاق الأدب الأمريكي المهيب على واحد من أكثر كتبه قسوة ويأسا لما للموت فيه من حضور طاغ. فبطل الرواية رجل فقد كل شيء حتى اسمه، فهو ليس إلا ظل رجل، تحمل على مدار سنوات حياته ضربات الدهر، إذ تبين له منذ البداية أنه سيكون في خطر داهم دائم، بسبب الأمراض العديدة التي افترست جسده وزادته وهنا يوما بعد يوم.

ها نحن نراه يواجه العذاب بصلابة ورباطة جأش، ويعبر حياة تعسة تخللتها ثلاث زيجات فاشلات، ليغرق من ثم في عجز أسلمته إليه الشيخوخة، وأخيرا، سيرفض هذا الغريق الأبدي غوث الدين، إلى أن يسلم الروح على سرير بمستشفى.. هكذا، تبدو رواية «رجل» كموجز رهيب للتحلل، وهي في ذات الوقت لحن جنائزي وتأمل شديد القسوة في ضعف الإنسان وفي فنائه. أما أسلوب الكتابة فكأنما هو نتاج مبضع جراح، يثير النفس بما فيه من تجرد زاهد ومن تقشف مأساوي.

المرشحون الآخرون في هذه الفئة:

- رواية «العيش في ترصد» للإنجليزي ويليام بويد، دار نشر «سوي».
- رواية «امرأة الخامس» للأمريكي دوجلاس كنيدي، دار نشر «بلفون».

2007



١ - ... لرواية أجنبية: «الحياة السرية لـ ... روبرت بندلتون» للروائي الأمريكي مايكل كولينز
(La vie secrète de E. Robert Pendleton)
ترجمها من الإنجليزية إلى الفرنسية جان جيلوتو.
دار نشر كريستيان بورجوا، ٥٢٨ صفحة، ٢٦ يورو.

يعمل بندلتون أستاذا للكتابة الإبداعية في جامعة متواضعة، وكان قد نشر، منذ فترة طويلة، رواية حققت نجاحا كبيرا، ولكن سرعان ما طواها النسيان، وتوارى اسم كاتبها بعد بارق لمعان. غير أنه عندما يهبط على الجامعة منافس يصيب النجاحات الأدبية الواحد تلو الآخر، تستثار حفيظة بندلتون حتى أنه يقرر الانتحار.

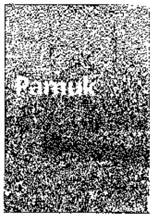
لكنه هنا أيضا يخفق.. ويباعث من شفقة، تقرر إحدى طالباته الجميلة أدي، أن تهتم بشئونه، فتكتشف بين أوراقه روايته القديمة، فلما يتراءى لها ما يحمله النص من مزايا أدبية، تقرر الفتاة الشابة السعي لإعادة نشر الرواية، لكنها تلحظ أن القصة، التي تسرد أحداثها جريمة قتل بشعة تتعرض لها صبية في الثالثة عشرة من العمر، تكاد تتماثل مع تفاصيل حادثة مأساوية شهيرة..

بعد النجاح الكبير لروايتيه الرائعتين «شبكة الزمرد» و«حراس الحقيقة» ينجح مايكل كولينز هنا في المزج بين يوميات الدراسة الجامعية، وعناصر الرواية البوليسية، وتأمل دقائق الإبداع الأدبي.

المرشحون لهذه الفئة:

- رواية «عبور فينوس» للأمريكية شيرلي هازارد، دار نشر جاليمار.
- رواية «الى .. إلى الأبد» للأمريكية لورا كازيتشكي، دار نشر بورجوا.

❊



٢ - ... «إسطنبول»
(Istanbul)
لأورهان باموق (Orhan Pamuk)
ترجمها من التركية إلى الفرنسية سافاس دوميريل وفاليري جي اكسوا وجان فرانسوا بيروز.
دار نشر جاليمار، ٤٥٠ صفحة، ٢٢ يورو.

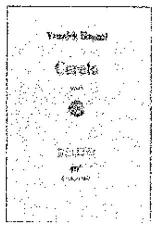
بقلم أديب نوبل ٢٠٠٦، الذي يقطر عذوبة ونوستالجيا، تجمع صفحات الرواية بين الرغبة في تقديم صورة للذات والسعي إلى إسداء التكريم لاستانبول، فعلى مدار الذكريات، يعيد باموق رسم أعوامه العشرين الأولى على خلفية مدينته الحبيبة، التي ولد فيها عام ١٩٥٢.. مدينته التي استعان بها لتكون مرآته، وملاذه، وملهمته، وهو يحكي هنا كيف استمرت تلك المدينة التي كانت فيما مضى بيزنطة القديمة في إمداده بالمادة التي غذت كل أعماله.

كل شيء موجود هنا: انعكاسات الأضواء على قرن الذهب، ووشوشات البوسفور، وغمغمات الأصوات في العمارة التي كبر فيها باموق، واكتشافاته في المدرسة، ومغامراته الليلية، وقصة حبه الأول، ومشكلاته مع الدين في ظل أسرة علمانية ومتغربة ولا تصلي.. وما بين استطراد وآخر، يحاول باموق الكشف عن روح استانبول الموغلة في حزنها السرمدي، لكن هذا الكتاب لا يعد محض دعوة للسفر، بل هو المفتاح الأمثل للدخول إلى بيت آل باموق.

المرشحون الآخرون في هذه الفئة:

- «عليك الرحيل مع الفجر» للنيجيري وول سوينكا، عن دار نشر أكت سود.
- «تقشير البصل» للألماني جونتر جراس.

❊



٣ - ... لرواية فرنسية: ... روايتين:
❊ رواية «دائرة»
(Cercle)
ليانيك اني، دار نشر جاليمار، ٤٩٤ صفحة، ٢١ يورو.
❊ ورواية «نو وأنا»
(No et moi)
لدولفين دو فيجان، دار جورجيه كورني لانيس، ٢٨٨ صفحة، ١٥ يورو.

بأسلوبها البديع الذي تتخلله روح شاعرية فريدة، تبرز روايه «دائرة» ليانيك اني كواحدة من أكثر الروايات الفرنسية طموحا في هذا العام، فكل شيء ينقلب رأسا على عقب في الساعة الثامنة وسبع دقائق بالنسبة لجان ديشل الراوي، الذي يحسم أمره ويقرر «العودة إلى الحياة» وعلى الفور يترك البطل عمله، ويهجر حياته المعتادة، ليتجول في باريس على غير هدى، تتدافع نحوه الوجوه والتجارب، وعلى الطريق ثمة امرأة مثيرة في انتظاره: هي الراقصة اناليز.. وتتواصل فصول الرواية، محمومة العواطف، متزاحمة الرغبات، وكأنها أوديسا عصرية تقدم المفتاح السحري لتجديد الحياة، أوديسا مليئة بأسباب المتعة الأدبية والحميمة.

أما رواية «نو وأنا» فهي الرواية الرابعة لكاتبتها دولفين دو فيجان، التي تكشف فيها عن مبلغ أصالة موهبتها، بالرغم من كونها قد اختارت موضوعا صعبا، إذ تتناول علاقة الصداقة العجيبة التي تربط بين «لو» البالغة من العمر ثلاثة عشر عاما والمتمتعة بذكاء خارق والابنة لأم مصابة بالاكتئاب ولأب فاقد لزمام الأمور، وبين «نو» ذات الأعوام الثمانية عشر، التي تعيش بلا مأوى، وتبيت ليلتها على رصيف محطة اوسترليتز. لكن الكاتبة قد عثرت على النبرة المناسبة للقص، وابتعدت عن كل الكليشيهات الجاهزة في هذا السياق، كما تعد روايتها بمثابة مرآة أمينة تعكس ملامح عصرنا، وما فيه من أكثر أصداء الحياة غورا.

المرشحون الآخرون لهذه الفئة:

- رواية «سندريلا» لإيريك رينا رد، دار نشر ستوك.

❊



٤ - ... رواية ... «الأشياء الجميلة التي تحملها السماء»
(Les belles choses que porte le ciel)
للكاتب الامريكي دينار منجستو
(Dinaw Mengestu)
ترجمها من الإنجليزية إلى الفرنسية أن ويك.
عن دار نشر ألبان ميشال، ٣٠٤ صفحات، ٢٠,١٥ يورو.

بعد أن أتم السادسة عشرة من عمره، وبعد أن تم إعدام والده، يهرب ستيفانوس من إثيوبيا ليستقر في الولايات المتحدة الأمريكية، وهناك، بعد أن أتم دراسة الهندسة، ينتهي به المطاف إلى افتتاح محل بقالة صغير في حي فقير في مجاهل واشنطن. ويخرج ستيفانوس من عزلته عندما يلتقي في إحدى الأمسيات بصديقين قديمين من أصول أفريقية، كان قد تعرف عليهما عندما كان يشغل وظيفة عامل حقائب في أحد الفنادق الكبرى، الصديقان هما «كن» الكيني الذي يؤمن بـ «عظمة الحلم الأمريكي»، و«جو» الكونغولي الذي يفتقر إلى التفاؤل في نظرته إلى المستقبل، وفي يوم من الأيام، تأتي سيدة بيضاء وابنتها الملونة للسكنى إلى جوار ستيفانوس، فتنشأ روابط من الألفة والمودة بين البقال وجارتيه. تلك هي الرواية الأولى لديناو منجستو، الروائي الأمريكي ذو الأصول الحبشية، والبالغ من العمر تسعة وعشرين عاما، الذي ينجح في تقديم عمل مدهش بكل المقاييس، وشخصيات مرسومة بعناية فائقة، وهو إلى ذلك يبرع في تصوير العلاقات بين مختلف الأعراق في أمريكا المعاصرة، تصويرا لا يعرف أدوات التجميل ولا يسقط في فخ التبسيط المجحوج، وإن احتفظ بقدرته على إثارة العاطفة وتحريك الشجن، لإثارة موضوعات مثل الاندماج في المجتمع الأمريكي وما يتضمنه من مناقشة للعلاقات الطبقية، فهل لنا أن نضيف أن منجستو روائي واعد، مازلنا ننتظر منه الكثير؟

المرشحون في هذه الفئة:

- رواية «فيزياء الكوارث» لماريشا بيسل، عن دار نشر جاليمار.
- رواية «ويسكونسن» لمري ريلندز إيليس، عن دار نشر بوشيه شاتيل.

❊

[illegible]
2007
[illegible]

١ - أفضل سيرة شخصية: «مازاران سيد اللعبة»
(Mazarin, le maître du jeu)
للكاتبة الفرنسية سيمون بيرتيير
Simone Bertière
منشورات لو فالوا، ٦٩٨ صفحة، ٢٥ يورو.



تعتمد كتابة السيرة الشخصية بالأساس على مهارة التنفيذ. فالقارئ يعرف كل شيء، أو هو يتصور أنه يعرف كل شيء، عن الشخصية الشهيرة التي يتم الترجمة لها. فلكي ترتفع كتابة السيرة إلى مصاف الأعمال الإبداعية، عليها أن تمد القارئ بالجديد وبالمدهش. تلك هي المعادلة التي حققتها باقتدار سيمون بيرتيير في ترجمتها لسيرة «مازاران». كان الكاردينال الشهير قد ترك في ذاكرتنا منذ أيام الدراسة صورة صنعها له أعداؤه: صورة الرجل المراوغ الداهية، عديم الاستقامة، وكان قد جمع ثروة طائلة. لكنه - كما يظهر من الكتاب - كان قد جمعها من خلال وسائل مشروعة في ذلك الزمان. كما يذكر لهذا السياسي الإيطالي الجذور أنه قد وضع في خدمة فرنسا طاقة هائلة من الذكاء، الذي أتاح له إنجاز أهم هدفين كان قد رسمهما الكاردينال دو ريشليو: فرض سلطان الدولة على طبقة النبلاء المتمردة من جهة، ومن الأخرى، تثبيط همة الامبراطورية الرومانية المقدسة عن المطالبة بحق الملكية العالمية. وكان مازاران، إلى ذلك، شخصية مؤثرة، يظهر قدرا عاليا من الاهتمام والتفاني في خدمة لويس الرابع عشر ووالدته، قبل تسلم الملك الصبي زمام عرش فرنسا. وبذلك يتبدى مازاران الحقيقي: رجلا ذكيا ووفيا وعطوفا. فياله من اكتشاف مدهش!

المرشحون في هذه الفئة:

- كتاب «ايرجيه» للفرنسي فيليب جودان، دار مولنسار.

✻

٢ - [illegible] «الخلايا العصبية للقراءة»
(Les neurones de la lecture)
للعالم الفرنسي ستانيزلاس ديهين
Stanislas Dehaene
دار نشر أوديل جاكوب، ٤٧٨ صفحة، ٢٩ يورو.



ترى هل يمكن معرفة ما يحدث داخل المخ أثناء تعلم الإنسان القراءة؟ أخيرا أتاحت وسائل علم دراسة الأعصاب تلك المعجزة. وما أعجب ما تم اكتشافه حول تلك العاصفة التي تهب داخل الدماغ عندما تطالع العينان صفحة مليئة بالعبارات المصفوفة. مؤلف الكتاب أستاذ شاب في مجمع فرنسا، اختار في بحثه القيم أن يفسر كيفية دراسته لحالات الأطفال الذين يتعلمون القراءة، كما حالات المرضى العاجزين عن تعلم القراءة، وكذا حالات الأشخاص البالغين المنتمين إلى مجتمعات تفتقر إلى الكتابة. ويشرح المؤلف لنا أن المخ البشري، الذي لم يتطور منذ أزمنة الصيد والالتقاط، لم يكن مهيأ للقراءة، ولكنه قد تكيف بإعادة استخدام بعض الخلايا العصبية التي تساعد الإنسان على تحديد موقعه. ولقد اعتمد إنسان ما قبل العصر الحجري القديم على حفظ ما يتراءى له من علامات بسيطة في الطبيعة، وهي العلامات التي رمزت إليها الأبجديات فيما بعد. هذا وتتماثل آليات التعلم في جميع اللغات، وبغض النظر عن عدد الحروف، وفقا لما جاء في هذا البحث الهام الذي يفند نظريات كثيرة سابقة في هذا المجال العلمي.

المرشحون في هذه الفئة:

- كتاب «مصير الكون» لجان بيار لومينيه، دار نشر فايار.
- كتاب «كان يا ما كان أجدادنا» لريتشارد دوكنز، دار نشر روبير لافون.

✻

٣ - أفضل كتاب في أدب الرحلات: «نولاربور» (سفر بلا أشجار)
Nullarbor

للكاتب الفرنسي ديفيد فوكمبورج
دار نشر Hoebeke، ١٨٦ صفحة، ١٨ يورو.



هو مترجم وكاتب نشرات سياحية، مارس الملاكمة في كوبا، ومشى مع المتظاهرين في الأرجنتين، وعزف الجيتار في فرق الفلامنكو. وفي الثالثة والثلاثين من العمر احترف ديفيد فوكمبورج الكتابة، ونال مؤخرا جائزة نيكولا بوفييه عن كتابه الأول «نولاربور». والكتاب عبارة عن قصص مقتضب وخلاق لتنقلات الكاتب في بقاع أستراليا البرية. وتكفل واقعية الحوارات لهذه الرحلة المصورة شيئا من التوتر المستمر الذي يميز أفلام الحركة والإثارة. وفي معرض اجتيازه ذلك السهل الخالي من الأشجار (وهو ما تعنيه كلمة «نولاربور»)، يمر الراوي بالفنادق الرخيصة ويقابل أشخاصا تحيط بهم الشكوك. ويجد هذا المواطن الفرنسي نفسه ضائعا في تلك الأرض التي يراها أكبر مما يتصور وأكثر عنفا مما يتحمل. وبعد رحلة صيد لاهثة على متن سفينة مجانين، ها هو «نابليون» الجديد الذي تقرحت ذراعاه بفعل مجاذبة شباك الصيد، يجد حسن الضيافة عند إحدى قبائل السكان الأصليين، الذين يسحبون إليه أيديهم بعهود الأخوة. ولكن الطبيعة تستعيد حقوقها ومجراها، وتنبعث من الأرض الحمراء المخضبة الدماء هبة هواء حيوانية. وفي النهاية، تختفي كل الأصوات، عندما يغرق العالم القديم في لُجج تضحية أخيرة.

المرشحون في هذه الفئة:

- «في مدح الطاقة الشاردة» للفرنسي سيلفان تيسون، منشورات «ليزيكواتور».
- «صحارى حارقة» للفرنسي فيليب فري، دار جوزيه كورتي لاتيس.

✻

٤ - جائزة الأدب الأجنبي: رواية «ثيران القلب الكسير»
(Les Bisons du Cœur Brisé)
للكاتب الأمريكي دان أوبراين
Dan o'Brien
ترجمها من الإنجليزية إلى الفرنسية لورا ديرأجنسكي.
دار نشر «أو ديابل فوفير»، ٣٦٦ صفحة، ٢٣ يورو.



بدأت القصة بتبادل نظرات غير عادية: على الطرف الأول كان دان أو براين، المؤلف الذي يهوى الصيد في سهول ولاية داكوتا. وعلى الطرف الآخر كان هناك ثور بري جسده يشبه جبلا من العضلات، ورأسه تحاكي في ضخامتها الغسالة الكهربائية، من تلك المواجهة، التي تشبه مواجهات ميلفيل بين الإنسان والحيوان، والتي تمثل مشهدا افتتاحيا رائعا للرواية، ينشأ في رأس الكاتب مشروع إلحاق هذا المخلوق الأسطوري بمزرعته القائمة في سهول الغرب الشاسعة. وتقدم رواية «ثيران القلب الكسير» سردا إكلينيكيا ومؤثرا في آن، يحكي فصول تلك المغامرة. ففي الصباح يتراءى لنا أوبراين في صورة أستاذ الجامعة الذي يدرس الإنشاء الإبداعي ويكتب رواياته. وبعد ذلك، نراه يجتاز مئات الكيلومترات، على صهوة جواده، قاصدا أراضي الطبيعة البكر. ويخلص كاوبوي الأدب الأمريكي في كتابه إلى أن «مستقبل العالم يكمن في الحفاظ على الجمال الوحشي»، وهي رسالة أشبه ما تكون بأنشودة للطبيعة بفضاءاتها الرحبة، أنشودة لا تفسدها الغنائية الزائفة، وهو ما يجعلها تترك أثرا عميقا في نفس القارئ، كذلك الأثر الذي يخلفه الحديد الساخن على جلد ثيران الغرب البعيد.

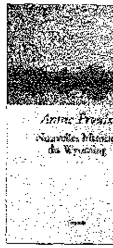
المرشحون في هذه الفئة:

- رواية «كتاب يالك» للأمريكي ريك باس، دار نشر جاليمستر.
- رواية «فعل أملاه الحب» للإنجليزي جيمس ميك، دار نشر ميتاييه.

✻

2007

١٢ - أفضل مجموعة قصصية: «قصص جديدة من الويومنغ»
(Nouvelles Histoires du Wyoming)
للكاتبة الأمريكية آني برولكس
Annie Proulx
ترجمها من الإنجليزية إلى الفرنسية أندريه زافري
دار جراسيه، ٣١٠ صفحات، ١٧,٩٠ يورو.



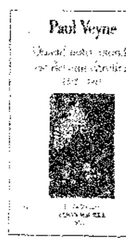
آني برولكس ليست روائية حساسة فحسب، وإنما هي أيضا قاصة ماهرة ففي القصص الإحدى عشرة التي تتضمنها هذه المجموعة الرائعة، تقدم آني لقطات مقربة متباينة لمنطقة «ويومنغ» التي تصفها كأرض مستقطعة من فيلم من أفلام رعاة البقر، بشمم جبالها المدببة، وقطعانها التي تفترش المدى، ومراعيها الراكضة خلف الآفاق. وعلى تلك الخلفية التي تصنع من الطبيعة فردوسا حالما، تصف كاتبة رواية «جبل بروك باك» في هذه المجموعة مخاوف البشر وحيرتهم، وهي تصور أحوال فلاحين أحاطت بهم الوحدة، وفلاشين استعبدتهم رجاجة الخمر في أيديهم، ومهمشين مكدسين في عرباتهم، وهنود قضمهم البؤس، ومحاربين قدماء سلبتهم حرب فيتنام العقل والصواب، ومزارعين أفزعتهم رؤية غربهم الأمريكي القديم يتشوه تحت وقع أقدام الحداثة الزاحفة. هذا وبالرغم من كون غرب آني برولكس يبدو محصنا من عبثات التلوث الباحثة، فهو في النهاية غرب فاقد للبراءة، فهو ليس إلا حلما مكسورا، راحت الكاتبة تعبث في أنقاضه بشيء من الحسرة الحارقة.

المرشحون في هذه الفئة:

- مجموعة «لطشة برد» للأمريكي توم جونز، دار ألبان ميشيل.
- مجموعة «حالة أوستاند» للفرنسي إيريك إيمانويل شميت، دار ألبان ميشيل.

❊

١٣ - أفضل كتاب في التاريخ: «عندما أصبح عالمنا مسيحيا (٣١٢-٣٩٤)»
(Quand notre monde est devenu Chrétien)
(312-394)
المؤرخ الفرنسي بول ڤين،
دار نشر ألبان ميشيل، ٣٢٠ صفحة، ١٨ يورو.



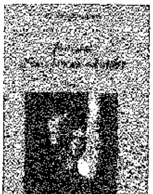
إن المقولة التي تؤكد أن أية ديانة هي في الأصل طائفة قد اكتسحت، هي مقولة تفتقر إلى إظهار أسباب التحول العقدي. وبعد ادوارد جـ. جيبون وغيره من المؤرخين، يعمد بول ڤين في هذا الكتاب إلى استجلاء الأسباب التي حولت المسيحية من عقيدة يؤمن بها قلة قليلة من البشر إلى ديانة متاحة للجميع. ومن المعروف عن الكاتب براعة التأليف وحسن العرض، ولكنه هنا يتفوق على نفسه. فهو يبدأ بتفنيد فكرة وجود حسابات خفية وراء اعتناق الإمبراطور قسطنطين الأول للمسيحية، فهو يذكر بأنه لم يكن يصطنع الإيمان، إذ لم يحتج الأمر وقتا طويلا كي يقوم ابن أخيه الإمبراطور جوليان المرتد بتصفية حساباته مع ديانة لم تكن تجتذب في المحصلة أكثر من ١٠٪ من تعداد سكان الامبراطورية. لكن نسبة الـ ١٠٪ تلك كانت تمثل في مجملها صفوة المجتمع. الصفوة التي خضعت وسلمت أمرها لتلك القصة الجديدة العجيبة، التي يقارن بول ڤين بين نجاحها الكاسح ونجاح الكتب الأكثر مبيعا، التي تأخذ أحداثها بالألباب. كان الأمر أشبه ما يكون بقفزة إلى رأس السلطة، ممثلة في بياض الدولة، تلاها فيما بعد اتباع سواد العامة، استجابة لـ «فضيلة ملزمة تقضي بوجوب اتباع مسلك الجماعة». هذا وتمتاز هذه الدراسة التاريخية السوسيولوجية لبدايات الديانة المسيحية بأنها تحفل بكثير من مواطن السخرية والمفارقة، وهو ما يجعل منها مؤلفا نموذجيا في مجالها ومتعة حقيقية للقراءة.

المرشحون في هذه الفئة:

- كتاب «قوات الـ اس اس» لجان لوك لولو، دار نشر بيران.
- كتاب «ثمن المجد» لبيار برا ندا، دار نشر فايار.

❊

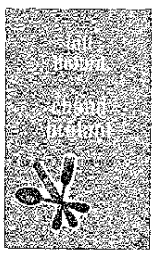
١١ - أفضل رواية جنسية: «مذكرات امرأة زانية»
(Le Journal d'une femme adultère)
للمؤلف الأمريكي كيرت ليڤاينت
ترجمتها من الإنجليزية إلى الفرنسية بياتريس ڤيارن،
دار نشر آناتوليا، ٢٨٠ صفحة، ٢٥ يورو.



بعد أن قدمت منشورات آناتوليا رواية «في مدح النساء الناضجات» لستيفن ڤيزينكزي، ها هي تهدينا في هذا العام رائعة أخرى من روائع الأدب الجنسي، فإن كان غلاف الروايه لا يمكن أن يمر مرور الكرام، فالرواية في حد ذاتها تستاهل وقفة للاستكشاف، لاسيما أن مؤلفها، الأمريكي كورت ليفاينت لم تتم ترجمة أعماله في لغتنا الفرنسية من قبل. وتدور أحداث هذه المذكرات حول «جينو» المصور وصديقه «تشارلي» الطبيب النفسي، اللذين تربط بينهما علاقة صداقة قديمة منذ كانا معا على مقاعد الدراسة في المدرسة اليهودية. فما إن يتخطى كل منهما الأربعين حتى تدخل إلى حياتهما امرأة تهز تلك العلاقة وتغيرها. تلك هي «اڤيفا» عازفة الكمان التي تتخذ من جينو عشيقا، ومن تشارلي معالجا. من دون أن تعلم أن الرجلين يعرف كل منهما الآخر. هذا ويستخدم المؤلف أدوات تشريح ذلك المثلث التقليدي بمهارة لم تعهد من قبل، فيحكي لنا القصة من وجهة نظر كل شخصية، قبل أن يختتم كتابه بسرد النهائي لأهم المعاني التي جاءت في الرواية. هذه المذكرات، التي تكاد تخلو من المجون، هي في الواقع عمل أدبي ناجح، والاستمتاع بها غير مقصور بالطبع على محترفي الخيانه الزوجية.

❊

١٥ - أفضل كتاب في فن الطبخ: «ساخن ملتهب»
(Heat Buford)
للأمريكي بيل بفورد Bill Buford
ترجمته من الإنجليزية إلى الفرنسية إيز بيل شابمان
دار نشر كريستيان بورجوا، ٥٤٢ صفحة، ٢٥ يورو.



يمثل هذا الكتاب عملا ضخما في فن الطهي وفن الصحافة معا. فمؤلفه هو مدير التحرير السابق لمجلة «جرانتا» الذي يعمل حاليا بين محرري مجلة «نيو يوركر» الشهيرة. وهو هنا يقدم لنا تحفة أشبه ما تكون بالمشهيات اللذيذة السريعة، حيث كل صفحة تنم عن عبقرية في فنون المقال والتحرير والتصوير. إذ يحكي بيل بفورد على مدار الصفحات تجربته الشخصية في دهاليز مطعم «بابو» الشهير بمانهاتن، من دون أن يخفي آية تفاصيل من مشاهداته في كواليس هذا الصرح المطبخي الكبير. كما يجري الكاتب حوارا مع رئيس الطهاة هناك، الشيف ماريو باتالي، فيصورد كشخصية غير نمطية، ذات شغف بالطعام وبالحياة. كما يتناول المؤلف سرد وقائع رحلته إلى إيطاليا، حيث أتقن صنع المعجنات الطازجة وتقطيع اللحوم. «ساخن ملتهب» هو بحق كتاب فريد ومفيد، وهو إلى ذلك ممتع إلى درجة التسرية، ومضحك إلى حد القهقهة.

المرشحون في هذه الفئة:

- «خضروات مدهشة» للأمريكية باتريشيا ويلز، دار «جوزيه كورتي لاتيس».
- «أسرار مطبخ الأخوات سكوتو»، منشورات «لوشين».

❊

١٦ - أفضل رواية بوليسية: «مستر بوكس»
(Mister Boxe)
للكاتب الأمريكي إيدي مولر
Eddie Muller
ترجمه من الإنجليزية إلى الفرنسية باتريس كارير
دار نشر فايار، ٤٤٤ صفحة، ٢٣ يورو.
النص في الإنجليزية بعنوان:
The Distance: A Crime Novel Introducing Billy Nichols



بيلي نيكولز محرر في صحيفة «سان فرانسيسكو انكوايرر»، يكتب عمودا يوميا تحت عنوان «بين الحبال». يعشق الملاكمة، وأجواء الحلبة

وصالات التمرين، بمثل ما يعشق أجواء مجلته وصالات التحرير. هذا هو بيلي الذي يمارس مهنة يحبها، ومرتبط بفتاة تحبه، ويخالط أصدقاء مقربين، أهمهم، ذلك التعس «عالت» الملاكم المصنف في فئة الوزن الثقيل، الذي لا يدرك مبلغ قوته. وفي ذات ليلة، يضرب هال مدير أعماله فيرديه قتيلا. فيساعد بيلي صديقه للتخلص من الجثة، ليجد نفسه المتهم الأول في جريمة القتل. هذا ويعرف عن المؤلف أنه متخصص في كتابة أفلام الدراما السوداء في عصرها الذهبي. لذلك حين أراد أن يكتب روايته الأولى، توجه مباشرة إلى عالمه الأثير الذي يعرفه كل المعرفة. فارتد إلى أجواء عقد الخمسينيات. وإلى سان فرانسيسكو وملاهيها الليلية الصاخبة، ورجال المافيا الذين ينفثون دخان السيجار الغليظ، ومغامرات الرجال والنساء الفاتنات. إذ تعد رواية «مستر بوكس» بمثابة تكريم لأساطير الرواية البوليسية. فكل ما فيها، من حوارات بواسطة المدافع الرشاشة، إلى احتداد لحس الوصف والتصوير، إلى عملية المونتاج المتوترة التي تحكم كل مشهد، كل شيء قد تم إنجازه بشكل واضح ومنتظم، لكي يستشعر القارئ صخب الحلبات، ويشاطر الأبطال أحلامهم المستحيلة.

المرشحون في هذه الفئة:

- «تفسير جرائم القتل»، للأمريكي جد روبنفلد، دار نشر «باناما».
- «مدينة الدراما»، للأمريكي جورج بيليكانوس، منشورات «سوي».

※



١٧ - أفضل دراسة: «مجتمع الارتياب»

(La société de défiance)

يان ألجان وبيار كاهوك

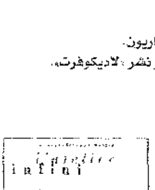
دار نشر «رو دولم» ١٠٠ صفحة، ٥ يورو.

من أين يأتي ذلك التخاذل الذي تعيشه فرنسا؟ من بين كل المفارقات الغريبة التي طالتها، ثمة مفارقة قد فرضت ألف تفسير وتفسير، ألا وهي عجز فرنسا عن توصيف نفسها بما يتفق مع حقيقتها، مقارنة ببقية العالم. هذا التفسير يقدمه باحثان في مائة صفحة من شأنها أن تحمل الأعمى على الإبصار والأصم على السمع والإنصات. أما المادة الأولية لهذه الدراسة فهي استطلاعات الرأي الميدانية. إذ يقوم كل من «يان ألجان» أستاذ الاقتصاد، و«بيار كاهوك» أستاذ الهندسة، بإظهار مدى الارتياب الذي يقوض علاقة الفرنسيين ببعضهم البعض، وعلاقتهم بمؤسسات الدولة (البرلمان، القضاء، النقابات)، كما يظهر الباحثان مبلغ انهيار الإحساس بالانتماء الوطني في المجتمع. فمن بين كل عشرة فرنسيين هناك ستة لا يجدون غضاضة في إساءة استغلال خدمات الدولة ومساعداتها! وتحت غطاء كل من التجمعات النقابية وحماية الدولة، اللتين تفرزان حالة من الريبة، تكمن السمات السلبية الثلاث التي تنفرد بها الحالة الفرنسية، ألا وهي فوبيا المنافسة، والدفاع عن التكسب من ريع الموقع، والفساد. فما هو الإجراء الذي يسعه الخروج بنا من هذه الحلقة المفرغة؟

المرشحون في هذه الفئة:

- «الفحش الديمقراطي»، لريجي ديبريه، دار نشر فلاماريون.
- «أسوأ عالم على الإطلاق»، للأمريكي مايك ديفيز، دار نشر «لاديكوفرت».

※



١٨ - أفضل كتاب عن الفنون: «لانهائية الألوان، ٢٠ ألف عام من الرسم»

(couleur infini, 20 000 ans de peinture)

جان كريستوف بايي

دار نشر «آزان» ٣٢٠ صفحة، ٤٩ يورو.

عادة ما تحدثنا كتب تاريخ الفن عن كثير من التاريخ وقليل من الفن، الأمر الذي يولد بداخلنا عند القراءة شعورا بالانغماس في الماضي من دون الاقتراب بالقدر الكافي من الأعمال الفنية. أما هذا الكتاب فهو مختلف تماما، فهو لا يقدم الأعمال الفنية بوصفها أدوات معرفية، وإنما يجعلنا نتأملها ونحبها. وهو ينجح في تلك المهمة بصورة رائعة. فما أجمل أن يقال لنا إن لوحة «إنزال الصليب» لروجيه فان در فيدن تشبه «رقصة انهيار غريبة وبطيئة»، وإن بورتريه الصبية للفنان بتروس كريستوس، فيه ما ينكر بوجه حصان أسطوري يبرز قرن من جبهته، وإنه يمثل «وجها شتويا مدهشا»! وما أجمل أن يقال عن حاكمات فرانز هالز إنهن يؤلفن «شكلا تبدو فيه الفاكهة وكأنها وجود «عميق»! أو أن يقال لنا إن تردد ماتيس بين التجريد والتصوير يعبر عن «انفعال الفن الحديث بأسره تحت شمس النهار على العالم الكثيف»! أجل، ما أحوجنا لأن نسمع هذا الأسلوب في الحديث عن فن التصوير! فإن لهذه «مهارة في القلب» وقما يحظر ما يشبه «دمع الفن الشجي».

المرشحون في هذه الفئة:

- «بالرسم، يا سيمون»، لآلان كريانج، منشورات «فاج».
- «تاريخ القبح»، لأمبرتو إكو، دار «فلاماريون».

※



١٩ - أفضل كتاب للأطفال: «جولة مونك على دراجة حول العالم»

(Le tour du monde de Monk à vélo)

مارك بوتافان Mark Boutavant

ألبان ميشيل للصغار، ٢٨ صفحة، ١٤،٩٠ يورو.

بهدف حث الصغار على التعرف على تنوع الثقافات، يطلق الكاتب مارك بوتافان بطله «الدب مونك» في رحلة حول العالم، والنتيجة مهرجان من الألوان المبهجة التي تقفز على الورق اللماع. مهرجان يبهر العينين وينعش الخلايا العصبية بصوره المتسعة بالشخصيات، والنباتات، والكلمات التي تجذب الطفل لاستكشافها. ففي اليونان «ياسو» ثمة أخطبوط يقود التاكسي العائم في بحر دافئ الزرقة، بينما راحت القطة تقرأ أشعارا لهوميروس. أما في بوركينا فاسو، فيطالعنا مونك وهو يلبس الزي الوطني ويشرب عصير الفاكهة الأحمر اللذيذ، ومن حوله الغزلان ذات القرون الملتوية، والقنفذ والسحالي الأفريقية ذات الألوان المتغيرة. وتحت أشجار جوز الهند بمدغشقر، راحت النسانيس والقردة ترقص حول النار بأعينها الجاحظة. وفي اليابان، حيث الربيع المشمس، يظهر مونك وهو يستمتع بتناول الماكي والنواجاتي مع صديقه «مانيكي نكو» القط الذي يجلب حسن الطالع. إن هذا الكتاب المصور يمكن قراءته كقصة ممتعة، أو كألبوم صور عملاق، أو كرحلة تحفل بألف اكتشاف واكتشاف. فعلى كل طفل أن يختار مطيته في هذه الرحلة المتجهة صوب التلقي.

المرشحون الآخرون:

- «جورج وأسرار الكون»، للأمريكيين لوسي وستيفن هوكنج، منشورات بوكت.
- «العفو»، للإيطالي ديفيد كالي، رسوم سيرج بلوك، منشورات منظمة العفو الدولية.

※



٢٠ - أفضل يوميات: «رائحة الزمن»

(Odeur du temps)

جان دورميسون Jean D'Ormesson

منشورات ايليز دورميسون، ٤٨٠ صفحة، ٢٣ يورو

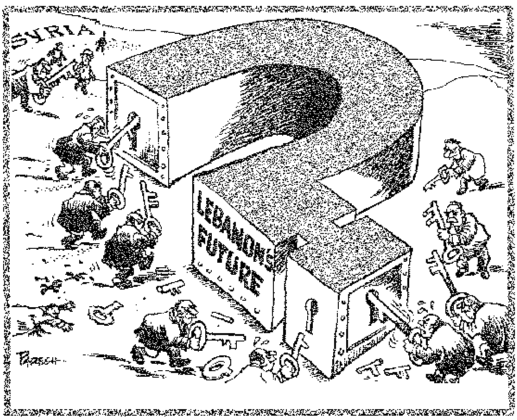
بمقتضى التعريف، ترتبط كتابة اليوميات بالآني والمستجد من الوقائع، وهو ما يجعل منها فنا يحمل في طياته أسباب فنائه. لكن هذا لا يسري حينما يكون الموقع على اليوميات الأديب الكبير جان دورميسون. وأكبر دليل على ذلك هو هذا الكتاب الجديد الذي يضم نصوصا نثرية نشرها الكاتب في كل من صحيفة «لوفيجارو» ومجلة «لو فيجارو ماجازين». فبعد سنوات من نشرها، تحمل كلمات هذا الأكاديمي الذي لا يشبه الأكاديميين كل ما أحببناه فيها عند القراءة الأولى. وكأنها زبد الموهبة الذي لا ينضب هباء قط: هنا كل مكر الرجل، وكل علمه المتدفق، وطريقته الأنيقة في تصفية الحسابات من دون إسالة الدماء. (لاسيما مع برنار فرانك)، وأيضا ميله إلى سرد ذكرياته وأفراحه بكثير من البهجة والخفة والحنين والطلاقة. وإن كان شاتوبريان مازال الأفضل في نظره، فثمة مكانة عنده لأراجون، ولسيوران، ولموريان، ويورسنار. كما تحفل يوميات دورميسون بتذكر جريتا جاربو، وجون ماكنزي، والأخوات ميتفورد وفينيسيا. وما بين إبداء الإعجاب وإسداء التكريم، يقدم لنا جان دو واحدا من أكثر مؤلفاته إمتاعا ومؤانسة.

المرشحون في هذه الفئة:

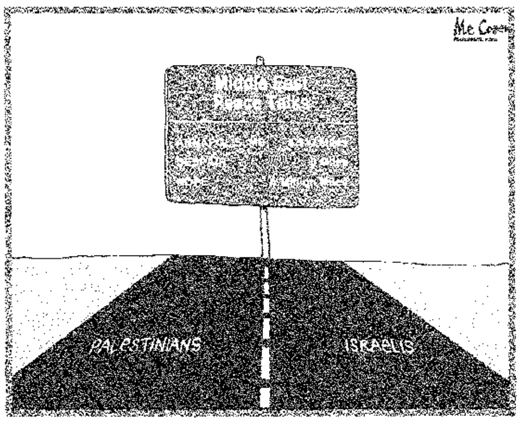
- «٥٠ شارع الإيطاليين»، لبرنار فرانك، جراسيه.
- «أشياء لحظية»، لروجيه جرونيه، جاليمار.

كرتون 2007

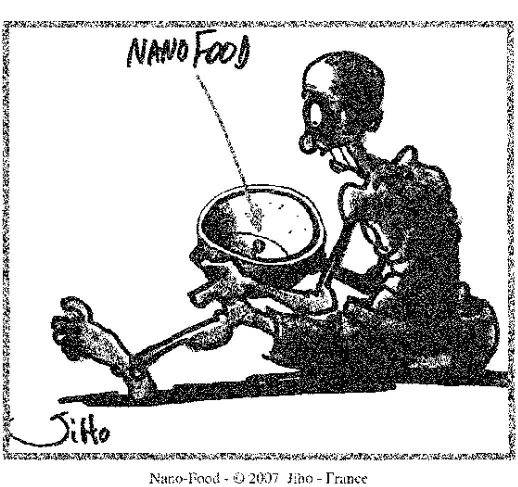
إذا كان المثل الصينى يقول إن صورة واحدة أهم من ألف كلمة، فإن رسامى الكارتون وحدهم
يستطيعون تقديم رؤية مميزة ومدهشة عن أحداث ٢٠٠٧
العاصفة والمليئة بالفوضى بأفضل مما يمكن أن تعبر عنه المقالات والتحليلات.
إنه سحر الرسم الكارتوني وقدرته على اختزال عالمنا المعقد
وأحداثه المتشابكة فى مساحة ضئيلة على الورق تستطيع أن تفتح آفاقا جديدة وتثير
تساؤلات عديدة وترسم أيضا الابتسامة على وجه القارئ.
وجهات نظر اختارت بعضاً من أهم الرسوم الكارتونية المعبرة عن ٢٠٠٧ والتى اختارتها نخبة
عالمية مميزة من الفنانين والصحفيين والكتاب.



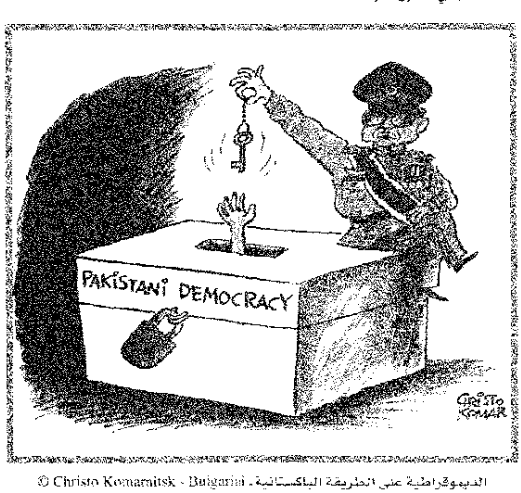
© Copyright 2007 Paresh Nath - National Herald, India c . مستقبل لبنان



© M. e. Cohen - M.e.Cohen/HumorInk.com . السلام في الشرق الأوسط ٢٠٠٧



Nano-Food - © 2007 Jiho - France



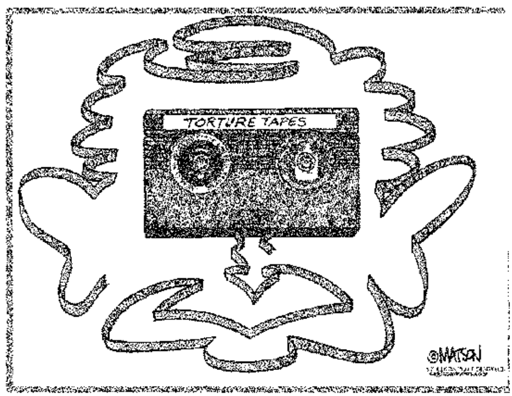
© Christo Komarnitsk - Bulgaria . الديموقراطية على الطريقة الباكستانية



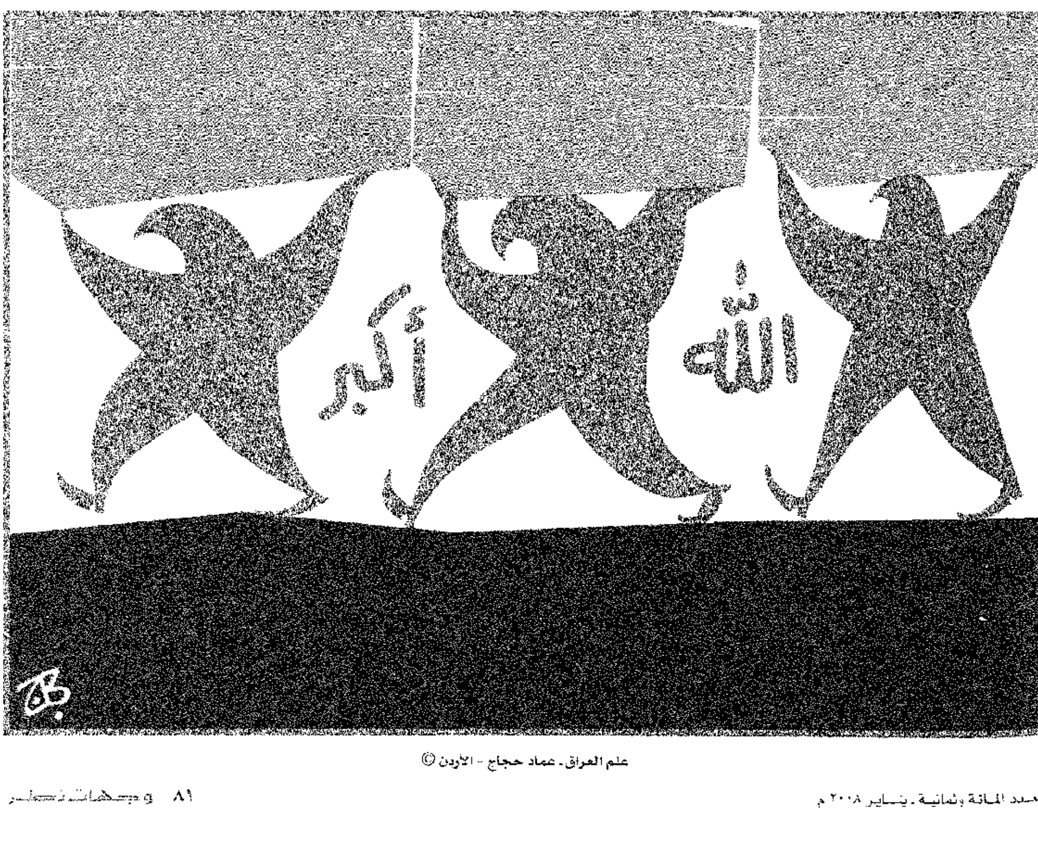




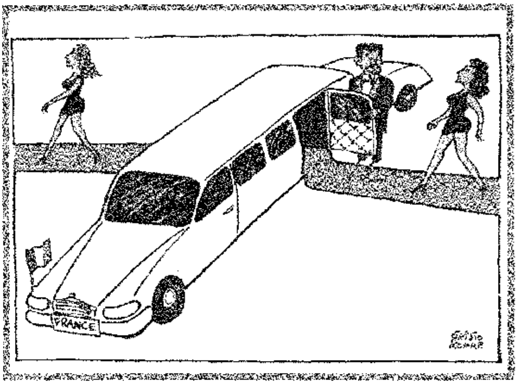
W. Legacy – © Christo Komarnitski - Bulgaria



فضيحة تدمير أشرطة التعذيب . © RJ Matson - The St. Louis Post Dispatch



علم العراق . عماد حجاج - الأردن ©



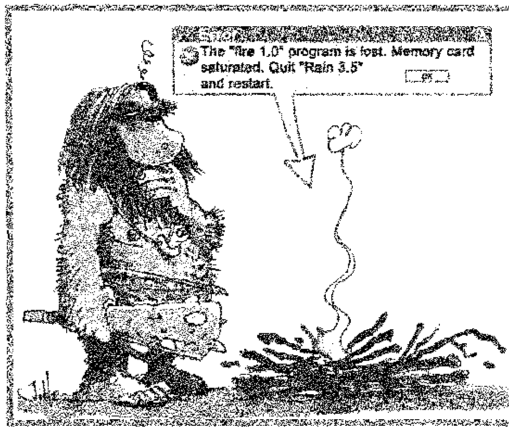
Sarkozy's limo - © Copyright 2007 Christo Komarnitski



© Lalison - Humor World - أسامة (خيال المآتة)



© Mike Lane - Cagle Cartoons - الصين: مراقبة «جوجل»



Windows Vista - © 2007 Jiho - France



© Tab - The Calgary Sun - هاري بوتر



© RJ Matson - The New York Observer - مناظرات «يوتيوب»


أكثر الكتب مبيعًا حول العالم
بين يديك باللغة العربية
تقدم شركة كلمات عربية، لكل قارئ عربي في شتى أنحاء العالم نتاج الفكر الإنساني الغربي وذلك من خلال ترجمة الأعمال الفكرية والثقافية الغربية التي حازت لقب الأكثر مبيعًا في جميع الموضوعات مثل الاقتصاد، والتاريخ، والخيال العلمي، وتبسيط العلوم، إلى جانب سير الأعلام.
تفضلوا بزيارتنا بمعرض القاهرة الدولي للكتاب - صالة ٣ علوي
من ٢٠١١/١/٢٥ حتى ٢٠١١/٢/٤
كلمات عربية


ابحث... اربح... استمتع!
اربح موبايل Nokia كل أسبوع
مزيد من المعلومات ... قم بزيارة YellowPages.com.eg الآن!
YellowPages.com.eg
موقع الدليل الرسمي للأعمال في مصر

